الباب الثالث

تاريخ الأمة الواحـــدة (المسلمة)

فى وادى النيـــل (مصـــر)

فى المصادر الإسلامية ومراجع التاريخ القديم

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الأول

تاريخ وادى النيل (مصر)

المبحث الأول

عصر مابين آدم ونوح عليهما السلام « ماقبل الطوفان »

نعرض بعض جوانب من تاريخ تلك العصور ، اعتمادا على مراجع التاريخ القديم ، مع تقويمها فى ضوء العقيدة الإسلامية :

عصور ماقبل التاريخ [1] :

١ ـ مايسمى العصر الحجرى القديم :

« لقد سبق لنا أن أوردنا ما يقال بأن مخلفات إنسان العصر الحجرى القديم فى مصر

---

(١) حضارة مصر الفرعونية ، تأليف الأستاذ الدكتور أحمد فخرى ، صفحة ٥ . ومؤرخو هذا العصر ، وواضعو هذا التقسيم من المستشرقين ومن سار على نهجهم ، وقعوا فى عدة أخطاء منها :

أولا : اعتبروا أن الإنسان من سلالة القردة ، التى تطورت بدورها ، من الخلية الحية التى نشأت في البرك والمستنقعات عَبْر ملايين السنين ، فأنكروا بذلك أبوة آدم عليه السلام للبشر ، وأطلقوا على هذه الفترة اسم عصور ماقبل التاريخ ، والعصور الحجرية ، وأن إنسانها كان يعيش معيشة لا تختلف عن معيشة الحيوان .

ثانيا : زعم المستشرقون ومن سار على نهجهم ، أن الإنسان لم يكن يعرف الكلام ، ولم يكن يعرف كيف يعبر عن الأشياء ، وأنه لم يكن يعرف له ربا ، ولم يكن يرتضى الإسلام دينا ، ولم يكن يعرف الكتابة إلى آخر مازعموه . وقد رددنا على هذه المزاعم وبينا خطأها ، ووصلنا إلى نتيجة ، أن آدم عليه السلام هو أبو البشر وأن الله قد خلقه بطول ستين ذراعا ، وأنه كان يعرف ربه وخالقه وسيده ومولاه سبحانه وتعالى ، وأنه كان يدين بالإسلام ، وأن الله قد علمه كل شيء ، بما فى ذلك جميع الألسن ومنها اللغة العربية ، وأنه كان يقرأ ويكتب . وجاءت بعد آدم عشرة قرون كلها على الإسلام ، ثم حدث الانحراف عن دين الله ، فأرسل نوح عليه السلام ، وبعد أداء واجب البلاغ ، أغرق الله الأرض بالطوفان واستأصل شأفة جميع الكافرين . وهذا هو الذى يفسر عدم وجود وثائق مكتوبة فى عصر ماقبل الطوفان لأنه قد اندثرت معالمها . ومن هنا يتبين لنا خطأ تسمية عصور ماقبل التاريخ ، وتسمية العصور الحجرية (انظر أخطاء يجب أن تصحح فى التاريخ ، الإسلام دين الله فى الأرض وفى السماء ، منهج =

وشمال أفريقيا قد تشابهت مع مخلفات إنسان أوربا وآسيا التى ترجع إلى نفس العصر[1] . وقد عثر على هذه المخلفات على المرتفعات التى تحيط بوادى النيل ، وفى بطون الوديان الجافة وفى الصحراء والطرق المؤدية إلى الواحات » . وهذه نتيجة الأبحاث الأثرية .

٢ ـ مايسمى العصر الحجرى الحديث :

« لقد عرف إنسان العصر الحجرى الحديث فى مصر المعيشة فى قرى صغيرة ، كما عرف استعمال الملابس ، ودفن الموتى فى قبور [2] ، كما بدأ فى صناعة بعض أدوات الزينة والتماثيل [3] وقد عثر على مخلفات إنسان هذا العصر فى قرى عديدة ـــ بالدلتا والصعيد ـــ أهمها : مرمدة بنى سلامة ـــ والعمرى ـــ والفيوم ـــ ودير تاسا » .

مدنية مرمدة بنى سلامة[4] (٤٤٠٠ ق . م) :

« عثر الأثريون على بقايا قرية على حافة الدلتا الغربية (الوجه البحرى) ، تسمى مرمدة بنى سلامة .

وقد أثبتت الأبحاث الأثرية أن مساحتها لم تكن تزيد على ستة أفدنة ، وأن أهلها قد عرفوا تشييد الأكواخ من الطين على جانبى طريق مستقيم . وأن حياتهم كانت تعتمد على الزراعة والرعى ، وأن محاصيلهم كانت تحفظ فى صوامع صنعت من الخوص . وذلك بالإضافة إلى أن أهل مرمدة استعملوا الملابس الكتانية بعد غزلها كما أن النساء عرفت التحلى بالعقود والخواتم والحلقان من العاج ، واستعمال التوتية الزرقاء فى تكحيل العيون . كما ثبت أيضا استعمال أشكال مختلفة من الأوانى الفخارية فى أغراض الحياة اليومية ، ودفن الموتى فى أرضية الأكواخ التى كانوا يسكنونها » .

= = كتابة التاريخ الإسلامى . لماذا ؟ وكيف ؟ وكتابنا الذى بين يديك) .

(١) أليس هذا دليلا على وحدة الأصل البشرى أوجه تشابه مدنياته فى كل بقاع العالم فى ذلك الزمان « كان الناس أمة واحدة » .

(٢) وقد بينا فى قصة ابنى آدم أن الله هو الذى علم أبناء آدم كيف يدفنون موتاهم .

(٣) وهذا دليل ـــ إن صحّ الدليل ـــ على انحراف الأمة عن الإسلام إلى عبادة الأوثان .

(٤) حضارة مصر الفرعونية ، ص ٨ .

٣ ـ مايسمى العصر الحجرى النحاسى :

(١) مدنية البدارى (٤٥٠٠ ق . م) :

عثر على مدنية هذا العصر فى منطقة تقع إلى الغرب من البدارى (إحدى مراكز الوجه القبلى) ، وقد أثبتت الأبحاث الأثرية التى تمت فى هذه المنطقة ما يأتى :

١ ــ عرف أهل البدارى المسكن البسيط ، المزود بالأثاث البسيط (أسرة خشبية ، وسادات من الجلد أو الكتان المحشو بالتبن) .

٢ ــ كان البداريون يدفنون موتاهم فى جبانات مستقلة عن قراهم . وكانت الجثة تدفن بعد لفها فى الحصير ، على أن توضع رأسها على وسائد نحو الشرق ، مهما كان اتجاه المقبرة (١) .

٣ ــ استعمل البداريون أيضا ، الملابس الكتانية والجلدية . كما أنهم كانوا يتحلون بالعقود والأساور المكونة من حبات من الفيروز والعقيق والكوارتز ، وبالأمشاط العاجية المزينة بأشكال الحيوانات ، كما كانوا يستخدمون الكحل للعيون واللون الأحمر للشفاه .

٤ ــ كانت حياتهم تعتمد على الزراعة ، وتربية الحيوان . كما أنهم عرفوا عصى الرماية لصيد الطيور ، والشصى لصيد السمك ، وذلك غير الحراب والسهام ، والقوارب .

٥ ــ عثر على جثث بعض الحيوانات مثل الغزلان والقطط مدفونة مع الموتى مما دفع بعض الأثريين إلى القول بتقديس تلك الحيوانات (٢) .

٦ ــ استعمل البداريون أنواعا مختلفة من الأوانى والكؤوس المختلفة الأشكال من الفخار . كما ألقت الأبحاث الأثرية الضوء على جوانب أخرى لمدنية هذا العصر المحلية ، والتى من أهمها استعمال النحاس جنبا إلى جنب استعمال الحجر فى صناعة الأدوات .

(ب) مدنية نقادة الأولى (بين ٤٤٠٠ ، ٣٩٥٠ ق . م) :

ويسمينها بعض علماء الآثار « العمرة » ، وقد اقتصر مجال ظهورها على شمال بلاد

---

(١) هل هناك صلة بين توجيه المتوفى هذه الوجهة . حيث قبلة المسلمين فى مكة المكرمة ، وعقيدة المصريين فى هذه الفترة ؟؟

(٢) مصر الفرعونية ص ١٥ ــ ١٢ ، لماذا يفترض الأثريون أن المصريين كانوا يقدسون تلك الحيوانات ؟ .

النوبة والجزء الجنوبى من صعيد مصر . ومن أهم ملامح هذه الحضارة استعمال الحجر فى صناعة الأوانى المختلفة الأشكال لحفظ المشروبات وحفظ مساحيق الوجه وكحل العين ، واستخدامها فى صناعة الأسلحة التى من بينها دبابيس القتال ، وذلك غير صناعة القيشانى ، وزخرفة الأوانى والأدوات بالرسومات والنقوش . كما عرف أهل نقادة صناعة التماثيل ، ونماذج القوارب والنعال لتوضع مع المتوفى فى قبره .

وواصل أهل نقادة دفن الموتى داخل توابيت فى جبانات مستقلة عن المساكن مع تزويد مقابرها بالأثاث الجنزى .

(جـ) مدنية نقادة الثانية (بين ٣٩٠٠ ــ ٣٤٠٠ ق . م) :

وقد عثر على مخلفاتها فى كثير من مناطق مصر ، مما يدل على انتشارها على نطاق واسع . ومن مميزات عصر هذه المدنية نشاط التجارة الداخلية ، والخارجية لجلب المواد مثل اللازورد ، كما أن المساكن كانت تبنى أحيانا من اللبن ، أو من أعواد النبات المغشاة بالطين . ويخمن علماء الآثار بأنهم عرفوا عبادة الصقر والبقر وغيرها .

(د) عصر قبيل الأسرات (٣٤٠٠ ق . م) :

وهى الفترة التى بدأت تتضح فيها ملامح التنظيم السياسى للبلاد فحينما تم تقسيم بلاد الصعيد إلى اثنين وعشرين إقليما ، وتقسيم بلاد الدلتا إلى عشرين إقليما ، كثيرا ما كان النزاع يثور بين هذه الأقاليم حول الحدود والأراضى الزراعية .

وحينما كان يظهر زعيم قوى ، كان يحاول أن يضم إليه شيئا من أراضى الإقليم المجاور ، أو توحيدها تحت زعامته . واستمر الأمر كذلك إلى أن تم توحيد أقاليم الدلتا تحت سلطة واحدة ، وكذلك الأمر بالنسبة لأقاليم الصعيد ، وأصبح هناك ملكين أحدهما للجنوب (الصعيد) ويتخذ نباتا يسمى « سوت » رمزا له ، ويرتدى تاجا أبيض اللون ، وآخر لأقاليم الشمال ، كان يرتدى تاجا أحمر اللون ، ويتخذ النحلة شعارا له .

وجاء الوقت (حوالى ٣٤٠٠ ق . م) الذى نجحت فيه جهود حكام الدلتا فى قهر حكام الصعيد وتوحيد شمال مصر وجنوبها تحت حكم ملك من ملوك الشمال ، متخذين من هليوبوليس عاصمة لهم ولكن هذه الوحدة لم تعمر طويلا ، وسرعان ما انفصمت عراها وعاد كل من الوجهين (البحرى والقبلى) إلى استقلاله .

وحوالى ٣٢٠٠ ق . م ، نجح أحد حكام الصعيد فى إخضاع الدلتا وتوحيد البلاد تحت حكمه ، مؤسسا بذلك الأسرة الأولى المصرية .

obeikandl.com

المبحث الثانى

وادى النيل (مصر)

عصور ما بعد الطوفان

مابعد نجاة نوح عليه السلام ومن معه من المسلمين

وما قبل بعثة يوسف عليه السلام

إلى شعب مصر [1]

تمهيـــد :

عرفنا أنه بعد أن بَلّغ نوح عليه السلام رسالة ربّه أهلك الله سبحانه وتعالى الكافرين بالطوفان ونجّى المسلمين المؤمنين بقيادة نوح عليه السلام .

وكان لنوح عليه السلام ، ثلاثة أبناء هم سام ، وحام ، ويافث . الذين هاجروا إلى جزيرة العرب وإفريقية وأوربا مأذونا لهم من والدهم فى تأسيس المجتمعات الإسلامية فى تلك القارات ، وبهذا أصبح سام أبا للعرب ، وحام أبا للحبش ويافث أبا للروم . وجرى تعمير الأرض ، وكان التزاوج والاختلاط بين شعوب الأرض ، وذلك يعنى أن شعب مصر ينتسب فى الأصل إلى حام وسام ابنى نوح عليه السلام ، وهم جميعا يرجعون بنسبهم إلى آدم عليه السلام .

وذلك يعنى أيضا أن شعب مصر الذى عاش فى وادى النيل فى عصر ما بعد الطوفان هو من ذرية المؤمنين المسلمين الناجين من الطوفان مع نوح عليه السلام [2] .

---

(١) ومأوردناه هنا مأخوذ عن مراجع التاريخ القديم (حضارة مصر الفرعونية د . أحمد فخرى) وهى معلومات لا نملك تصديقها أو تكذيبها ، وقد أوردنا تقويما وتعليقا على هذه المعلومات فى ضوء العقيدة الإسلامية .

(٢) للأسف فإن الدراسات التى قام بها المستشرقون ومن سار على نهجهم عن هذه الفترة تجاهلت هذه الحقائق .. تجاهلت عقيدة التوحيد التى كان يدين بها شعب مصر فى ذلك الزمن البعيد .. وتجاهلت حقيقة أصلهم فنسبتهم =

١ ــ عصر بداية الأسرات

أسرتان تحكمان مصر لمدة أربعة قرون

(٣٢٠٠ ــ ٢٧٨٠ ق . م . تقريبا)

ويسمى العصر الثنى أو العصر العتيق أو عصر الأسرات(١) المُبكّر ويشمل الأسرتين الأولى والثانية .

وأول ملوك الأسرة الأولى هو مينا ، الذى أتم ما بدأ غيره من جهد وقام بإخضاع الشمال للجنوب إخضاعا تاما بعد خوض عدة حروب ، موحدا بذلك شقى الوادى تحت حكمه .

وقد اتخذ مينا من « ثنى » بالقرب من أبيدوس عاصمة لملكه ، ومقرا رسميا له ولمن أتى بعده من ملوك الأسرتين الأولى والثانية . ولو أن ذلك لم يكن يمنعهم من الإقامة فى الشمال من آن لآخر فى مدينة منف ــ (القلعة البيضاء) التى أعزى إنشاؤها إليه والتى أصبحت مركزا للنشاط الإدارى(٢) لسهولة الإشراف منها على الوجهين البحرى والقبلى .

= إلى سلالات الحيوانات بدلا من أن تنسبهم إلى أبيهم آدم عليه السلام .

(١) يعزى تقسيم العائلات التى حكمت مصر إلى ثلاثين أسرة ، إلى الكاهن السمنودى مانيتون الذى كتب تاريخا عن حكام مصر بناء على طلب الملك بطليموس الثانى الذى عاش فى القرن الثالث قبل الميلاد ؛ مصر الفرعونية ، ص ٤٤ .

(٢) ترجع الوثائق المصرية القديمة التى عثر عليها إلى بداية عصر الأسرات كما يقول كتاب التاريخ القديم ، وهى تظهر لنا مدى التقدم الإدارى الذى كان عليه إنسان مصر منذ أقدم العصور .

مثال ذلك : تقسيم مصر إلى قسمين رئيسيين ، الوجه البحرى وجعلوا له بيت مال وحامل أختام وأمراء غلال ودار وثائق وكذلك الوجه القبلى .

وكان على رأس الدولة الفرعون الذى تركزت السلطات العليا كلها فى قصره ، وكان يعتمد فى الإشراف الإدارى على طوائف من الموظفين أمثال : حملة الأختام ، ورجال بيت المال ، وحكام الأقاليم ، وكبار رجال البلاط ورؤساء الكتاب .

وقد أطلق المصريون على بيت مال الصعيد « برحج » بمعنى بيت الفضة أو البيت الأبيض : وسمى بيت مال الوجه البحرى بردشر أى البيت الأحمر ، واختص بضرائب الوجه البحرى ودخله وخرجه . ولعل الهدف من ذلك تيسير الإشراف على إدارتين كبيرتين تختص إحداهما بموارد الصعيد وتختص الأخرى بموارد الوجه البحرى . =

وأعقب مينا على العرش الملك « المحارب » (عحا) الذى اضطر لخوض بعض المعارك ضد النوبيين والليبيين لتأمين حدود مصر الجنوبية والغربية .

وقد أعقب هذا الملك عدة ملوك آخرين ، انصبت أعمالهم على تأمين حدود مصر ، والعمل على التوسع فى شئون التجارة ، وتأمين دروبها واستغلال المناجم وإقامة المنشآت الدينية . ويتصف عصر آخر الأسرة الأولى ببدء المنازعات واغتصاب العرش بين أفراد البيت المالك ، مما عجل بنهاية حكم هذه الأسرة .

وخلف الأسرة الأولى الأسرة الثانية التى تبدأ بالملك « حتب سخموى » وتنتهى بالملك « خع سخم وى » ويبدو أن ملوك هذه الأسرة كانوا يفضلون الإقامة فى العاصمة الشمالية « منف »(١) .

عصر بداية الأسرات المصرية يعاصر قيام الدولة العادية بجزيرة العرب :

أورد الأستاذ الدكتور أحمد فخرى معلومة عن خامس ملوك الأسرة الأولى ٣٢٠٠

= وكان حكام الأقاليم يقومون بتنفيذ سياسة حكومتهم المركزية ، وحمل كل منهم لقب « عج مر » بمعنى القائم على حفر الترع ليؤكد أن إشراف أصحابه على شئون الرى والزراعة كان أهم ما يكلفون به ويسألون عنه من أعمال وأشرف رجال البلاط الملكى على إحصاء عام كانوا يجرونه كل عامين كما كانت الحكومة المركزية تقوم برصد ارتفاع فيضان النيل عاما بعام ، حتى تتخذ الإجراءات المناسبة لمواجهة ارتفاعه وتنظيم الانتفاع بمياهه وعلى أساسه تقدّر الضرائب على الأراضى الزراعية .

ولقب الكاتب المصرى بلقب « شس » وكان لقبا يحمل فى طياته معنى المثقف ، ومعنى من يحسن الكتابة ، وكان للكتبة دورهم الرئيسى فى بيوت المال بما تستدعيه من أعمال رصد وتسجيل وحساب . وكان للفنيين والمعماريين نصيب كبير فى أعمال الإنشاء والتعمير وكان هناك أيضا نظار القصور والسكرتاريون أو على حد تعبير المصرى القديم ، والمشرفون على المزارع والحدائق والكروم ، (الشرق الأدنى القديم ، تأليف ا . د . عبد العزيز صالح ، جـ ١ ، ص ٧٦ ، ٧٧) .

(١) من القرائن الدالة على التقدم الذى كان عليه عهد بداية الأسرات ماذكره المؤرخ المصرى مانيتون ، وأورده الأستاذ الدكتور عبد العزيز صالح (الشرق الأدنى القديم ، ص ٨٩) ، أن الملك جِرْ (أثوتيس) أحد ملوك الأسرة الأولى (٣٢٠٠ ق . م ؟؟) قد ألف كتابا فى التشريح وكان بارعا فى الطب .

ومثل هذا التقدم فى هذا المجال ، لابد وأن يكون قد سبقته مراحل كثيرة من الدراسة على مدار زمن طويل ، كما يتصف إنسانه بالقدرة على البحث فى هذا المجال ، وهذه القرينة تبيّن مدى الإجحاف فى إطلاق تسمية العصور الحجرية على إنسان تلك العصور التى سبقت العصور التاريخية وتشبيهه بالحيوان لأنه لا يعقل أن إنسان مايسمى بالعصور الحجرية ، يتمخض فجأة عن إنسان يؤلف فى الطب وفى التشريح فى عصر بداية الأسرات .

ق . م ، ويدعى « دن » ، مأخوذة عن حجر بالرمو ، وتشير إلى أنه قد حارب « البدو الذين فى شرق مصر » (مصر الفرعونية ، ص ٥٠ ، ٥١) .

كما أورد الأستاذ الدكتور عبد العزيز صالح معلومة أخرى تتصل بعصر الأسرة الأولى ، وتشير إلى أنه « قد سجلت بطاقات من عهد ولده عنجاب نشاطاً مماثلاً ضد أقوام أطلقت عليهم اسم « الأونتيو » ، ربما بمعنى أصحاب العمد ، ويغلب على الظن أنهم كانوا من الأقوام الشرقيين الذين أشارت إليهم بطاقة أبيه ، أى من بدو الصحراء الشرقية وبدو سيناء وربما ما ورائها أيضا (الشرق الأدنى ، ص ٨٧) .

وإذا مارجعنا إلى المصادر الإسلامية نجد أنها تذكر القبائل العربية العادية ، وتصفهم : ﴿ **بعاد . إرم ذات العماد . التى لم يخلق مثلها فى البلاد** ﴾ (١) يقول المفسرون : إنهم كانوا يعيشون فى خيام ذات عمد كبيرة ، وأن سلطانهم قد امتد ليشمل بلاد الشام .

وهذا يدفعنا إلى افتراض مفاده أن « دولة عاد » التى قامت فى الجزيرة العربية كانت تعاصر عصر بداية الأسرات المصرية .

وإذا صح هذا الافتراض فذلك يعنى أن شعب مصر كان على علم بدعوة التوحيد التى حمل لواءها هود عليه السلام : ﴿ **اعبدوا الله مالكم من إله غيره** ﴾ (٢) ، فى قومه عاد .

٢ ــ الدولة القديمة (٣) .

ثلاث أسرات تحكم مصر لمدة خمسمائة عام

(٢٧٨٠ ـ ٢٢٧٠ ق . م)

(أ) الأسرة الثالثة

أول وأهم ملوك هذه الأسرة « زوسر » (جسر أو نترخت) صاحب المجموعة الجنزية

---

(١) الفجر : ٦ ــ ٨ .

(٢) هود : ٥٠ .

(٣) وتسمى هذه الحقبة « بالعصر المنفى » ؛ مسكين شعب مصر قدر له أن يكون مطية لثلاث أسرات لمدة خمسة قرون .

التى تضم الهرم المدرج بسقارة والتى يعزى إنشاؤها إلى مهندسه ايمحتب الذى كان يتولى عدة وظائف أهمها الإشراف على الأعمال الإنشائية للملك ، وإدارة القصر ، وكان يحمل أيضا لقب رئيس المثالين ، والرجل الأول بعد الملك « وكبير كهنة الشمس فى « ايون » ثم لقب « الوزير » .

ويقترن عصر هذه الأسرة باكتشاف فن البناء بالأحجار المنحوتة الذى أدخله إلى العمارة الوزير (ايمحوتب) .

ويرتبط اسم الملك زوسر بحملة أرسلها إلى شبه جزيرة سيناء لتأديب البدو الذين كانوا يتعرضون للبعثات المصرية التى كانت تقوم بتعدين النحاس من المناجم القريبة من وادى المغارة .

كما يرتبط بعهده أيضا خطوة ابتداع التقويم الشمسى على أساس أن السنة ٣٦٥ يوما منها خمسة أيام نسيء وعلى اعتبار أنها اثنا عشر شهرا كل منها ٣٠ يوما(١) .

---

(١) أورد الأستاذ الدكتور عبد العزيز صالح فى كتابه : الشرق الأدنى صفحة ٨٨ : ٩٢ ــ أورد : « ذهب بعض الباحثين أمثال كورث زيته ، ولو دفيج بورخارت ، وإدوارد ماير ، إلى أن ابتداع التقويم يرجع إلى عصر فجر التاريخ ، وقالوا إن بداية استعماله تقع بين عامى ٤٢٤١ ــ ٤٢٣٦ ق . م ، ثم قام جدل طويل اعترض اعتقادهم ، وهو كما يقول الدكتور صالح : لا يخلو من منطقية ووجاهة ومؤداه أن ابتداع المصرى لهذا التقويم لم يكن بالأمر الهين ، وأنه كان يتطلب ملاحظة طويلة ويعتمد على نضج عقلى واسع لم يكن بالأمر الهين ، ولم يكن من السهل أن يتوفر فى دنياهم قبل زوسر » .

ولنا على ماأورده الأساتذة عدة ملاحظات :

الأولى : أن التقويم ليس من اختراع العقل البشرى ، كما تزعم كتابات مايسمى التاريخ القديم .

الثانية : أن الله رب العالمين هو الذى جعل وحدة زمنية تقاس بها الأعمار منذ خلق السموات والأرض ، وهى التقويم ، وعلم ذلك آدم وبنيه ، والدليل :

(ا) قول الله تعالى : ﴿ **إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً فى كتاب الله يوم خلق السموات والأرض ، منها أربعة حرم** ﴾ (التوبة ٣٦) وقوله ﴿ **يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج** ﴾ (البقرة ١٨٩) ﴿ **وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون** ﴾ (الحج ٤٧) ﴿ **ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون مالبثوا غير ساعة** ﴾ (الروم ٥٥) ﴿ **لكل أجل كتاب** ﴾ (الرعد ٣٨) .

(ب) حديث رسول الله ﷺ : « إن أحدكم يجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يوما نطفة ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح ، ويؤمر بأربع كلمات : بكتب رزقه وأجله وعمله ، وشقى أم سعيد ... » إلى آخر الحديث رواه البخارى ومسلم عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه . =

ثم أعقب زوسر عدة ملوك ، كان آخرهم « حونى » صاحب هرم ميدوم ، والذى حكم حوالى ٢٤ عاما . ومن أهم شخصيات عصره أحد كبار الموظفين ويسمى « متن » الذى ترك لنا مقبرة منقوشة تلقى الضوء على التنظيم الإدارى للبلاد فى ذلك العهد .

وقد انتقلت عاصمة البلاد من « ثنى » فى الجنوب إلى « منف » فى الشمال ، وستستمر كذلك حتى نهاية الدولة القديمة .

(ب) الأسرة الرابعة (٢٦٨٠ ــ ٢٥٦٠ ق . م) :

مؤسس هذه الأسرة بتاح سنفرو (أى بتاح جمَّلنى) الذى تزوج من الأميرة « حتب حرس » التى كانت تحمل فى دمها حق وراثة العرش . ومن أهم أعمال هذا الملك العديد من الإنشاءات المعمارية ، وذلك غير البعثة التى ركبت أسطولا بحريا من أربعين سفينة إلى لبنان لإحضار كتل خشب الأرز ، كما أنه وجه حملة عسكرية لتأمين حدود مصر الجنوبية ، وذلك غير حملات التعدين إلى شبه جزيرة سيناء لإحضار النحاس والدهنج ، وما استتبع ذلك من تأديب للبدو الذين يتعرضون لهذه الحملات .

وقد قام ببناء قبره الملكى الذى يتكون من المجموعة الهرمية للهرم المنكسر الأضلاع ، والهرم الكامل بدهشور ، ويعتبر الهرم الأول المدرسة التى درس فيها المصريون هندسة تشييد الهرم دراسة كاملة ، وكان يحيط بهرم سنفرو مقابر أفراد الأسرة التى منهم « رع حتب » الذى أشرنا إلى تمثاله وتمثال زوجته بالمتحف المصرى ، وكذلك « مقبرة نفرمعات » التى كانت تحوى رسومات « أوزميدوم » .

وبعد أن حكم « سنفرو » أربعة وعشرين عاما ، خلفه على العرش ابنه خوفو (خنوم خوف وى) أى خنوم يرعانى الذى سار على نهج أبيه ، فيما يختص بالتعمير

= **الثالثة** : حيث أن الله سبحانه وتعالى هو الخالق ، وأنه قد جعل لكل مخلوق من مخلوقاته ، ومنها الإنسان ، أجلاً لا ريب فيه ، فذلك يؤكد أن الذى وضع التقويم وعلمه لآدم هو الله رب العالمين : ﴿ **وعلم آدم الأسماء كلها** ﴾ البقرة ٣١ .

بمعرفة أهل مصر للتقويم فى ذلك الزمن البعيد ، دليل على أنه ليس من ابتداعهم ، ولكن دليل على أنهم قد تلقوه بالنقل عن ذرية آدم عليه السلام ، وفى هذا ردّ على المستشرقين الذين يُعزُون كل شىء إلى الفكر البشرى متناسين ومتجاهلين تعلم العليم الحكيم الذى علم الإنسان مالم يعلم .

وإرسال حملات التعدين ، وفى عهده انتعشت التجارة الخارجية وعلى الأخص مع الشاطىء الفينيقى ، بدليل وجود معبد مصرى يرجع إلى عهد هذا الملك فى وسط مدينة جبيل (شمال بيروت) .

ويرتبط اسم هذا الملك فى التاريخ ببناء الهرم الأكبر ، ولعلنا نذكر التكاليف الباهظة التى أنفقت على مثل هذه العمارة الضخمة ليثوى فيها جسد الفرعون . والجدير بالذكر أن دكتور أحمد فخرى قد أورد رأيا لهيرودوت مفاده أن خوفو كان قاسيا على شعبه وأنه كان يسخر الناس دون رحمة ولهذا كرهوه وحقدوا عليه .. ثم يعلق الأستاذ الدكتور على هذا الرأى بما يفيد بأن :- « بناء الهرم لم يسخر الناس فيه ولكنهم بنوه عن طيب خاطر لأن الفرعون كان إلها والناس يطمعون فى رضاه ، ولا يمكن أن نحكم على الماضى بمنطق العصر الحاضر(١) ، أو بتعاليمه وآرائه ، كان الملك فى مصر إلها معبودا من شعبه ، ولكنه رضى أن يعيش على الأرض لكى يحكمها ويسعد الناس بوجوده بينهم ، فإذا وضعنا ذلك فى أذهاننا لأدركنا أنه كان يسر الكثير من الناس وبخاصة الذين يعيشون فى القرى النائية بعيدا عن المدن أن تتاح لهم فرصة فى أيام الفيضان ، وأيام الضيق المادى فى الوقت ذاته ، ليزوروا العاصمة التى طالما سمعوا عن عجائبها ويمتعوا الطرف بالنظر إلى معابد الآلهة وقصور العظماء ، وكان يسرهم دون شك أن يساهموا فى عمل شىء لإلههم عسى أن يكون فيه قربى ورحمة لهم ، وكان يسر الفقراء من عامة الشعب أن يضمنوا عدم الحاجة طيلة أيام إقامتهم فى العاصمة » .

« وربما صعب فهم ذلك على الغربيين الذين طغت على أذهانهم فلسفة المادية ومنطقها ، وربما صعب فهم ذلك أيضا على أبناء المدن الكبيرة فى الشرق ممن تنقصهم تجارب الحياة ، ولكن ليذهب هذا أو ذاك إلى إحدى القرى الصغيرة فى ريف مصر أو غير مصر ، ويرى الناس وهم يعملون عندما يستقر رأيهم على بناء مسجد صغير أو ضريح لأحد الأولياء ، فيرى أهل القرية جميعا ، بل وبعض جيرانهم من القرى الأخرى وهم يعملون دون أجر ، ويرى القادرين من بينهم يتنافسون فى تقديم الطعام لغير القادرين من العاملين ،

---

(١) حضارة مصر الفرعونية ، ٨١ ، ٨٢ وقد أنشىء فى عهده منصب الوزارة ، وأسنده إلى أمير من أفراد أسرته زهو « نفر ماعت » ، وقد ظلت الوزارة فى الأمراء الكبار وحدهم حتى نهاية الأسرة الرابعة (الشرق الأدنى القديم ، ص ١٠٤) .

والنساء يعملن طول اليوم فى حمل الماء اللازم للبناء ، بل ويطغى الحماس على أغنياء القرية فيأبون إلا أن يعملوا بأيديهم مع غيرهم راجين المغفرة والثواب . فليذهب إليهم ويرى البشر يعلو وجوههم وهم يعملون طول اليوم تحت وهج الشمس ، وليتحدث بعد ذلك عن السخرة أو غير السخرة » .

تقويم بناء الهرم فى ضوء العقيدة الإسلامية :

ولنا على دفاع الأستاذ الدكتور أحمد فخرى عن خوفو عدة ملاحظات :

أولا : ليس لدى الأستاذ الدكتور دليل على أن الناس فى مصر قد بنوا الهرم عن طيب خاطر ، وفى تصورنا أن الكبت لحرية الكلمة وتكميم الأفواه الذى اتصف به حكم الفراعنة هو الذى حرمنا من كلمة الحق ، ووجهة نظر الأمة فى إهدار أموالها فى مثل هذه البنايات ، ولنا فى عالمنا المعاصر شواهد تؤكد أن إرادة الأمة المسلمة الحقيقية غائبة عن توجيه أمورها ، بل كثيراً ما تزيف هذه الإرادة لتوافق أهواء الحكام الذين يملكون أجهزة تزييف الباطل ليبدو بصورة الحق ، فليس من المعقول أن الناس قد بنوا هذه المبانى الضخمة عن طيب خاطر ، وهم يرونها تلتهم أرزاقهم وأقواتهم وشبابهم .

ثانيا : حقيقة أن الفراعنة قد ادعوا الألوهية ﴿ **ما علمت لكم من إله غيرى** ﴾ وادعوا الربوبية ﴿ **فحشر فنادى فقال أنا ربكم الأعلى** ﴾ لكنه مجرد ادعاء ، ولا يمكن أن يتحول الادعاء إلى حقيقة ، فالقول بأن الفرعون « كان إلها معبوداً من شعبه ، ولكنه رضى أن يعيش على الأرض لكى يحكمها وليسعد الناس بوجوده بينهم » ، قول مردود ولا يجوز ترديده بل من الواجب إذا قيل أن نُبين فساده حتى لا نكون كالذين قال الله عنهم ﴿ **فاستخف قومه فأطاعوه ، إنهم كانوا قوما فاسقين** ﴾ إن ماورد فى كلام الدكتور يدحضه رب العالمين ﴿ **وفرعون ذى الأوتاد الذين طغوا فى البلاد فأكثروا فيها الفساد** ﴾ .

ثالثا : تبرير تصرفات خوفو الطاغية فى بنائه لمجموعته الهرمية ، من خلال قياسه على بناء مسجد يعبد فيه الله رب العالمين ، أمره مرفوض فى ضوء العقيدة الإسلامية فلا وجه للمقارنة بين عمل يعمله الناس لله رب العالمين يرجون به جنته ، وبين عمل يعمله الناس للطاغوت ، قسرا وخوفا .

رابعا : كان من الواجب قول كلمة الحق وهى أن بناء قبر ليثوى فيه جسد الفرعون بهذه الصورة غير جائز مطلقا ، وحدوثه دليل على عدم انضباط حياة حكام الفراعنة مع أحكام الله وشرعه .

كما كان من الواجب بيان القبر الشرعى وهو عبارة عن اللحد أو الشق ، واللحد أفضل على أن يسوى القبر بالأرض ، ولا يجصص حتى يرتدع أبناء فراعنة العصر الحديث الذين ما فتئوا يعلون من شأن الوثنيات وأصحابها فى كثير من بقاع الأرض ويجعلونها علما على بلادهم الإسلامية .

خامسا : لقد تأثر الناس بهذا التقويم فاختلت مفاهيمهم لدرجة أن إحدى نساء المسلمين قالت فى كتاب لها : إن الأهرامات كانت مساجد ذلك العصر فبناتها كانوا يتبركون ببنائها (أعيدوا كتابة التاريخ ، تأليف د . نعمات أحمد فؤاد دار الشروق ، ١٩٧٤ ، ص ٥٩ وهى تعتمد على كتاب الأهرامات المصرية ، تأليف أ . د . ماير وترجمة د . أحمد فخرى) .

وهكذا نرى فراعنة مصر يهدرون أموال الأمة فيما لا فائدة منه ،وهى من ملامح الانحراف فى حياة الأسرة الرابعة .

ولقد ذكر الأستاذ الدكتور عبد العزيز صالح : « أن الأهرام الضخمة ومعابدها وتماثيلها التى أسرف سنفرو وخوفو وخفرع فى إنشائها لأنفسهم ، وألحقوا بخدمتها الأعداد الكبيرة من الكهنة وأوقفوا عليها الأوقاف الواسعة والأتباع ، وزادوا عليها إنشاء الأهرام الصغيرة لزوجاتهم والمقابر الضخمة لأبنائهم مع متطلباتها من النفقات ، استنفدت كلها نصيبا كبيراً من إمكانيات البلاد ومواردها واستنزفت جانبا كبيرا من موارد الخزائن الملكية ومدخراتها » (١) .

وفى موضع آخر علق الأستاذ الدكتور عبد العزيز صالح على بناء الهرم بقوله :

بنى الهرم أساسا ليصبح ملجأ أمينا لجثة الفرعون ، ومقتنياته الخاصة ، وشاهدا على ثرائه وسعة سلطانه ، ووسيلة لخلود ذكره ، وذيوع شهرته ، ودليلا على رفعة شأنه فى الدنيا والآخرة ، وصورة من صور رقى العمارة والفنى فى عهده ، أى أنه لم يكن مجرد مقبرة فى

---

(١) الشرق الأدنى ، مصر والعراق ،ص ١٢١ .

حياته ، ولم يكن مجرد جبل من الأحجار يشهد بجبروت صاحبه ، وإنما كان ولا يزال عملا فنيا فى داخله وخارجه (الشرق الأدنى ، ص ١٠٥ــ ١٠٦) .

تعليق :

وهذا نموذج على سبيل المثال لا الحصر ، فالأمة كثيرا ما ترزأ بحكام يوجهون أموال الأمة فيما لا يعود على الأمة بالخير فى الدنيا أو فى الآخرة . لقد نسوا أنهم غير مطلقى الأيدى فى هذا المجال وأنهم سيحاسبون عليه أمام الله ، وأنه من غل يأت بما غل يوم القيامة .

ولنا على ما أورده الأستاذ الدكتور عبد العزيز صالح تعليق آخر : مما لا شك فيه أن بناء الهرم يعكس لنا تقدما معماريا ، ولكن يتحتم عدم الإعجاب به ، لأنه لا يجوز للمسلم أن يعجب بما خلفه الظلمة لأن الإعجاب بما خلفه الظلمة يعتبر إعانة للظالم على ظلمه والدليل على ذلك ماأورده البخارى .

أورد البخارى حديث تحت باب : نزول النبى ﷺ الحجر : حدثنا عبد الله بن محمد الجُعْفى. حدثنا عبد الرزاق أخبرنا مَعْمَر عن الزهرى عن سالم عن ابن عُمر رضى الله عنهما قال : لمَّا مر النبى ﷺ بالحجر قال : « لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم أن يصيبكم ما أصابهم إلا أن تكونوا باكين » ثم قَنّع رأسه وأسرع السير حتى أجاز الوادى (١) . حدثنا يحيى بن بكر حدثنا مالك عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله لأصحاب الحجر : « لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين أن يصيبكم مثلُ ما أصابهم » .

فرسول الله ﷺ كان حريصا على أن لا يرى ماخَلّفه الظلمة أو الإعجاب به ولهذا فقد قنع رأسه وأسرع للسير حتى أجاز الوادى .

كان من الواجب بيان حكم الإسلام فى مثل هذا الذى قام به خوفو ، وبيان أن هذا غير جائز من الناحية الشرعية ، لأن فيه إهدار لإمكانيات الأمة وجهدها فى إقامة بناء غير مشروع ، وأن هذا صورة مكرورة لفراعنة عاد الذين قال الله فيهم ﴿ **أتبنون بكل ريع آية تعبثون . وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون . وإذا بطشتم بطشتم جبارين . فاتقوا الله**

(١) صحيح أبى عبد الله البخارى ، جـ ٦ ، ص ٩ .

وأطيعون ﴾ [1] .

إن فراعنة العصر الحديث قد فتنوا بما خلفه الفراعنة القدماء ، ولو ردّوا كل شيء إلى الله ورسوله ما فتنوا ، وما جعلوا آثار الفراعنة مزارات تدعو إلى الفخر والاعتزاز ، وما أخرجوا تماثيلهم ووضعوها فى الميادين والأسواق ، لأن ذلك يعيد البشرية مرة أخرى إلى عصر الوثنية .

نهاية الأسرة الرابعة :

النزاع على العرش بين أفراد الأسرة المالكة :

ولقد اتسم الوقت الذى تلى وفاة الملك خوفو ، بظهور الصراع بين الأبناء يساندهم بعض رجال البلاط وأمهاتهم لتولى العرش ، وقد تتابع بعضهم فعلا فى حكم البلاد ، إلى أن جاء إلى العرش الملك خفرع الذى زادت فترة حكمه إلى تسعة وعشرين عاما قام أثناءها ببناء مجموعته الهرمية إلى الخلف من هرم أبيه بالجيزة . وبعد وفاته ، نجح فرع آخر من الأسرة المالكة فى الوصول إلى عرش البلاد لفترة من الوقت ، ليعقبه الملك منقرع ابن خفرع . ويبدو أن البلاد قد عادت فى عهده الذى امتد إلى ٢١ عاما إلى حالتها الطبيعية من الاستقرار وإن كان لم يتيسر له إتمام مقبرته بالجيزة .

وتتميز الفترة الأخيرة من حكم الأسرة الرابعة بازدياد نفوذ كهنة الشمس ، الذى سوف يكون بداية لأحداث أخرى ذات أثر كبير [2] .

(جـ) الأسرة الخامسة (٢٥٦٠ ــ ٢٤٤٠ ق . م) :

انتهى النزاع على العرش بين أفراد الأسرة المالكة بزوال حكم الأسرة الرابعة ، ونجاح كهنة الشمس فى الاستيلاء على الملك . وقد روج رجال الدين من الكهنة لهذا التغيير عن طريق قصة طويلة تسمى خوفو والسحرة (بردية وستكار) ونسبوا حوادثها إلى عصر خوفو ، والتى فى نهايتها يأتى التبشير بأن الذى سيتولى عرش البلاد بعد خوفو وأبنائه بفترة طويلة : « ثلاثة أطفال » فى بطن زوجة لكاهن حملت بهن من الإله رع نفسه وأن الإله رع أخبرها بأنهم سيتولون عرش البلاد وأن أكبرهم سيكون الكاهن الأعظم فى مدينة

(١) الشعراء : ١٢٨ ــ ١٣١ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٨٤ .

« أيون » أى « هليوبوليس » [1] .

والدلالة المأخوذة من هذه القصة إقناع الشعب بأن تغيير السلطة الحاكمة واستيلاء كهنة الشمس على عرش البلاد كان مقدرا منذ عهد بعيد ، وأن الذين جلسوا على العرش كانوا أبناء الإله رع نفسه .

ومما لا شك فيه أن هذه القصة تشير إلى مدى استخفاف النظام الحاكم بعقول الجماهير ، كما تشير إلى أن السلطة الحاكمة كانت تحس فى أعماقها بعدم شرعية جلوسها فى مركز الحاكم رغم نجاحها فى الوصول إليه ، ولذلك كان لابد من شراء ذمم رجال الدين لينسجوا القصص التى تروج بأن جلوس العاهل على عرش البلاد هو بتقدير الإله .

ولقد استمرت الأسرة الخامسة تحكم من عاصمة البلاد منف ، ومن أهم ملوكها أوسركاف الذى عثر على كأس باسمه فى إحدى جزر بحر إيجه ببلاد اليونان . وساحورع . وقد حدث فى عهد الأخير محاولة لغزو البلاد من بعض القبائل الليبية ، فهزمهم ، كما قام ساحورع بتأمين حدود مصر الجنوبية ، وإرسال البعثات إلى الساحل الفينيقى وبلاد بونت (المنطقة الواقعة حول بوغاز باب المندب أى الصومال وأريتريا وجنوبى بلاد العرب) ، وقد عادت الرحلة الأخيرة ومعها كميات من البخور والذهب وأخشاب الأبنوس .

وتعتبر هذه الفترة كما يقول المؤرخون بداية لخروج مصر من عزلتها بدليل إرسال أسطولها التجارى إلى البحر المتوسط والبحر الأحمر وإرسال الحملات لتأمين حدودها الغربية والشرقية والجنوبية وذلك غير بعثاتها التجارية والتعدينية إلى بلاد بونت .

وآخر ملوك الأسرة الخامسة هو « أوناس » وترجع شهرته إلى « نصوص الأهرام » الذى استحدث كتابتها على جدران حجرة دفنه بهرمه بسقارة والتى أصبحت بعد عهده تكتب داخل أهرام الملوك والملكات أحياناً وقد زودتنا هذه النصوص بكثير من المعلومات عن عقائد المصريين القدماء [2] .

---

(١) وهذا يعكس لنا نموذجا لرجل الدين الذى باع نفسه للشيطان ، وأصبح مطية لحكام الفراعنة فاخترع قصصية يغرر فيها الناس بمثل هذه القصص الأسطورية وهذه صورة لما يجرى فى عالمنا المعاصر للحكام الذين يطلبون من العلماء أن يشيدوا بفضلهم وورعهم وتقواهم لأنهم يرون فى ذلك مساندة لهم لاستمرارهم فى موقع السلطة .

(٢) حضارة مصر الفرعونية ص ١١٣ وما بعدها .

(د) الأسرة السادسة (٢٤٢٠ ــ ٢٢٨٠ ق . م) :

أول ملوك هذه الأسرة « تتى » ولقد اتجهت أعماله إلى الإعلاء من شأن بتاح إله مدينة منف ، وتقريب كهنته والانصراف عن كهنة الشمس بعد أن ازدادت سطوتهم وتلاه بعد موته بيبى الأول « ويبدو أن حياته العائلية لم تكن خالية من المؤامرات إذ أنه قد عين أحد وزرائه وهو المدعو « ونى » للتحقيق مع زوجته فى إحدى القضايا وإن كنا لا نعرف موضوع التحقيق .

وقد انتهج هذا الملك سياسة جديدة تقوم على عقد المعاهدات مع العائلات القوية لضمان مساندتهم . ومن أهم أحداث عهد هذا الملك ، هو ما سجله « ونى » من تكوين جيش وتوجيهه مع الأسطول المصرى لتأديب أولئك الذين هددوا مصالح مصر فى فلسطين فى ذلك العهد . وقد سمتهم النصوص المصرية باسم البدو الذين كانوا يقطنون فوق الرمال .

وآخر ملوك هذه الأسرة هو « بيبى الثانى » الذى حكم أربعة وتسعين عاماً . ومن أهم أعماله تلك الحملات التى أرسلها إلى الجنوب (النوبة والسودان) تحت قيادة حكام الفنتين (أسوان) لاستكشافها وتأديب الخارجين على الحكم ، وإحضار منتجاتها وخيراتها .

وقد شاء الله سبحانه وتعالى أن يحفظ لنا التاريخ ، رسالة وجهها هذا الملك إلى أحد وزرائه ، يثنى عليه فيها ثناء عظيما لا يعادله ثناء .. لماذا .. سوف تتضح الإجابة عند قراءة نص الرسالة[1] :

« رسالة ملكية إلى الصديق الأوحد ، الكاهن المرتل ، رئيس الحملة حرخوف : فهمت نص خطابك هذا الذى بعثت به إلى الملك فى القصر لتحيطه علماً بأنك عدت سالماً من بلاد إيام مع حملتى التى كانت معك ، وذكرت فى رسالتك أنك أحضرت جميع الهدايا الكثيرة الجميلة التى قدمتها الآلهة حاتحور سيدة بلاد « إيام » إلى ذات ملك الوجهين القبلى والبحرى الملك نفر كارع (بيبى الثانى) عاش خالداً إلى الأبد . وذكرت فى رسالتك هذه أنك أحضرت قزما لأجل رقصة الإله من أرض الأرواح ، وهو شبيه بالقزم قائد السفينة « باوردد » من بلاد بونت ، فى عهد الملك « أسيسى » . وقلت لجلالتى : « لم يحدث أبداً أن جاء بمثله أى شخص آخر ذهب إلى بلاد إيام من قبل . لقد

---

(١) حضارة مصر الفرعونية ، ١٢١ ، ١٢٥ .

أحسنت حقا بعمل ما يحبه سيدك ويشكرك عليه ، إنك تصبح وتمسى فى تحقيق كل ما يحبه ويريده ويأمر به مولاك ، وسيكافئك جلالته كثيراً وسيمنحك ما سيعتز به ابن ابنك إلى الأبد وسيقول كل من يسمع بما فعله جلالتى من أجلك : هل هناك مثيل لما عمل لأجل الصديق الأوحد حرخوف عندما سافر إلى بلاد إيام فأظهر يقظة فى تنفيذ ما يأمر به ويحبه ويمدحه مولاه ؟

تعالى إلى الشمال . تعالى سريعاً إلى القصر ، وأحضر معك هذا القزم الذى جئت به من أرض الأرواح حيا سالما وفى صحة جيدة ليرقص للإلـه ، ويدخل السرور آلاف المرات على قلب ملك الوجهين القبلى والبحرى الملك نفر كارع عاش إلى الأبد .

فإذا ما نزل معك إلى السفينة فعين أشخاصاً أذكياء على جانبيها لملاحظته حتى لا يقع فى الماء ، وإذا نام فى الليل فعين رجالاً أذكياء ليحرسوه فى حجرته وفتش (عليهم) عشر مرات كل ليلة لأن جلالتى يحب أن يرى هذا القزم أكثر من هدايا المناجم وبلاد بونت . فإذا وصلت إلى القصر ومعك هذا القزم حيا سالما وفى صحة جيدة فإن جلالتى سيعمل لأجلك أشياء كثيرة أكثر مما عمل لأجل قائد السفينة « باوردد » فى أيام الملك « أسيسى » لأن رغبة جلالتى هى رؤية هذا القزم .

وقد أعطيت الأوامر لحاكم المدينة الجديدة ، الرفيق ، المشرف على الكهنة ليأمر بإعداد ما يلزم من مأكل وشراب فى كل استراحة ملحقة بالمخازن وفى جميع المعابد بلا استثناء »[1] .

تعليق : تقويم تصرف أحد فراعنة مصر فى ضوء العقيدة الإسلامية :

لقد رُزِأت مصر فى عهد حكم فراعنة الأسرة السادسة . بفرعون ، حكم صغيراً ، ولمدة طويلة ، هذا الفرعون هو بيبى الثانى الذى حكم أربعة وتسعين عاماً .

وقد وجه هذا الملك حملة إلى جنوب وادى النيل « النوبة والسودان » ، رجعت محملة بأعز شىء لدى هذا الفرعون ، هذا الشىء العزيز الأثير لديه هو « قزم لأجل رقصة الإله من

(١) هذا نموذج لحكام الفراعنة تربع على عرش البلاد لمدة أربعة وتسعين عاما فى غياب الوجود الشعبى لجماهير المصريين ، واعتدى على سلطان الله فادعى الألوهية مستخفا بعقول مواطنيه ، وذهب الاستخاف إلى أبعد مدى حينما ضيع أمانة الحكم وظن أنه سيظل خالدا فيه إلى الأبد ...

وتلك هى سمات المجتمع الذى يشرد عن هدى الله سبحانه وتعالى ، ولا يدرك أن الحكم أمانة ، نهايته ندامة حزى وندامة إلا من أخذها بحقها . حضارة مصر الفرعونية ، ١٢٥ ومابعدها .

أرض الأرواح على حد زعم الرسالة التى وجهها الملك إلى رئيس الحملة حرخوف ، ليشكره ، على عمله العظيم ويعطيه التعليمات بشأن المحافظة على هذا القزم .

ومتابعة نصوص الرسالة تعكس لنا العبث الذى كان يعيش فيه القصر الملكى ، تعكس لنا تضييعاً لأمانة الحكم بدلاً من تكريس الجهد والوقت لعبادة الواحد الأحد ، وتخفيف المعاناة عن الجماهير ، وحل مشاكلها ، وتتبع أحوالها ، نجد حكاماً اتخذوا منصبهم مطية لتحقيق رغباتهم وشهواتهم ونسوا واجباتهم حيال ربهم ، وواجباتهم حيال رعيتهم .

إن هذا الذى فعله بيبى الثانى من أجل قزم يرقص يفعله كثير من الحكام فى عصرنا الحديث ، ولكن بدلاً من القزم فهناك الفرق الراقصة والمغنية والموسيقية ، وكله تضييع لأمانة الحكم ونسوا واجباتهم حيال ربهم وتجاه رعيتهم .

إن الرسالة تعكس لنا صورة لحاكم ادعى الألوهية والربوبية ويأمل الخلود « عاش خالداً إلى الأبد » ، وتعكس لنا إهدارا لأموال الأمة ، فالملك يغدق بغير حساب من خزانة الدولة على أحد أفراده : « وسيكافئك جلالته كثيراً وسيمنحك ما سيعتز به ابن ابنك إلى الأبد ، وسيقول كل من يسمع بما فعله جلالتى من أجلك ، هل هنالك مثيل لما عمل لأجل الصديق الأوحد حرخوف .. فإن جلالتى سيعمل لأجلك أشياء كثيرة أكثر مما عمل لأجل ... » .

إن الرسالة تعكس إهدارا لأوقات الأمة وصرفها فى وجوه العبث ، لقد جهز فرعون حملة ، فحملة تسير من شمال الوادى إلى جنوبه وما تتكلفه من نفقات ، وأوقات لكى تحضر قزما : « حياً فى صحة جيدة ليرقص للإله ، ويدخل السرور آلاف المرات على قلب ملك الوجهين القبلى والبحرى الملك نفر كارع عاش إلى الأبد » .

هذه هى الأهداف العظام لملوك الفراعنة ، هؤلاء هم القدوة والأسوة وللأسف أن هذا الذى كانت تهدر فيه الأوقات وتوجه إليه الطاقات من آلاف السنين ، يحدث الآن بطريقة أخرى عن طريق الإذاعة المرئية والإذاعة المسموعة التى أهدرت وقت الأمة المسلمة ووجهت طاقاتها وإمكانياتها إلى الفساد ، بموافقة وتشجيع المسئولين عنها .

وفى الرسالة نلمح خطة وضعها جلالة الملك ، لقتال الأعداء ؟ أو للجهاد لنشر كلمة التوحيد ؛ لا والله إنها خطة لحراسة القزم . « فعين أشخاصاً أذكياء ليحرسوه فى حجرته وفتش (عليهم) عشر مرات لأن جلالته يحب أن يرى القزم أكثر من هدايا المناجم

وبلاد يونت .

هذه هى لمحة سريعة من سلوك أحد الفراعنة قدر له أن يحكم أربعا وتسعين عاماً ، وبعدها نتساءل كيف كان يمضى عمره ؟ وما أثر ذلك على البلاد والعباد . مما لاشك أن الأثر كان سيئا . لا نعجب أن قامت ثورة كما يصور كتاب التاريخ أطاحت بالنظام الحاكم ، وعصفت بكل شىء فى المجتمع ، ولا عجب فى ذلك إذا كانت حياة الحاكم والمحكوم غير منضبطة بنظام الله وشرعه .

٣ ــ عصر الفترة الأولى
من الأسرة السابعة حتى نهاية العاشرة
(٢٢٧٠ ــ ٢٠٥٢ ق . م)

وتسمى هذه الحقبة بعصر الثورة الاجتماعية :

وقد صور لنا هذه الحقبة الدكتور أحمد فخرى بقوله :

« وصلت حالة مصر إلى الحضيض فى أواخر أيام الأسرة السادسة وعمت الفوضى فلما طفح الكيل لم يجد الشعب أمامه من طريق غير الثورة على تلك الأوضاع والانتقام لنفسه ممن كانوا عليه سوط عذاب . ومصادرنا عن تلك الثورة ووصف ما حدث فى البلاد ينحصر فيما جاء فى برديتين إحداهما تسمى بردية « إيبوور » والثانية تسمى بردية « نفرروهو » وسنقصر حديثنا على ما ورد فى البردية الأولى : « بردية إيبوور » وقد كتبت على لسان شخص استطاع أن يصل إلى مقر الملك ويطلب منه العمل على إنقاذ البلاد مما تردت فيه ويصف له حالتها السيئة فى لغة بليغة ، « لقد انقلبت البلاد إلى عصابات ولم يعد الناس يحرثون حقولهم وأضرب الناس عن دفع الضرائب ، وتوقفت التجارة الخارجية وهجم الناس على مخازن الحكومة فنهبوها وعلى مكاتب الدولة فبعثروا محتوياتها . بل إن الملوك المدفونين قد اعتدى عليهم أيضاً وبعثروا أشلاءهم وأصبحت أهرامهم خالية مما كان فيها . وصب الشعب انتقامه على الأغنياء فنهبوا القصور وحرقوها وصار أصحابها محزونين يبكون ، بينما كان عامة الشعب يفرحون ويحتفلون . وأصبح الذين كانوا يملكون الرقيق يسيرون فى أسمال بالية وأولئك الذين لم يمتلكوا شيئاً فى حياتهم يرفلون فى ملابس من خير أنواع الكتان » . ويسخر الكاتب مما كان يراه فيقول : « إن الأصلع الذى لم يكن يستخدم

الزيت أصبح يمتلك الأوانى الملآى بخير أنواع العطور ، وإن الذى لم يمتلك صندوقاً صغيراً فى حياته أصبح مالكاً لصندوق كبير ، والفتاة التى كانت تذهب إلى الماء لترى وجهها أصبحت مالكة لمرآة » .

« وياليت الأمر وقف عند ذلك الحد فقد صب الناس نقمتهم على أطفال الأغنياء فصاروا يقذفون بهم الجدران ، وترك الناس أطفالهم الذين طالما تمنوا ولادتهم ألقوهم فى الطريق عساهم أن يجدوا من يمد إليهم يده .

حتى رجال الأمن الذين كان الناس ينتظرون منهم أن يوقفوا تلك الأحداث أصبحوا فى مقدمة الناهبين ، وانهارت الحكومة المركزية ، وأصبح الأغنياء فى حزن وغم بينما كان الفقراء فرحين . وكانت كل مدينة تقول « فلنطرد بعضاً منا » ومما زاد الحالة سوءاً أن عصابات من البدو الذين كانوا يسكنون على حدود مصر فى الشرق وربما أيضاً فى الغرب انتهزوا هذه الفرصة فأخذوا يتدفقون على قرى الدلتا وينهبون ما يجدونه مع الناس ، ولم يعد أخ يثق فى أخيه أو صديق فى صاحبه » .

« إذن لقد انتقم الشعب ، وثار الفلاح الصابر المطيع عندما وجد الظلم قد ازداد ، وأن الأغنياء قد سلبوه كل شىء ، ثار ثورته الجامحة فلم يبق على شىء ولم يفرق وهو فى ثورته بين معبد الإلٰه أو ديوان للحكومة ، أو قصر لغنى ، أو مخزن للدولة ، أو قبر دفنوا فيه حليا مع صاحبه » .

« ونحن لا نستغرب مثل هذه الأحداث فى مجتمع شرد عن هدى الله وادعى حكامه ما لله من صفات ، ورفضوا منهج الله وشريعته .. وضيّعوا أمانة الحكم .. فقد شاهدنا بيبى الثانى الذى تولى العرش طفلاً تحت وصاية أمه وخاله واستمراره فى الحكم لمدة تسعين عاماً وعدم وفائه بواجباته حيال ربه وشعبه وقد أدى ذلك إلى انهيار سلطان الملك وازدياد نفوذ حكام الأقاليم وكبار موظفى الدولة مما دفع الملك إلى تعيين وزيرين أحدهما للشمال وآخر للجنوب للإشراف على حكام الأقاليم والتقليل من حدة سلطانهم .

وفى وقت ما أفلت الزمام من يد الملك بيبى الثانى بعد أن استبدت به أمراض الشيخوخة ، فاستقل حكام الأقاليم بعد أن منعوا الضرائب والخراج من الصب فى خزانة العاصمة ، فانهارت السلطة المركزية الحاكمة ، وتفككت عرى البلاد وتعرضت حدودها الشرقية لهجمات من البدو القاطنين على الرمال ووصل سوء الحال إلى حد اشتراك رجال

الأمن فى القتل والنهب بعد أن عمت البلاد ثورة عارمة عصفت بكل المقدسات المتعارف عليها فى ذلك الوقت . وتطلع الأفراد إلى نظام صالح للحكم ، ومصير كريم فى الآخرة يفضل ما عرفه الأفراد من قبل ، وعقيدة صحيحة تلبى احتياجاته النفسية وتقول له إن الناس عبيد الله ، وأنهم جميعاً سواسية ولا معيار للمفاضلة بينهم إلا التقوى » (١) .

تقويم أحداث عصر الفترة الأولى فى ضوء العقيدة الإسلامية :

لقد أدى الطغيان الذى يمارسه الفراعنة ، دون أن يجدوا من يأمرهم بالمعروف أو ينهاهم عن المنكر إلى انتشار الفساد داخل المجتمع المصرى ، هذا الفساد الذى عبرت عنه كلمات الحكيم « إيبوور » أمام مليكه : فهذه كل بلد أجنبية (تجرأت علينا) وهذا ماؤنا (أمامنا) ، وهذه سعادتنا (فى أرضنا) ، ولكن ما الذى تستطيع أن تفعله من أجلها والكل آيل للدمار ؟ بل وقال له : إن ما يروى لك هو الباطل ، فالبلاد تشتعل والناس قد هلكوا .. ثم تجرأ الرجل على الملك وحاسبه قائلاً : لديك الوحى والبصيرة وأسباب العدالة ، ولكنك بعثت الفوضى فى البلاد مع أهل الفتن ، وقص عليه بلاء الناس ثانية ثم عنف عليه قائلا له « وليتك تذوقت بعض هذه المصائب وإذن لرويت خبرها بنفسك » (٢) .

إن هذا الذى ترويه النصوص القديمة تصور لنا رجلاً من عامة الشعب استيقظ ضميره ولعله أدرك أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر واجب ، فانطلق إلى حاكم الدولة يبين له أنه هو المسئول عن هذا الفساد الذى أنزل بالأمة .

إن هذه البردية تصور أحوال المجتمع المنهار على النحو التالى :

(١) تسلط الأجانب على شئون الدولة ، « أصبح الأجانب مصريين فى كل مكان » ... وأولئك الذين كانوا مصريين أصبحوا أغرابا وأهملوا جانباً .

(٢) عجز الحكومة عن كبح جماح الجنود المرتزقة فى جيشها والذين أصبحوا يعملون لمصلحة الأعداء بعد أن تعرفوا على عورات البلاد .

(٣) عجز الدولة عن صد هجمات الأجانب وهجمات الآسيويين والبدو الذين هاجموا

---

(١) مصر والعراق ، ص ١٤٣ .

(٢) مصر والعراق ، ص ٣٦٠ .

حدود الدولة الشرقية وتسربوا إلى أراضى الدلتا وشاركوا المصريين معاشهم واعتبروا أنفسهم من أصحاب البلاد وخاصة أهلها .

(٤) افتقاد الأمن والطمأنينة ، وشيوع القتل والسرقة .

(٥) قلة المحاصيل والإنتاج : « فعز الغلال .. ومنتجات المصانع .. وتخربت المدن » .

(٦) رجال الأمن يشاركون فى النهب والسلب « قال حراس الأبواب (بعضهم لبعض) فلننطلق وننهب .

لقد جاء الوقت الذى عز الابتسام وما عاد أحد يبتسم وأصبح الحزن يسود البلاد ... أصبحت العاصمة فى خوف من العوز ، وأصبح الناس يأكلون الحشائش ويتبلغون بالماء ... فارقت النبالة الدنيا وأصبحت ربّات البيوت يقلن أنّى لنا ما نأكله ؟ وذبلت أجسادهن فى الأسمال وهاضت قلوبهن من ذل السؤال »[1] .

إن عقيدة المصريين فى ألوهية فراعنتهم كانت عقيدة زائفة عقيدة مفروضة بالحديد والنار ، والدليل : أنه حينما أتيحت فرصة التغيير الحقيقى لجماهير الأمة ، كفروا بهذه العقيدة ، أو بمعنى آخر حينما ضعف سلطان الفراعنة وخفت قبضة الطاغوت من على رقاب الناس انطلقوا يعبثون بكل شىء بما فى ذلك معابد الآلهة والأوثان والمقابر التى دفن فيها ملوكهم وفراعنتهم ، وأعوانهم من الملأ الظلمة .

وقد عبر عن هذه الحالة الأستاذ الدكتور عبد العزيز صالح بقوله : « نزع الثوار عن ملكيتهم القائمة ما تبقى لها من قداسة شكلية ، وأباحوا لأنفسهم أن يتقاسموا أملاكها ومواردها وأملاك أنصارها .... ولم تقتصر حملات الناقمين على الأثرياء الأحياء وإنما امتدت إلى مقابر الأثرياء الموتى الذين نعموا فى دنياهم بما لم ينعم به سواهم ثم رصدوا على أهراماتهم ومقابرهم ومعابدهم من الخيرات والأوقاف ما كان الأحياء من أفراد الشعب أولى بمثله »[2] .

وهذا دليل على أن الناس حينما بنوا أهرامات فراعنتهم ، لم يبنوها عن رضا وطواعية كما زعم الأستاذ الدكتور أحمد فخرى فى كتابه ، ولكن بنوها تحت سياط القهر والاستعباد

---

(١) مرجع سابق ، ص ٣٦١ .

(٢) مصر والعراق ، جـ ١ ١٩٧٣ ، ص ١٤٢ . .

وحينما أتيحت الفرصة للتعبير الحقيقى ، وقالت كل مدينة : دعونا نقصى العتاة من بيننا ، استجابت القاعدة العريضة من أفراد المجتمع .

كلمة أخيرة : إن الذى حدث على أرض مصر ، ووصفته بردية « إيبوور » يمكن أن نفترض له تفسيراً فى ضوء السنن الربانية :

يقول محمد ﷺ « إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته » ثم قرأ ﴿ **وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد** ﴾[1] .

والفراعنة الذين حكموا مصر منذ عصر بداية الأسرات وحتى نهاية الأسرة السادسة على مدار ألف عام ظلموا أنفسهم بالشرك بالله ، وظلموا غيرهم من أبناء الأمة فكان لابد وأن يذوقوا من الكأس التى سقوا منها غيرهم ، فكان هذا الذى ذكرته بردية « إيبوور » حيث نلمح غضبة جماهيرية ضد ما كان سائداً فى مصر طيلة حكم فراعنة بداية الأسرات والدولة القديمة ، الذين ادعوا الألوهية والربوبية وتحكموا فى كل شىء وحرموا الناس من كل ما يتمتعون هم به فى حياتهم الدنيا . نلمح غضبة جماهيرية ضد الحكام الذين أهدروا أموال الأمة فى بناء الأهرامات والمعابد ووقف الأوقاف للصرف عليها .

نلمح غضبة جماهيرية ضد معابد الأوثان وكهنتها الذين تسلطوا على عقول الجماهير باسم الدين المزيف ، وضد الفكر المادى الذى يقول بأن السعادة الأخروية وقف على كل من يستطيع تزويد مقبرته بكل ما تحتاج إليه فى الحياة الأخرى .

تلك الغضبة عصفت بكل شىء ، ودمرت كل شىء وصدق الله القائل : ﴿ **وكأين من قرية عتت عن أمر ربها ورسله فحاسبناها حساباً شديداً وعذبناها عذاباً نكراً . فذاقت وبال أمرها وكان عاقبة أمرها خسراً . أعد الله لهم عذابا شديداً** ﴾[2] .

(أ) الأسرتان السابعة والثامنة [3] :

من المرجح أن عددا من كبار الموظفين وحكام الأقاليم قد تولوا زمام الأمور وسلطة الحكم فى العاصمة منف لعدة شهور فى أعقاب انهيار النظام الملكى فى الأسرة السادسة ويطلق على هذه الفترة الأسرة السابعة . وبعد ذلك نجح أحد فروع البيت المالك القديم فى

---

(١) هود : ١٠٢ . (٢) الطلاق : ٨ ــ ١٠ . (٣) مصر الفرعونية ، ص ١٢٩ ــ ١٣١ .

الوصول إلى حكم البلاد ــ معتمدا على مناصرة بعض حكام الأقاليم الذين بدءوا يستقلون بأقاليمهم ــ مكونا الأسرة الثامنة التى بلغ عدد ملوكها خمسة عشر ملكا .

(ب) الأسرتان التاسعة والعاشرة [1] :

أسس الأسرة التاسعة التى بلغ عدد ملوكها ثلاثة عشر ، الملك خيتى أو اختوى الأول ، الذى وصف بأنه كان ظالما وأنه قد أصيب فى أواخر أيامه بالجنون . وقد كان ملوكها يقيمون فى أهناسيا (عند مدخل الفيوم) واستمروا يخطبون ود حكام الأقاليم الأقوياء لمساندتهم فى حكمهم . أما ملوك الأسرة العاشرة الذين حكموا فى أهناسيا أيضا ويبلغ عددهم خمسا فقط منهم مرى ، ونفر كارع واختوى (واح كارع وهو صاحب بردية الوصية الشهيرة ، وخلفه على العرش ابنه مريكارع) .

وقد نشر كتاب التاريخ وثيقتين إحداهما أطلقوا عليها وصية الملك اختوى لابنه مريكارع ، والثانية هى بردية الفلاح الفصيح ، وهما من الآثار الفكرية الهامة لدراسة أحوال ذلك العصر .

١ ــ وصية الملك اختوى لابنه مريكارع :

التى تعتبر من أهم المصادر القديمة لدراسة الحالة فى مصر فى أواخر أيام أهناسيا ، تلك البردية[2] التى تحتوى على النصائح والتوجيهات التى وجهها الملك اختوى الرابع (خيتى) إلى ابنه الملك مريكارع ، إذ أننا نرى فيها كثيرا من المعلومات الهامة عن ذلك العصر الغامض . يحاول أختوى أن يعطى خلاصة تجاربه لابنه حتى لا يقع فيما وقع فيه هو من أخطاء ويبدأ هذه النصائح ــ بعد الديباجة التى فقدت الآن ــ بتحذير ابنه من أى تابع له يكثر من الكلام وله أتباع كثيرون فإن هذا الشخص يسبب الانقسام بين الناس وينصحه بقوله : « اطرده ، اقتله ، امح ذكراه (هو) وأتباعه الذين يحبونه » .

ويوصى ابنه بعد ذلك بأن يكون فنانا فى الحديث لأن « اللسان كالسيف للإنسان » ، وينصحه بأن ينهج سبيل آبائه وأجداده ، وأن يكثر من قراءة ما خلفوه من

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٣٣ .

(٢) حضارة مصر الفرعونية ، ١٣٨ وما بعدها ، وهذه البردية محفوظة فى متحف لينجراد ومرقومة تحت رقم ١١١٦ والنسخة الحالية فى عصر الأسرة الثامنة عشرة .

كتب الحكمة وألا يفعل الشر ، وأن يتحلى بالصبر ويترك وراءه ذكرى حسنة من حب الناس له ، ويحذر اختوى ابنه من الطمع وينصحه بأن يعتنى بتثبيت حدوده ، وأن يعلى من شأن رجاله ويقويهم لأن الغنى فى غير حاجة للمحاباة ، أما الفقير فإنه لا يقول الحق الذى يؤمن به وإنما يحابى من يملك شيئا ويعطيه له ، ويقول لابنه : « ما أعظم الشخص العظيم عندما يكون رجاله المقربون عظماء ، وما أشجع الملك الذى يكون له رجال بلاط ، وما أعظم وأقوى الذى يكون له نبلاء كثيرون » ويكثر من نصح ابنه لاتباع جادة الحق وإقامة العدل ويحذره من ظلم الأملة ويوصيه بألا يحرم شخصا من ثروة أبيه وألا يطرد الموظفين من وظائفهم ، ولكنه فى الوقت ذاته يوصيه وصية حازمة بقوله : « حاذر من أن تعاقب الناس دون خطأ جنوه ، لا تقتل فإن ذلك لا يجديك شيئا ، ولكن عاقب بالضرب والاعتقال فتنصلح الأمور فى البلاد اللهم إلا الثائر عليك الذى تتثبت من أمره » .

ولأول مرة فى تاريخ مصر نقرأ فى تلك النصائح عن وجود محكمة بعد الموت يقف أمامها الإنسان صاغرا ولا ينفعه أمام قضائها إلا العمل الصالح « فإن أعماله توضع مكدسة إلى جواره » ويشير أختوى إلى الشباب فينصح ابنه بالعناية بهم وتقريبهم منه ، وأن يمنحهم الحقول ويكافئهم بإعطائهم بعض الماشية ولكنه يحذره بشدة من أن يميز ابن شخص غنى على ابن شخص فقير بل يجب أن يقدر كل إنسان حسب كفاءته الشخصية .

ويوصيه بالإكثار من إقامة المنشآت الدينية وترتيب القرابين ، وأن يرضى الله فإن الله يعرف الذين يعملون من أجله ، ثم يتدرج بعد ذلك إلى ذكر ما كان حادثا فى مصر من انقسام فيقول لابنه : إنه لا يخلو أحد من وجود أعداء له وأن الأعداء فى داخل مصر لا يهدءون ثم يشفع ذلك بقوله : « إن القدماء قد تنبئوا بأن جيلا سيظلم جيلا آخر وأن مصر ستحارب حتى فى الجبَّانة وتهدم القبور . لقد فعلت ذلك وأصابنى ما يصيب من يعصى أمر الله » .

يشير أختوى بذلك دون ريب إلى حرب استعرت نارها بين الشمال والجنوب إذ ينصحه مباشرة بعد ذلك بأن يحسن علاقته بالجنوب وإذا لم تأت منهم جزية من الحبوب فيكفيه صداقتهم وينصحه بأن يكتفى بما لديه من خبز وجعة .

ويقول لابنه : إن الجرانيت يمكن الحصول عليه دون عائق ، ويحذره من الاعتداء على

آثار الآخرين وأنه يجب عليه الحصول على ما يلزمه من أحجار من محاجر طرة لبناء قبره وألا يأخذ أحجارا مما تخرب من قبور الناس .

كانت أيام اختوى مليئة بالحروب فلم يصطدم ببيت طيبة فى الجنوب بل نشط نشاطا كبيرا فى الدلتا واهتم اهتماما خاصا بالجزء الغربى منها وأخضعه تماما لأهناسيا ، ولكن الأمر لم يكن سهلا فى شرق الدلتا وإن كانت ضرائبها ظلت تأتى إلى القصر . ويقول إنه أعاد تنظيم المنطقة من المنيا جنوبا حتى السويس وأنه أسكن فيها أناسا كثيرين انتقاهم من جميع أنحاء البلاد حتى يستطيعوا الدفاع عنها .

ولقد كان العدو الذى يخشاه ملوك أهناسيا وأقاموا الحاميات وشجعوا تعمير البلاد لصده هم عصابات الآسيويين حملة القوس ، الذين يلاقون الكثير من المتاعب فى بلدهم « بسبب الماء والأشجار والجبال » ويقول عن الآسيوى : « إنه لا يستقر فى مكان واحد ولكن ساقاه صنعا لكى يتجول ويذهب بعيدا . إنه يحارب منذ أيام حورس (أى منذ الأزل) وهو لا يقهر ولا يقهر ، إنه لا يحدد يوما للقتال ، إنه كاللص الذى يعمل فى عصابة » وهذه إشارة دون شك إلى عصابات من البدو[1] جاءت من الشرق وكانت تنتهز الفرص لنهب القرى الآمنة أو نهب المسافرين ، « ربما أمكنه أن ينهب شخصا (يسير) بمفرده ، ولكنه لا يهاجم مدينة فيها سكان كثيرون » .

وينبه ابنه مريكارع إلى أهمية منطقة البحيرات[2] المرة لحماية مصر من خطر البدو وينصحه بتحصين جزء منها وغمر الجزء الآخر بالمياه ويذكر ما قام به من تحصينات وعدد الذين جعلهم يقيمون هناك وكلهم مسلحون اللهم إلا الكهنة الذين يقيمون معهم . ويشير أيضا إلى تحصينه لمنف وإلى إنشاء قناة (أو ربما جسرا) تربط بينها وبين أهناسيا ، ويعيد الكرة فيحذر ابنه من محاربة الجنوب ويقول له بأن ذلك يعطى فرصة للبدو الآسيويين فيعيثون فسادا فى الدلتا . ويعود فيذكر ما جره عليه اصطدامه بالجنوب « انظر ! لقد حدثت نكبة فى عهدى . لقد تحطمت مناطق إقليم ثنى . حدث ذلك حقا بسبب مافعلت ولكنى لم أعلم به إلا بعد حدوثه . انظر ! لقد جوزيت على ما اقترفت » ويختم

(١) شبيه بهم الآن عصابات اليهود الذين اغتصبوا أرض الإسراء والمعراج تحت سمع وبصر المجتمع الدولى . وهم لايهددون مصر وحدها ولكن يهددون العالم الإسلامى كله .

(٢) وهى المنطقة التى احتل بها العدو اليهودى الثغرة فى عام ١٩٧٣ . وهذا دليل على أن أبناء العرب لايقرأون التاريخ ، ولو قرأوا لايستفيدون .

نصائحه بحث ابنه على طاعة الله والخوف منه فهو يعلم السر وما يخفى ، ويذكره بألا ينسى آخرته ويعمل لليوم الآخر . ويقول له بأن يذكر دائما نِعَم الله ويقول عنه : « إنه هو الذى خلق أنفاس الحياة لخياشيهم (أى الناس) وأولئك الذين خرجوا من صلبه ليسوا إلا صورا له . إنه يشرق فى السماء ليلبى رغبتهم ، إنه خلق لهم النباتات والحيوانات والطيور والأسماك **ليقتاتوا** منها » وما أجمل قوله : « إن الله يقبل أخلاق الرجل المستقيم الضمير أكثر من قبوله للثور الذى يقدمه الشرير (كقربان للآلهة) » . وما أصدق عبارته التى يشير فيها إلى أن الله يوقع عقابه على بعض الناس لمصلحتهم : « إنه (أى الله) يقضى على من يملأ الشر قلبه بينهم (أى الناس) كما يضرب الأب ابنه إكراما لأخيه ، لأن الله يعرف كل إنسان » .

ـــ بردية القروى الفصيح :

« ليست هذه البردية[1] قصة حقيقية وإنما هى قطعة أدبية ذات هدف خلقى أحسن فيها كاتبها اختيار تعبيراتها وصيغها ، وأظهر فيها مقدرته فى اللغة . تكون من مقدمة على صورة قصة لا تخلو من الطرافة وتسع شكاوى فى موضوع واحد وهو الحث على العدل وإعطاء الفقير حقه وحمايته من الغنى وأن يكون الحاكم سياجا وملجأ للمظلوم ويخشى من عقاب الله إذا انحرف عن الطريق السوى .

كان يعيش أحد **القرويين** واسمه « خو ان أنوب » فى وادى النطرون وأراد أن يأخذ بعض حاصلات تلك الواحة ليبيعها فى أهناسيا ثم يشترى بثمنها غلالا يعود بها إلى أهله . وطلب من امرأته أن تعد له زاد الطريق وحمل حميره وسار فى طريقه حتى أصبح على مقربة من العاصمة وكانت فى بلدة أهناسيا . وأثناء سيره رآه من بعيد شخص يسمى « تحوتى نخت » من أتباع « رنسى » بن « مرو » الذى كان رئيس مديرى القصر الملكى . فلما رأى « تحوتى نخت » ذلك القروى عزم على اغتصاب ما معه وكان بيته قريبا من جانب الطريق الضيق ، وكانت الحقول على أحد جانبى الطريق وعلى الجانب الآخر ترعة فيها ماء . وأمر « تحوتى نخت » أحد خدمه فأحضر له قطعة من قماش فرشها فوق الطريق فوصل أحد طرفيها الشعير المزروع فى الحقل بينما تدلى الطرف الآخر فى مياه قناة كانت هناك أى أن ذلك النسيج غطى عرض الطريق فلما وصل القروى حذره من أن تدوس حميره على النسيج فصدع القروى للأمر وأجابه سمعا وطاعة وساق حميره على حافة الجسر من ناحية الحقل

---

(١) حضارة مصر الفرعونية ، ١٤٢ وما بعدها .

وعند ذلك نهره سائلا عما إذا كان يريد أن يجعل من حقل شعيره طريقا لحميره فأجابه القروى بأنه لا يقصد سوءا فالطريق مرتفع وقد غطاه بالقماش ولم يعد هناك مكان يسير فيه إلا حقل الشعير . وفى أثناء تلك المناقشة مال أحد الحمير فأكل شيئا من الحقل وعند ذلك قال : « تحوتى نخت » أنه سيستولى على ذلك الحمار ثمنا لما أكله فصرخ القروى سائلا إذا كان من العدل أن يأخذ حماره مقابل قبضة من الشعير ملأ بها فمه ، وصاح قائلا : « إننى أعرف صاحب هذه الضيعة ، إنها ملك رئيس مديرى القصر رنسى بن مرو ، إنه هو الذى يقف فى وجه اللصوص فى كل أنحاء البلاد فهل أسرق فى ضيعته ؟ وعند ذلك نهره « تحوتى نخت » وأخذ فرعا من شجرة وأوسعه ضربا وأخذ كل حميره ، وساقها إلى الضيعة .

« وبكى القروى من آلامه بكاء مرا فلم يتركه « تحوتى نخت » وشأنه بل نهره وأمره بالسكون لأنه على مقربة من معبد « رب السكون » (أى أوزيريس) فصاح القروى : « إنك ضربتنى وسرقت متاعى وتأبى إلا أن تأخذ أيضا الشكوى من فمى !! يارب السكون رد إلى بضاعتى حتى لا أصيح .. » ! وظل القروى المسكين عشرة أيام كاملة يستسمح ظالمه دون جدوى . فلما يئس منه سار فى طريقه ليشكو إلى رنسى نفسه فى العاصمة .

ورآه عندما كان يهم بالخروج من باب بيته لينزل إلى سفينة ليعقد فيها جلسة المحكمة فقال له : « هل لى أن أرفع إليك أمرا ؟ أرجوك أن ترسل إلى تابعك الذى تثق فيه حتى يصل إليك عن طريقه ما أريد قوله » فأرسل رنسى إليه تابعه فشرح القروى له القصة بحذافيرها . وعند ذلك رفع رنسى قضية ضد « تحوتى نخت » أمام القضاة الذين كانوا معه فما كان من القضاة إلا أن قالوا هذا القروى لابد أن يكون أحد فلاحيه الذين تركوا العمل عنده وذهب ليعمل عند الآخرين ، وأن ما حدث له هو ما يستحقه أى قروى يفعل ما فعله وقالوا : « أعلى مثل ذلك يعاقب تحوتى نخت بسبب كمية تافهة من النطرون وشىء قليل من الملح ؟ أصدر إليه أمرك بأن يعوضه عنها وسيفعل ذلك » ولكن رنسى لزم الصمت فلم يرد على القضاة ولم يرد على القروى .

وجاء القروى مرة ثانية ليشكو وصاح مخاطبا رنسى ومذكرا له باليوم الآخر ويطلب منه أن يقيم العدل حتى ينال العدل بعد موته ، ويقول له : « إنك أبو اليتيم ، وزوج الأرملة ، وزوج المرأة المهجورة ، ودثار من لا أم له » . وذهب رنسى إلى الملك نيكارع آخر ملوك الأسرة العاشرة وكان يسمى أختوى أيضا) وقال له : « سيدى : لقد وجدت احدا من أولئك القرويين ، فصيحا بحق ، لقد تعدى عليه أحد رجالى وسرق ما معه وجاء

إلى يشكو من ذلك » فنصحه الملك بأن يجعل ذلك القروى يطيل إقامته ليستمر فى الشكوى وأمره أن يكتب كل ما يقوله وفى الوقت ذاته يعنى بأمر زوجته وأطفاله فيرسل إليهم ما عساه يكفى لقوتهم ، وأن يعنى أيضا بأمر القروى نفسه فيرسل إليه الطعام دون أن يعرف أنه هو الذى أمر بترتيبه له ! فرتبوا له كل يوم أربع أرغفة من الخبز وإناءين من الجعة . وجاء القروى مرة بعد أخرى وكان فى كل مرة يلقى شكواه بأسلوب فصيح يملؤه بالاستعارات والتشبيهات حتى بلغت شكاواه تسعا أبدع فيها كاتب القصة وكلها تدور حول العدل ومسئولية الحاكم عن الدفاع عن المظلوم ومساوىء الطمع والتكبر على الناس ، وفى آخر شكواه التاسعة يئس القروى وصمم على قتل نفسه فختمها بقوله : « انظر ! إنى أشكو إليك ولكنك لم تستمع فهل تريد منى أن أذهب وأشكوك إلى (إله الموتى) أنوبيس ؟ » وترك القروى مكانه وسار فى طريقه فأرسل رنسى وراءه اثنين فأعاداه . وظن المسكين أنهم سيعاقبونه على ما بدر منه ، فلما وقعت عيناه على رنسى ابتدره قائلا : « إنى تواق إلى الموت كما يتوق الظمآن عندما يقترب من الماء ، وكما يتوق فم الرضيع إلى لبن (أمه) » ولكن رنسى رد عليه قائلا : « لا تخف أيها القروى ... انظر ! إنك ستقيم معى » ولكن يأس القروى كان قد بلغ نهايته : « ولن آكل خبزك أو أشرب من جعتك ما حييت » . ولكن رئيس البيت الملكى قال له : « تعال من هنا حتى تستمع إلى ما قلته من شكاوى » وأمر أن تقرأ له من بردية سطرت عليها ، ثم أرسلها رنسى بعد ذلك إلى الملك ، وقال الملك لرئيس بيته أن يتولى هو الحكم فى القضية فأرسل اثنين من الشرطة لإحضار تحوتى نخت وأرضى القروى إذ عوضه عن كل ما فقده كما انتقم له ممن ظلمه دون وجه حق فأعطاه كل ما كان يمتلكه تحوتى نخت .

تقويم المعلومات التى وردت فى الوثيقتين عن أحوال مصر العقدية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية :

الوثيقتان تعكسان إيماناً بالله ، وباليوم الآخر ، بالحساب والثواب والعقاب . لقد انجلى عصر الفترة الأولى عن قيم جديدة لم يكن للناس عهد بها فى عصر بداية الأسرات وعصر الدولة القديمة فإذا هم أمام حاكم يعترف ببشريته ولا يدعى الألوهية أو الربوبية .. حاكم يتحدث عن ضعفه وندمه كسائر البشر .. حاكم يقول بأن سعادة الإنسان فى آخرته تتوقف على عمله الصالح فى الدنيا ولا تتوقف على رضاء الملوك فقط ، حاكم يقول إن كل امرىء مهما كان مركزه سيحاسب على أعماله أمام محكمة الآخرة ، وأنه سيجد تلك الأعمال

مكدسة إلى جانبه بما فيها من خير وشر ـــ وحاكم يقول إن السعادة فى الآخرة لم تعد تتوقف على قبر يبنى أو قرابين تقدم بانتظام لأن الله يعرف ما فى القلوب ويطلب من عباده أن تحسن نياتهم ويذرون وراءهم الطمع والشر فإن النيات الحسنة هى التى يقبلها الله ، وهى أقرب إلى قلبه من القرابين التى يقدمها المذنبون ليكفِّروا بها عما اقترفوه من إثم . نلمح ذلك كله فى نصائح الملك أختوى لابنه مريكارع .

أما بردية الفلاح الفصيح فهى تعكس لنا جهود إنسان مظلوم ، كرّس وقته وجهده فى سبيل استعادة حقه المهضوم .. أخذ يدعو الحاكم أن يحمى الفقير من الغنى ، وأن يكون سياجا يحمى الضعيف من عسف القوى ، وألا يعتقد الموظفون أو الذين ينتمون إلى ذوى النفوذ من بين الحكام أنهم يستطيعون أن يظلموا القرويين المساكين دون أن تنالهم يد العدالة . ونرى فيها أيضا أمر الخوف من عقاب الله الذى لا تخفى عليه خافية .. يتضح ذلك مما ذكره القروى عند رئيس البيت الملكى بأنه هو المسئول عن نكبته ، وأنه سيقف يوما ليجيب عن مظلمته .. أنه لم يستمع إلى شكواه ولم ينصفه من تابعه .

إذن هذه الوثائق تعكس لنا إيماناً بالله الواحد الأحد ، وتعكس لنا إيمانا باليوم الآخر ، والبعث ، والحساب . كما أن فيها نهيا عن الظلم ، وحضا **على العدل** .

فى هذه الحقبة من التاريخ نلمح حثّا على مكارم الأخلاق ، ونهيا عن موبقات الأخلاق . فماذا يعنى ذلك ؟ ومن أين للمصريين بهذه الإيمانيات ؟ هل يمكن أن تكون من ابتداع عقول المصريين كما يزعم كتاب التاريخ ؟ لايمكن !! إذن ماهو التفسير لوجود هذه القرائن الدالة على الإيمان بالله فى حياة شعب مصر . يمكن أن نفترض عندما استشرى الظلم ، وزاد الطغيان ، واعتدى حكام الفراعنة على سلطان الله فى الأرض ، وادعوا الألوهية والربوبية ، وعبدوا الناس لأنفسهم ، وادعوا ما لله من صفات وأسماء .. وخفت صوت **التوحيد وانتشرت الوثنية فى مصر ، وأصبح كهنة الأوثان سيوفا مسلطة على رقاب الناس** باسم الدين .. ضاق الناس بذلك ذرعا وبعد أن استمرأت نفوسهم الذلة والاستكانة لفترات طويلة وعجزوا عن إزاحة الطغيان يمكن أن نفترض أن يد القدرة الإلهية قد تدخلت فأرسلت إلى هؤلاء القوم من يعيدهم إلى طريق الحق وطريق الهداية ويعبِّدهم لربهم الواحد .. وبعد أن جاءهم الرسول ... وعرفوا ربهم !! وعرفوا أن الأخلاق ترتبط ارتباطا وثيقا بالعقيدة ، وعرفوا أن الموت حق ، وأن البعث حق ، وأن الله قد حرم الظلم وأنه سيعاقب

ويحطمون الأوثان وحماتها .. لكى يكون الناس كلهم عبيدا لله الواحد القهار .

٤ ــ الدولة الوسطى

الأسرتان الحادية عشرة والثانية عشرة

٢٢٣٤ ــ ١٧٧٨ ق . م

(أ) الأسرة الحادية عشرة (٢٢٣٤ ــ ١٩٩١ ق . م) :

لقد تمخضت الأحوال فى عصر الفترة الأولى كما يقول كتاب التاريخ القديم[١] عن تيارات عقائدية آمن أصحابها بأن البعث هو حق لا شك فيه ، ولكنهم آمنوا فى الوقت نفسه بأن سعادة الفرد فى أخراه لا ترتبط ببناء المقابر الفخمة أو مواصلة تقديم القرابين وترتيل الدعوات وإقامة طقوس الدين ، بقدر ما ترتبط بأعمال الإنسان فى دنياه وإيمانه بعدل ربه فى أخراه .

كما تمخضت أحداث العصر أيضا عن استقلال حكام الأقاليم بحكم أقاليمهم وجعله وراثيا فى أبنائهم ، كما أصبحوا يتمتعون بسلطات إدارية ودينية واقتصادية واسعة . كما أصبح لكل إقليم جيش وأسطول خاص به .

ومن بين حكام الأقاليم الذين استقلوا بأقاليمهم بعد انهيار السلطة المركزية حكام طيبة ، ولقد سنحت لهم الفرصة ، أثناء حكم الأسرة العاشرة فى أهناسيا لتكوين اتحاد مع جيرانهم الأقربين ، ليخوضوا فى أعقاب تكوينه صراعا عنيفا ضد حكام أهناسيا وأعوانهم فى الشمال من أجل توحيد أقاليم مصر كلها تحت زعامتهم . وقد استمر ذلك النضال حوالى ٨٠ عاما حتى خلص الأمر نهائيا لحكام طيبة وأصبحوا يحكمون البلاد دون منازع مكونين ما يسمى بالأسرة الحادية عشرة أو أولى أسرات الدولة الوسطى .

ومؤسس حكم البيت الطيبى (أو الأسرة الطيبية نسبة إلى عاصمتهم طيبة) هو « انيوتف » الذى خلفه عدة أمراء أهمهم منتوحتب الثانى . ويعتبر هذا الفرعون أهم ملوك هذا البيت ، إذ أنه هو الذى نجح فى توحيد أقاليم مصر جميعها تحت حكمه بعد أن قضى على قوة أهناسيا ، ولذلك استحق أن يلقب بـ « ملك مصر السفلى والعليا » (عام ٢٠٥٢

---

(١) مصر الفرعونية ، ص ١٥٠ ــ ١٥٤ .

ق . م) وقد أعقب ذلك قيامه بحملات عسكرية لتأمين حدود مصر الشرقية والغربية ضد غزوات البدو القاطنين فوق الرمال وترك للأمراء الاستقلال فى حكم أقاليمهم فى مقابل الضرائب والولاء للحاكم الجالس على عرش مصر .

وقد اختار منتوحتب الثانى ، منطقة الدير البحرى « البر الغربى للأقصر » ليقيم فيه معبده الجنزى ومقبرته الأبدية ، وعلى جانبى الطريق الصاعد لهذا المعبد جهزت مقابر موظفى ذلك العهد الذى طال حتى بلغ ٥١ عاما ، وقد أعقب هذا الملك فى حكم مصر بعض الملوك منهم منتوحتب الثالث ومنتوحتب الرابع . وأهم الأحداث المرتبطة بأواخر هذه الأسرة هو إرسال بعثة من ١٠,٠٠٠ رجل بقيادة شخص اسمه أمنمحات إلى وادى الحمامات لقطع بعض الأحجار اللازمة للأعمال الإنشائية ، ثم يعقب ذلك بعض الأحداث التى تنتهى باستيلاء ملك جديد على عرش مصر وتأسيس أسرة جديدة نقلت العاصمة من الجنوب إلى الشمال .

(ب) الأسرة الثانية عشرة (١٩٩١ ـ ١٧٧٨ ق . م) :

تعاصر هذه الأسرة أحداثا عظاما وقعت على أرض الرافدين والشام ومصر والحجاز . ففى هذا العصر ولد إبراهيم عليه السلام تقريبا (١٩٤٠ ق . م) وبعث على أرض الرافدين ، وأثناءه أيضا نجى الله إبراهيم عليه السلام إلى بلاد الشام (١٨٥٠ ق . م) تقريبا وفى أثنائها زار إبراهيم وزوجه سارة مصر ، حيث أخدمها حاكم مصر فى ذلك الوقت هاجر . وأثناءها رزق إبراهيم عليه السلام بإسماعيل عليه السلام ، وانطلقا مع هاجر إلى بلاد الحجاز إلى جوار بيت الله العتيق .

وقد ذكر الإمام الحافظ ابن كثير أن بعض أهل التواريخ قد ذكروا أن فرعون مصر الذى على عهده زار إبراهيم عليه السلام مصر كان أخا للضحاك الملك المشهور بالظلم وكان عاملا لأخيه على مصر . ويقال كان اسمه سنان بن علوان بن عبيد بن عويج بن عملاق بن لاود بن سام بن نوح [1] ، وهذه المعلومات تحتاج إلى تحقيق بالمقارنة مع ماورد من أسماء فراعنة هذه الأسرة .

كانت عاصمة البلاد فى « أثت تاوى » أى القابضة على الأرضين على مقربة من

(١) البداية والنهاية ، ج ١ ، ص ٥٢ .

العاصمة القديمة منف ، ومؤسس هذه الأسرة هو :

أمنمحات الأول (حكم ٣٠ عاما) : لقد وجه هذا الملك جهوده إلى الاهتمام بالشئون الداخلية والخارجية للبلاد مع مد نفوذه إلى مصر جنوبا ، كما قام بتشييد الحصون على حدود الدلتا الشرقية والغربية . كما نشط فى عهده استغلال المناجم والمحاجر ، وكذلك نشطت التجارة الداخلية ، وقد أبقى هذا الملك لأمراء الأقاليم استقلالهم على أن يدينوا بالولاء للملك الجالس على العرش . وأن يمدوا خزانته بالضرائب والأموال اللازمة لعمارة البلاد وحمايتها من أى خطر أجنبى .

وقد اغتيل[1] هذا الملك فى قصره أثناء غياب ابنه وولى عهده وشريكه سنوسرت الأول فى حملة على ليبيا . وقد أقيمت مقبرته على هيئة الهرم فى منطقة اللشت بالقرب من الفيوم إحياء للتقليد القديم لملوك الأسرة الرابعة .

وقد أعقب هذا الملك عدة ملوك أهمهم :

سنوسرت الأول الذى حكم ٤٤ عاما ويرتبط بعهد هذا الملك ما نقله لنا الدكتور[2] صالح فيما يختص بما ذكره المؤرخون الإغريق والرومان هيرودوت وديودور واسترابون وبلينى عن قناة تصل بين النيل والبحر الأحمر وتبدأ من الفرع البوباسطى للدلتا شمالى الزقازيق بقليل ثم تمتد خلال وادى الطميلات حتى تنتهى إلى البحيرات المرة ، ونسب بلينى أقدم مشروع لهذه القناة على عهد الفرعون سيزُوستريس . ورأى البعض من المؤرخين المحدثين ومنهم جيس هنرى برستد أن سيزوستريس هذا لم يكن غير سنوسرت الأول وأن القناة بدأت فى أيامه .

ومن ملوك الأسرة الثانية عشرة أيضا أمنمحات الثانى ثم سنوسرت الثانى الذى كرس جزءا كبيرا من جهده لعمل مشروعات رى كبيرة فى مديرية الفيوم ، كما أقام مجموعته الهرمية باللاهون . ولم يزد حكم هذا الملك على تسعة أعوام ليعقبه على العرش ابنه سنوسرت الثالث الذى زادت فترة حكمه على ٣٨ عاما . وأهم أعماله هو حملاته الحربية لتأمين حدود مصر

---

(١) أمكن معرفة بعض تفاصيل هذا الخبر من بردية شخص يسمى سنوهى ، وبردية أخرى تعرف باسم وصايا أمنمحات لابنه ، وهى تشير إلى أن اغتياله ربما كان نتيجة للتنافس على العرش بين أفراد الأسرة ، مصر الفرعونية ص ١٧٠ وما بعدها .

(٢) الشرق الأدنى القديم ، ص ١٧٠ .

الجنوبية والشرقية ، وذلك بالإضافة إلى التقليل من نفوذ حكام الأقاليم الذين صاروا منذ عهده مجرد موظفين عاديين .

وخلف هذا الملك ابنه امنمحات الثالث الذى اتصف عهده بالرخاء والطمأنينة وقد بنى هذا الملك مجموعته الهرمية عند بلدة هوارة بإقليم الفيوم .

ولقد قامت السياسة الخارجية لعصر الأسرة الثانية عشرة على أساس **تغليب** علاقات الود مع الدول المجاورة فى الشام والعراق وجزر بحر إيجه .

أما السياسة الداخلية فقد قامت على أساس توطيد النفوذ وتوسيع الإشراف والاستثمار على امتداد الحدود فى الغرب والجنوب أى فى ليبيا والنوبة مع إيثار السلام المسلح القائم على اليقظة وتحصين الحدود .

وفى نهاية حكم هذه الأسرة تعرضت البلاد لكثير من الاضطرابات الداخلية والخارجية ، وبدأ عصر جديد تسميه مراجع التاريخ عصر الفترة الثانية .

٥ ــ عصر الفترة الثانية
من الأسرة الثالثة عشرة إلى السابعة عشرة
(١٧٨٠ ؟؟ ــ ١٥٦٧ ؟؟ ق . م)

وأثناء هذه الفترة : كان يعيش إبراهيم ولوط عليهما السلام على أرض الشام ، وأثناؤها ولد إسحاق ويعقوب عليهما السلام ، وأثناؤها رزق يعقوب عليه السلام بأبنائه الاثنى عشر ، ومنهم يوسف عليه السلام الذى بعث إلى شعب مصر يدعوهم إلى الإسلام .

وسنعرض لما ورد فى مراجع التاريخ القديم عن هذه الفترة ، وهى تعالج تاريخ هذه الفترة بمعزل من التصور الإسلامى.

الأسرتان الثالثة والرابعة عشرة (١٧٨٠ ــ ١٦٨٠ ق . م) :

يطلق المؤرخون على هذا العصر أسماء منها : عصر الإقطاع الثانى ، وعصر الاضمحلال الثانى وعصر الانتقال الثانى وعصر اللامركزية الثانى ويعزى المؤرخون التغيير الشامل الذى أصاب البلاد إلى ظهور أعداء لمصر فى سوريا وفلسطين والسودان ، كما يعزيه البعض الآخر إلى ازدياد سطوة حكام الأقاليم ، وازدياد المؤامرات داخل البيت المالك على

العرش ، وذلك غير هجمات الشعوب الهندواوربية التى بدأت تجتاح بلاد الشرق الأدنى القديم منذ عام ٢٠٠٠ ق . م (١) .

لقد أصبحت مصر فى ذلك الوقت مفككة الأوصال ، وادعى كل حاكم أحقيته بالملك ، وأنه حاكم الشمال والجنوب ، فقد كان هناك بيت حاكم فى طيبة ، وبيت حاكم فى قفط ، وآخر فى أسيوط ، ولكن أهمها هو البيت الذى حكم فى منف فى الشمال ، وهو مايطلق عليه اسم الأسرة الثالثة عشرة ومن ملوكها نحسى الذى كان يحمل لقبا « حبيب سيد أورايس » ، مما دفع البعض إلى القول بأنه كان ذا صلة بحكام الهكسوس الذين بدأوا فى الاستقرار فى شرق الدلتا فى أواسط أيام هذه الأسرة .

وفى عهد هذه الأسرة كانت حدود مصر الجنوبية تمتد إلى مابعد الشلال الثانى عند حصنى سمنة وقمة . وقد عثر على اسم أحد ملوكها وهو خع سخم رع (نفر حوتب) على بعض آثار وادى حلفا فى الجنوب ، كما عثر على نصب فى فينيقيا بالشام يصور يوناثان أمير جبيل جالسا أمام شخص عظيم تشير النصوص المتبقية إلى أن اسمه نفر حوتب .

أما ملوك الأسرة الرابعة عشرة فقد كان مقر حكمهم فى مدينة « سخا » فى غرب الدلتا ، وهناك احتمال أنها بدأت حكمها أثناء حكم ملوك الأسرة الثالثة عشرة ولكنها استمرت فترة أطول بمنأى عن سطوة الهكسوس الذين سيطروا على شرق الدلتا ، بينما استمر نفوذ البيوت الحاكمة فى طيبة وجزء كبير من الصعيد .

وأعقب تلك الحقبة ، الأسرة الخامسة عشرة وهى التى فيها اجتاحت مصر جموع الهكسوس .

شغل حكم الهكسوس وغطى حوالى مائة عام وثمانية ، وأن بدء حكمهم يقع بين أعوام ١٧٣٠ و ١٧٢٥ ق . م وقد سمى أحد حكامهم ساليتيس الذى اتخذ أفاريس فى شرق الدلتا عاصمة جديدة . ومن أسماء حكامهم أيضا « يعقوب حر » أى يعقوب آت (٢) .

وقد قسم المؤرخون ملوك الهكسوس إلى ثلاث أسرات : الخامسة عشرة والسادسة

---

(١) المعلومات مأخوذة عن حضارة مصر الفرعونية تأليف الأستاذ الدكتور أحمد فخرى ، ص ١٩٢ ومابعدها .

(٢) تراث العالم القديم ، جـ ١ ، ص ٣٣ .

عشرة والسابعة عشرة .

ولكن من هم الهكسوس؟

أقدم ما قيل عن أصل الهكسوس ـــ كما يقول الدكتور أحمد فخرى ـــ هو ما نقله المؤرخ اليهودى يوسيفوس [١] الذى عاش فى القرن الأول بعد الميلاد عن مانيتون : « فى عهد الملك توتيمايوس ولا أدرى السبب فى ذلك ، أصابتنا ضربة من الله ، ودون أن نتوقع ذلك جاءنا غزاة من جهة الشرق من أصل مجهول ساروا تملؤهم الثقة فى النصر ضد بلادنا وتمكنوا بقوتهم من الاستيلاء عليها بسهولة دون ضربة واحدة ، وبعد أن تغلبوا على حكام البلاد ، حرقوا مدننا دون رأفة ، وهدموا معابد الآلهة من أساسها »[٢] .

كما أشارت الملكة حتشبسوت فى معبدها فى بنى حسن إلى الهكسوس بقولها « لقد أقمت ما كان قد تداعى ، وكذلك ما كان قد تهدم ، فى الوقت الذى كان فيه الآسيويون يحكمون فى أواريس فى الشمال وكانوا بجحافلهم المتجولة يعيثون بين الناس فسادا محطمين ما كان قائما . **إنهم كانوا يحكمون دون اعتراف بسلطان رع ، وكان رع لا تتعدى له إرادة** إلهية حتى جاء عهدى العظيم » [٣] .

ويضيف الدكتور فخرى « بأن فى أسمائهم يغلب الأسماء السامية ، وأن كلمة الهكسوس كلمة مصرية وهى تحريف للقب هو حقا خاسوت أى حاكم البلاد الأجنبية وكان لقبا يطلقه المصريون على زعماء القبائل البدوية التى كانت تعيش فى شرق مصر . ونراه مكتوبا فوق منظر مجيء البدو الساميين فى إحدى مقابر بنى حسن كما جاء أيضا فى قصة سنوهى أثناء حديثه عن إقامته بين بدو لبنان وسوريا . ولا جدال فى أن هؤلاء الهكسوس جاءوا من طريق فلسطين وربما كانت جحافلهم المختلطة مستقرة هناك قبل مجيئهم إلى مصر »[٤] .

---

(١) وذكر أن الهكسوس كانوا يهودا وأنهم كانوا ملوكا ذوى سلطان وجاه وحضارة وأنهم ذو تاريخ ومجد (مصر الفرعونية ، ص ٢٠٢) . وهذا الزعم لا دليل عليه ، وإن كان يشير إلى أن التاريخ قد عبث به المزورون لخدمة مخطط اليهود .

(٢) حضارة مصر الفرعونية ، ٢٠٢ .

(٣) حضارة مصر الفرعونية ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ .

(٤) المرجع السابق ، ص ٢٠٣ ، ويذكر الدكتور أحمد فخرى أن لوحة كارنارفون (لوحة الكرنك الجديدة أو بردية ساليه رقم ١ تنعت الهكسوس بأنهم أسيويين) .

وتجمع المصادر المصرية أن الهكسوس أذلوا مصر وخربوا معابدها[1]، وبالإضافة إلى ذلك فقد وردت كلمة لمستشارى الملك كامس — على لوحة من الحجر الجيرى (لوحة كارنارفون) — حينما طلب منهم الرأى فى رغبته طرد الآسيويين من قصره لأنهم يشاركونه السلطان ، وهو يريد أن ينفرد بالسلطان قالوا : « انظر ! إن منطقة الآسيويين تمتد حتى القوصية ، ثم حركوا ألسنتهم وقالوا بصوت واحد : ولكننا فى طمأنينة ونحكم مصرنا والفنتيننا بخير ، وجميع البلاد حتى القوصية إلى جانبنا والرجال يحرثون لنا أراضينا ، وترعى ماشيتنا فى الدلتا ، ويأتينا الشعير علفا لحنازيرنا . لم يأخذ أحد ماشيتنا غصبا ولم يعتد علينا معتد . إنه يتملك على أرض الآسيويين ونحن نتملك على أرض مصر أما إذا جاءنا أحد واعتدى علينا فإننا سنقاومه » .

ونخرج من العرض السابق بالملاحظات التالية :

١ — أن الهكسوس هم من البدو (٢) الذين كانوا يشتغلون بالرعى إلى الشرق من مصر (بلاد الشام) .

٢ — أن هؤلاء الرعاة كانوا لا يعترفون بسلطان الوثن « ر ع » وأنهم خربوا معابد الأوثان .

٣ — أن ماأصاب مصر ، من تمكين الرعاة الأجانب ، وإذلال فراعنتها كانت ضربة من الله موجهة ضد حكام مصر .

٤ — أن هنالكَ حقبة من الزمان أحست فيها البلاد بالأمن وبالاستقرار والرخاء فى ظل حكم الرعاة ، بحيث لم يجدوا ضرورة للتحارب معهم .

وتعاصر الأسرة الأخيرة (السابعة عشرة) من ملوك الهكسوس ملوك طيبة الذين أخذوا على عاتقهم القضاء على نفوذ الهكسوس فى مصر .

وقد تحقق لفراعنة طيبة ما أرادوا على أيدى الملك سقنرع وأخيه أحمس اللذين نجحا فى طرد الهكسوس حتى مدينة شاروهن القديمة جنوبى غزة .

(١) المرجع السابق ، ص ٢٠٤ الشرق الأدنى ، جـ ١ ، ص ١٨٨ .

(٢) وهذا يؤكد الافتراض القائل بأن رسالة يوسف عليه السلام وموضوعها الكفر بالطاغوت والإيمان بالله قد كانت فى عصر الفترة الثانية . إذ أنه جاء من « البدو » وأبوه وإخوته وأهله ، وترتب على قبول دعوته القضاء على سلطان الوثن « ر ع » ، ولا شك أيضا أن البلاد تحس بالاستقرار فى ظل القيادة المسلمة ، ولذلك فلا عجب أن يرفض شعب مصر قتال الملوك والرعاة .

(٣) المرجع السابق ، ص ٢٠٨ — ٢١٠ .

obeikandl.com

الفصل الثانى

بعثة يوسف عليه السلام

المبحث الأول

حالة المجتمع المصرى
من الناحية السياسية والعقدية والاجتماعية
في عهد الهكسوس (الملوك الرعاة)
وقبل بعثة يوسف عليه السلام
على أرض مصـــر

حينما وصل يوسف ـــ عليه السلام ـــ إلى أرض مصر وهو فتى صغير ، كانت مصر محكومة بمن أسماهم كتاب التاريخ « الهكسوس » ، وكان على رأس الدولة المصرية حينذاك ملك[١] ، يليه مباشرة رئيس الوزراء ، الذى أطلق عليه القرآن الكريم لفظة « العزيز »[٢] .

أما من الناحية العقدية فقد كان الشرك بالله متفشيا في المجتمع المصرى حينذاك ، وقد ترتب على ذلك الفساد في عقيدة الناس ، التوجه بالعبادة لأرباب من دون الله ، لا تنفع ولا تضر ، اخترع لها الناس أسماء من عندهم[٣] .

---

(١) والدليل على ذلك قول الله عز وجل : ﴿ **وقال الملك : إنى أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف ، وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات ، يا أيها الملأ أفتوني في رؤياى إن كنتم للرؤيا تعبرون** ﴾ يوسف : ٤٣ .

(٢) كما ورد في قول الله تعالى : ﴿ **وقال نسوة في المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه ، قد شغفها حبا ، إنا لنراها في ضلال مبين** ﴾ . يوسف : ٣٠ .

(٣) نلمح ذلك في قول يوسف عليه السلام للفتيين المصريين (خباز الملك وساقي الملك) في السجن : ﴿ **يا صاحبي السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار . ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل**

وقد ترتب على هذا الفساد في العقيدة أيضا انحرافات خطيرة ، في مجال السلوك والأخلاقيات ، لقد تغلغل الفساد في حياة المجتمع ، فالمرأة في ذلك العصر ، وهي زوج رئيس الوزراء ـــ المفروض أنه القدوة والأسوة ـــ لا ترى حرجا في الاختلاط بالرجال ، ولا حرج في أن تزين لأحدهم الفاحشة . ولقد جاء ذلك دليلا لا يقبل الشك ، على عدم انضباط الحياة مع نظام الله وشرعه ، لأن الإسلام يمنع الاختلاط ، ويمنع الخلوة بين الرجل والمرأة الأجنبية ، لأن ذلك مدخل من مداخل الشيطان إلى الزنا .

وهذا الأمر يعكس لنا تقصيرا من قبل رب الأسرة الذى كان من الواجب عليه أن لا يسمح بمخالفات شرعية تقع تحت سقف بيته ، وأن عليه أن يربي أهل بيته على الالتزام بأوامر الله . فها هي زوجة العزيز (رئيس وزراء مصر) تراود فتاها (يوسف عليه السلام) عن نفسه[1] ولم يقف الأمر عند هذا التصرف الشخصي من زوجة مسؤول كبير في المجتمع ، بل إن المجتمع المصرى ذاته لم يكن يستنكر هذه الجريمة ، بدليل موقف نساء المجتمع لدى سماع ذلك الخبر ، بل وموقف العزيز نفسه ، وكان في الإمكان أن يكون تصرف امرأة العزيز ـــ وهي زوجة أكبر مسؤول في الدولة ، وهو رئيس الوزراء ـــ نزوة عارضة في لحظة ضعف ، ثم تكون التوبة والندم . ولكن ما حدث يؤكد غير ذلك ، إن امرأة العزيز قد زين لها الشيطان الحرص على ارتكاب الفاحشة مهما كان الأمر ، ليس هذا فحسب ، ولكن الحرص أيضا على جر غيرها إلى هذه المعصية ، والأدهى من ذلك تبرير الفعلة ذاتها وعدم استنكارها ﴿ **إنه من كيدكن** ﴾ .

وحينما تحدث النسوة[2] عن هذه المحاولة من قبل امرأة العزيز أرسلت إليهن تدعوهن إلى وليمة لتوقعهن فيما وقعت فيه ، وقالت ليوسف : ﴿ **اخرج عليهن** ﴾[3] .. ﴿ **فلما**

= **الله بها من سلطان ، إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون** ﴾ . (يوسف ٣٩ ، ٤٠) ، الجامع لاحكام القرآن ، جـ ٩ ، ص ١٦٢ ـ ١٦٣ .

(١) ﴿ **وراودته التي هو في بيتها عن نفسه** ﴾ (يوسف : ٢٣) ، الجامع لأحكام القرآن ، جـ ٩ ، ص ١٦٢ ـــ ١٦٣ .

(٢) ﴿ **وقال نسوة في المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حبا إنا لنراها في ضلال مبين** ﴾ (يوسف : ٣٠) .

(٣) ﴿ **فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن وأعتدت لهن متكئا وآتت كل واحدة منهن سكينا وقالت اخرج عليهن** ﴾ . (يوسف : ٣١) .

رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن وقلن حاش لله ما هذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم . قالت فذلكن الذى لمتنني فيه ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما أمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين ﴾ (١) .

هكذا إصرار وخلع لجلباب الحياء ، وهي صورة مكرورة في مجتمعات كثيرة قديمة ومعاصرة ، بين نساء من يسمون بالطبقة الراقية في المجتمعات ، يحاصرن الرجال الأجانب ويلقين بأنفسهن بين أحضانهم ، بل وتلتقي الشفاه بالشفاه في غير خجل ولا حياء ، بل ووصل التدني ببني البشر في مجتمعات كثيرة معاصرة ، الى حد اعتبار الزنى والشذوذ نوع من الحرية الشخصية ، لأى شخص أن يمارسها ، تحت سمع وبصر الدولة ، بل وبتصريح منها . إنها ارتكاسة لا أقول إلى عالم الحيوان ، فالحيوان منه ما هو أشرف وأطهر ، ولكن أقول إلى مرتبة أدنى من مرتبة الحيوان : ﴿ **إن هم إلا كالأنعام ، بل هم أضل سبيلا** ﴾ (٢) .

وترتب على فساد العقيدة أيضا ، فساد آخر لا يقل خطورة عن الفساد الأول وهو غياب العدل عن حياة المجتمع ، فها هو يوسف عليه السلام يغيب في ظلمات السجون ، وهو برىء مما نسب إليه ، يدخل السجن بسبب طهارته ، وبسبب أمانته ، لقد كان حريصا على أن لا يدنس عرض سيده ، الذى أكرم وفادته ، والذى قال لامرأته : ﴿ **أكرمي مثواه** ﴾(٣) ، ولكن المسألة في عرف الكبراء ، وفي عرف الملأ ليست مسألة العدالة وإنما المسألة ستر الظواهر : ﴿ **يوسف أعرض عن هذا** ﴾(٤) ولا يهم أن يذهب شخص برىء مثل يوسف إلى السجن : ﴿ **ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين** ﴾(٥) .

شيء عجيب ، لا نستغربه ، إذا فسدت عقيدة الناس ، وإن كان ما يحدث في عصرنا أعجب ، إن الإجرام لا يقف عند حد ملء السجون بالأبرياء ، ولكن يذهب إلى

---

(١) يوسف : ٣١ ــ ٣٢ . أورد الإمام القرطبي : « ذلكن الحب الذى لمتنني فيه ، ثم أقرت وقالت ﴿ **ولقد راودته عن نفسه فاستعصم** ﴾ أى امتنع ، ثم راودته المراودة بمحضر منهن ، وهتكت جلباب الحياء ، ووعدت بالسجن إن لم يفعل ، وإنما فعلت هذا حين لم تخش لوما ولا مقالا » الجامع لأحكام القرآن ، جـ ٩ ، ص ١٨٣ ــ ١٨٤ .

(٢) الفرقان : ٤٤ .

(٣) ﴿ **وقال الذى اشتراه من مصر لامرأته : أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا** ﴾ . (يوسف : ٢١) .

(٤) يوسف : ٢٩ .

(٥) يوسف : ٣٥ .

أبعد من ذلك ، وهو ملء بطن الأرض ، بالقتلى ظلما وعدوانا .

وإذا افتقد الناس العدل ، فهذا نذير بلاء شديد ينزل بالأمة .

« إنّما أهلك من قبلكم ، أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد »[1] .

والشيء الذى يثير التساؤل والعجب ، أن يبقى يوسف في السجن ، دون محاكمة ، ودون أن يسأله أحد لماذا سجن ، أو يسأل عنه أحد أين هو ؟ ولماذا وضع في السجن ؟ وما هي جريمته ؟ وإلى متى يبقى ؟ وهى صورة لما وقع ويقع في عالمنا المعاصر ، كم من المسلمين الأبرياء يغيبون في ظلمات السجون أعواما وأعواما دون محاكمة ، ودون استشعار لرحمة ، ودون خوف من الله أو من الناس ، بل وتحت سمع وبصر الشياطين الكثيرين الذين يسمون ببني البشر ، بل وباسم قوانين وضعوها من عندهم تقنن الظلم ، وتُحَكِّم الإنسان في رقبة بني الإنسان .

وترتب على فساد العقيدة أيضا انحراف خطير وهو : عدم الغيرة على العرض ، أو الغيرة على الشرف ، وتعطيل الحدود ، فالزنا ، وعمل كل ما يؤدى إليه ، جريمة تستوجب إقامة الحد ، واتهام إنسان ظلما وعدوانا بجريمة حدها الرجم ، يعتبر قذفا دون بينة تستوجب إقامة الحد . ولكن شيئا من ذلك لم يحدث . فها هو عزيز مصر لا يجد فيما حدث من قبل زوجته ما يشكل جريمة ، تستلزم إقامة الحدود ، أو حتى التوبيخ أو الإنكار ، بل إنه ذهب إلى أبعد من ذلك ، إنه برّر ذلك وأعزاه إلى الجنْس : ﴿ **فلما رأى قميصه قد من دبر قال إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم . يوسف أعرض عن هذا واستغفرى لذنبك إنك كنت من الخاطئين** ﴾[2] .

وهنا نتساءل أين كان راعي الأمة ؟ أين الجالس على العرش ؟ أين الذى وُضع في عنقه مسؤولية رعاية الأمة ؟ ألم يكن من الواجب عليه تربية الأمة على الإسلام ، ألم يكن من

---

(١) متفق عليه .

(٢) يوسف : ٢٨ ــ ٢٩ ، أورد الإمام القرطبي في التفسير : « وإنما قال : عظيم ، في قول الله تعالى : ﴿ **إن كيدكن عظيم** ﴾ ، لعظم فتنتهن واحتيالهن في التخلص من ورطتهن وقال مقاتل : عن يحيى بن أبي كثير عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن كيد النساء أعظم من كيد الشيطان ، لأن الله تعالى يقول : ﴿ **إن كيد الشيطان كان ضعيفا** ﴾ . وقال : ﴿ **إن كيدكن عظيم** ﴾ » .

الواجب أن يُعرِّف الأمة معالم دينها ومعالم الحلال والحرام ، ألم يكن من الواجب عليه أن يتتبع أحوال الرعية ، ويبحث عن المظلوم فيرد إليه مظلمته ، ويبحث عن الظالم فيقتص منه ؟ ألم يكن من الواجب عليه أن يحاسب رئيس وزارته ، ألم يكن من الواجب أن يستنكر الرذائل المتفشية في المجتمع ؟ ألم يكن من الواجب أن يفتش على السجون ليرى البرىء والمظلوم ؟ هل نسي أن الحكم أمانة ، وأنهايوم القيامة خزى وندامة .

ولكن الرجال الأطهار الشرفاء ، رغم قسوة السجن وظلماته ، ورغم المعاناة كانوا يصرون على التمسك بمبادئهم ، لأنهم على ثقة مَن أن الله لن يتركهم وشأنهم نهبا للطواغيت ، وأنه لن يترك الطواغيت دون عقاب ، وأنه لابد وأن تأتي لحظة إن لم يكن في الدنيا ، ففي الآخرة ، يقتص الله للمظلوم ممن ظلمه ، حتى إنه ليقتص من الشاة القرناء للشاة الجلحاء .

إن الشرفاء ، يفضلون السجن وظلماته على الانغماس في الرذيلة ، أو ارتكاب الفاحشة : ﴿ **قال رب السجن أحب إليّ مما يدعونني إليه** ﴾[1] .

ومن الانحرافات التي كان يعج بها المجتمع المصرى حينذاك ، « شرب الخمر » . لقد كان الخمر سلعة رائجة ، لا حرج في تحضيرها وبيعها وشرائها ، ورئيس الدولة يشرب الخمر ، والناس على دين ملوكهم ، بل والملوك حريصون على إغراق الناس في متاع فاجر لا حد له ، حتى لا يفيقون على هول ما يدبّر بشأنهم [2] .

وحينما زاد الفساد وفسدت العقيدة عز وجود الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر ، وإلا فأين الذين جرَّموا الزنى ، وأين الذين استنكروا الظلم الذى يقع على الأبرياء ، لا نجد لذلك أثرا ، حينما أُرْسِل شخص كيوسف ـــ عليه السلام ـــ إلَى السجن دُونَ ذنب جناه .

وحينما فسدت العقيدة أيضا ، فسد النظام الحاكم ، فالملك لا يحس بمعاناة الرعية ، ورئيس الوزراء سادر في غيه ، والرعية لا تأبه لما يحدث حولها .

وفي ظل هذه الظروف ، فيما يسمى بعصر الهكسوس وصل يوسف عليه السلام

---

(١) يوسف : ٣٣ .

(٢) ﴿ **ياصاحبي السجن أما أحدكما فيسقي ربه خمرا** ﴾ يوسف : ٤١ .

إلى أرض مصر .

ولا يعني ذلك أن هذه الظلمات ليس لها من دون الله كاشفة ، فقد كشف الله الغمة ، وأنعم بالنعمة ، وبعث يوسف ـــ عليه السلام ـــ إلى مصر ، لينقذها مما هي فيه .

لقد تعرفنا على أحوال المجتمع المصرى ، حينما وصل يوسف عليه السلام إلى أرض مصر ، ولعل ذلك من قدر الله عز وجل أن يصل يوسف ـــ عليه السلام ـــ ويعاني منذ اللحظة الأولى لوصوله ، هذه المعاناة كانت ليؤجر ، وترفع درجته ، وليتعرّف على الأمراض التي يعاني منها المجتمع ، لأنه قد سبق في علم الله ، أنه سيكون معالجا لأمراض هذه الأمة ، والطبيب المعالج لابد وأن يتعرف على الداء ومسبباته ، ثم يسعى إلى تشخيص الدواء .

لقد أدرك يوسف عليه السلام أن الذى نزل بالأمة من بلاء كان نتيجة طبيعية لشركها بالله عز وجل ، واتخاذها أربابا من دون الله ، وعدم إخضاع الحياة لنظام الله وشرعه . ومن هنا كان تشخيص يوسف للدواء ، الذى يخلص الأمة من سقمها بإذن الله ، إن هي أقبلت على الله ، واستسلمت له في شؤون حياتها كلها ، الصغيرة والكبيرة .

لقد أعلنها يوسف عليه السلام مدوية : ﴿ **إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون** ﴾[1] .

لابد من الاستسلام الكامل لله عز وجل في كل شيء : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة** ﴾[2] .

لقد بيّن يوسف عليه السلام أن علاج أمراض هذه الأمة يكمن في عودتها إلى ربها ، في صلاح عقيدتها ، في خضوع حياتها السياسية والاقتصادية والسلوكية والتعليمية والثقافية ، كلها لنظام الله وشرعه .. ﴿ **إن الحكم إلا لله** ﴾ في كل شيء .

ثم بيّن للأمة أن الإيمان بالله لابد وأن يسبقه الكفر بالطاغوت : ﴿ **إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون . واتبعت ملة آبائى إبراهيم وإسحاق ويعقوب ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون** ﴾[3] .

---

(١) يوسف : ٤٠ .　　(٢) البقرة : ٢٠٨ .　　(٣) يوسف : ٣٧ ـــ ٣٨ .

المبحث الثانى

رسول كريم يدعو شعب مصر إلى الإسلام
رسالة يوسف عليه السلام
فى عصر الملوك الرعاة [1]

إلى من ينتسب يوسف عليه السلام ؟ من أين أتى ؟ وأين كان ينزل ؟ بأى دين كان يدين ؟ كيف وأين نشأ ونما حتى أصبح نبيا رسولا ؟ وما هي الابتلاءات التي تعرض لها ؟ ما هو موضوع دعوته ؟ ما هو موقف القوم من دعوته ؟ كيف أصبح عزيزا لمصر ؟ وما هي المهمة التي أداها على الوجه الأكمل حينما كان في موقع المسئولية لشعب مصر والشعوب المجاورة ؟ وما هي حقيقة العلاقة التي كانت تربط مصر ببلاد الشام في ذلك الوقت ؟ وما هي الظروف التي وصل أثناءها والد يوسف عليه السلام وإخوته ؟ وما هي أهم المعالم التي ترسيها سيرة هذا النبي الكريم في حياة الأمة الإسلامية ؟

نسب يوسف عليه السلام :

يوسف عليه السلام نبي كريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم [2] كما وصفه نبي الله محمد ﷺ ، وهو ابن يعقوب (إسرائيل) بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام ، فهو من سلالة قدّر الله سبحانه وتعالى أن يكون منهم الأنبياء والرسل والملوك ﴿ **وجعلناه أئمة** .. ﴾ [3] وأنعم عليهم بالكتاب والحكم والنبوة : ﴿ **أولئك الذين آتيناهم الكتاب**

---

(١) عصر الفترة الثانية فى تاريخ مصر منذ أقدم العصور .

(٢) قال رسول الله محمد ﷺ : « الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام » . رواه البخارى ، وسئل رسول الله ﷺ : أى الناس أكرم ؟ قال : « أكرمهم عند الله أتقاهم » . قالوا : ليس عن هذا نسألك قال : « فأكرم الناس يوسف نبي الله ابن نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله » . رواه البخارى .

(٣) الأنبياء : ٧٣ .

والحكم والنبوة ﴾ [1] ، وجعلهم قدوة وأسوة ﴿ **أولئك الذين هدى الله ، فبهداهم اقتده** ﴾ [2] .

ميلاده على الأرض المباركة :

وقد ولد يوسف عليه السلام على الأرض المباركة ، « بيت المقدس » وسورية وفلسطين « التي ولد عليها من قبل أبوه يعقوب وجده إسحاق ، عليهما السلام ، والتي وصل إليها جده الأكبر إبراهيم عليه السلام بعد أن أنجاه الله من محاولة قتله بالنّار . وكان ليوسف أحد عشر أخا بعضهم لأبيه وأحدهم لأمه ، **هؤلاء جميعا ومنهم يوسف كانوا يدينون بالإسلام** [3] .

وعلى أرض الشام ، وبجوار بيت المقدس ، وفي منتصف القرن السابع عشر قبل الميلاد تقريبا ، كان يعيش يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام مع أبنائه الاثنا عشر ، ومنهم يوسف عليه السلام .

يوسف يقص رؤياه على والده :

وذات صباح استمع يعقوب عليه السلام لابنه يوسف ، وهو يقص عليه رؤيا ، شاهد أحداثها في منامه : ﴿ **إني رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين** ﴾ [4] .

فبشر الأب ابنه ، بأن الله سبحانه وتعالى سيصطفيه ، ويعلمه من ﴿ **تأويل الأحاديث** ﴾ [5] ﴿ **ويتم نعمته** ﴾ عليه وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبويه من قبل

---

(١) الأنعام : ٨٩ ، تفسير القرآن العظيم ، جـ ٢ ، ص ١٥٤ — ١٥٦ .

(٢) الأنعام : ٩٠ .

(٣) فإبراهيم عليه السلام : ﴿ **إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين** ﴾ . ويعقوب عليه السلام نبي مسلم : ﴿ **ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يابنى إنّ الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون** ﴾ ، ﴿ **أم كنتم شهداء إذْ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدى قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلها واحدا ونحن له مسلمون** ﴾ ، ويوسف عليه السلام نبي مسلم ﴿ **رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض أنت ولي في الدنيا والآخرة توفني مسلما وألحقني بالصالحين** ﴾ .

(٤) يوسف : ٤ .

(٥) أحاديث الأمم والكتب ودلائل التوحيد ، فهو إشارة إلى النبوة ، وهو المقصود بقوله : ﴿ **ويتم نعمته عليك** ﴾ أى .

﴿ **إبراهيم وإسحاق** ﴾ .

وفي نفس الوقت حذر يعقوب عليه السلام ابنه يوسف من أن يقص هذه الرؤيا على إخوته فيكيدوا له كيدا بإيعازٍ من الشيطان اللعين : ﴿ **إن الشيطان للإنسان عدو مبين** ﴾[1] .

﴿ **إن ربك عليم حكيم** ﴾[2] ، عليم بما يعطي العباد ، حكيم في فعله بهم . وفي يوم ما ، يجتمع إخوة يوسف ـــ ويقررون الخلاص منه : ﴿ **إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة إن أبانا لفي ضلال مبين . اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوما صالحين** ﴾[3] .

واجتمع إخوة يوسف ، وطرحوا قرارهم بضرورة قتل أخيهم يوسف أو إبعاده عن البلاد ، والسبب ـــ في تصورهم ـــ أن يوسف أحب إلى أبيهم منهم ، ووافق الإخوة على الجزء الأخير من القرار ، وقرروا إلقاء يوسف في بئر عسى أن يلتقطه بعض المسافرين فيصحبوه معهم بعيدا عن أرض الشام .

ولتنفيذ قرارهم تحايلوا على أبيهم ، ليسمح لهم باصطحاب أخيهم يوسف معهم ، ووافق الأب ، وخرج معهم يوسف ، فألقوه في الجب تنفيذا لقرارهم . وفي اللحظة التي

= بالنبوة . (الجامع لأحكام القرآن ، جـ ٩ ، ص ١٢٩ ؛ تفسير القرآن العظيم ، جـ ٢ ، ص ٤٦٩) وذلك يعني أن النبوة اختيار واصطفاء من الله لعبيده .

(١) يوسف : ٥ (٢) يوسف : ٦

(٣) التفكير في قتل الأخ لأنه أحب إلى أبيهم منهم ، هكذا يلبس الشيطان الأمر على أبناء يعقوب عليه السلام ، المأخوذ عليهم العهد من أبيهم : ﴿ **فلا تموتن إلّا وأنتم مسلمون** ﴾ ، والعجيب أنهم يدبرون القتل ، ثم يتصورون بعد ذلك أنهم سيكونون قوما صالحين ، إنّ الحسد قد حجب عن ضمائرهم بشاعة الجريمة التي يقدمون عليها ، ولقد وعى رسولنا محمد ﷺ أهمية هذا التوجيه ، فرأى توجيه أمته إلى ذلك ، ففي الصحيحين عن أبي موسى عن النبي ﷺ أنه سئل أى المسلمين أفضل ؟ قال : « من سلم المسلمون من لسانه ويده » ، وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ ، قال : « المسلم أخو المسلم ، فلا يظلمه ، ولا يخذله ، ولا يحقره ، بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم ، كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه » ، وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تحاسدوا ، ولا تناجشوا ، ولا تباغضوا ، ولا تدابروا ، ولا يَبِعْ بعضكم على بيع بعض ، وكونوا عباد الله إخواناً ، المسلم أخو المسلم ، لا يظلمه ولا يخذله ولا يكذبه ولا يحقره ، التقوى هاهنا ـــ ويشير إلى صدره ثلاث مرات ـــ بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم ، كل المسلم على المسلم حرام ، دمه وماله وعرضه » .

ألقي فيها يوسف في البئر نزل عليه جبريل ـــ عليه السلام ـــ ليؤنس وحشته :

﴿ **وأوحينا إليه لتنبئنهم**[1] **بأمرهم هذا وهم لا يشعرون** ﴾[2] .

إخوة يوسف يكذبون على أبيهم :

وفي المساء رجع إخوة يوسف إلى أبيهم ، وهم يتصنعون البكاء : ﴿ **قالوا يا أبانا إنا ذهبنا نستبق**[3] **وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين** ﴾[4] ، كما قدموا لأبيهم قميصا ليوسف عليه دم مكذوب .

ماذا يفعل الأب ؟ لقد كشف لهم عن فعلتهم ﴿ **بل سولت لكم أنفسكم أمرا** ﴾ ، ثم أعلن استسلامه لله رب العالمين : ﴿ **فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون** ﴾[5] .

إنقاذ يوسف عليه السلام ، وبيعه إلى عزيز مصر :

وشاءت إرادة الله أن تمر ، بالقرب من البئر التي ألقى فيها يوسف ، رفقة مارة يسيرون من الشام إلى مصر ، فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه : ﴿ **قال يا بشرى هذا غلام ، وأسروه بضاعة والله عليم بما يعملون** ﴾[6] .

وفي مصر ، ولقدر يعلمه الله عز وجل ، بيع يوسف عليه السلام : ﴿ **بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين** ﴾[7] .

---

(١) فرغم أن يوسف مبشر بالنجاة ، وبالتمكين إلا أنّه احتاج في محنته إلى التثبيت ، فنزل الوحي من السماء ليؤنس وحشته ويثبته .

(٢) يوسف : ١٥ ، الجامع لأحكام القرآن ، جـ ٩ ، ص ١٤٢ .

(٣) ذكر الإمام القرطبي رحمه الله : « أجمع المسلمون على أن السبق لا يجوز على وجه الرهان إلا في الخف والحافر والنصل ، قال الشافعي : ماعدا هذه الثلاث فالسبق فيها قمار » ، « وذكر القرطبي شروطا ثلاثة : أن المسافة لابد وأن تكون معلومة . الثاني : أن تكون الخيل متساوية الأحوال . الثالث : ألا يسابق المضمر مع غير المضمر في أمد واحد وغاية واحدة . والخيل التي يجب أن تضمر ويسابق عليها ، وتقام هذه السنة فيها هي الخيل المعدة لجهاد العدو لا لقتال المسلمين في الفتن » .

(٤) يوسف : ١٧ ، الجامع لأحكام القرآن ، جـ ٩ ، ص ١٤٦ . ولهذا حذّر رسول الله ﷺ من الكذب فقال : « إيّاكم والكذب فإنّ الكذب يهدى إلَى الفُجُور وإنّ الفجور يهدى إلى النار » .

(٥) يوسف : ١٨ . (٦) يوسف : ١٩ . (٧) يوسف : ٢٠ .

وشاء الله سبحانه وتعالى أن يخفِّف عن هذا الغلام ، الذى أجبر على فراق أهله وعشيرته ، وبلده ، فرزقه بمشتر مصرى كريم ، قال لزوجه : ﴿ **أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا** ﴾[1] . ﴿ **وكذلك مكنا ليوسف في الأرض** ﴾ والكلام هنا لرب العالمين ، لكي يعلم أبناء آدم أن الأمور لاتؤخذ بظواهرها .

فظاهر الأمر هو بلاء يقع بيوسف عليه السلام ، ومثل هذا البلاء يصيب الإنسان بالجَزَع ، ولكنه من وراء هذا البلاء كان التمكين ليوسف عليه السلام : ﴿ **ولنعلمه من تأويل الأحاديث والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون** ﴾[2] . إذن فالأمور لا يجب أن تؤخذ بظواهرها : ﴿ **فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا** ﴾[3] .

ولما بلغ يوسف الحلم ، أنعم الله عليه بنعمة العقل والفهم والنبوة : ﴿ **وآتيناه حكما وعلما وكذلك نجزى المحسنين** ﴾ يعني المؤمنين ، وقيل: الصابرين على النوائب كما صبر يوسف عليه السلام[4] .

يوسف عليه السلام ابتلى بامرأة العزيز :

في بيت عزيز مصر ، تعرض يوسف عليه السلام لابتلاء أشد قسوة ، وكَأنَّ الابتلاء هو الوسيلة الربانية لإعداد أصحاب الرسالات الضخمة : ﴿ **وراودته التي هو في بيتها**

---

(١) يوسف : ٢١ .

(٢) يوسف : ٢١ . وهكذا نرى نتيجة الكيد والتآمر ، لقد أرادوا السوء بأخيهم ، وبالتالي بأبيهم الذى كان يحب يوسف حبا جما ، نسوا أرحامهم ، نسوا أخوتهم ، نسوا ربهم وتصوروا أنه لا يعلم سرهم ونجواهم ، فكان ما كان .

(٣) وفي هذا تحذير للمتآمرين الكائدين من أبناء العرب والمسلمين الذين يكيدون للإسلام وللحق وأهله ، ويسيرون في ركاب المتآمرين من اليهود والنصارى والملحدين ، ونسوا أرحامهم ، ونسوا أوطانهم ، ونسوا إخوانهم ، إن الله من ورائهم محيط ، وسيبطل كيدهم وتدبيرهم طال الزمن أم قصر ، والتاريخ ينبئهم .

فقد حاول المتآمرون قتل محمد وصحبه : ﴿ **وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين** ﴾ الأنفال : ٣٠ ، كما حاول المتآمرون قتل صالح وأهله : ﴿ **وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون . قالوا تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله ثم لنقولن لوليه ما شهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون . ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون . فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين** ﴾ النمل : ٤٨ ـ ٥١ .

(٤) يوسف : ٣٢ ، الجامع لأحكام القرآن ، جـ ٩ ، ص ١٦٢ .

عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك ، قال معاذ الله إنه ربى أحسن مثواى إنه لا يفلح الظالمون . ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين ﴾ (١) .

وفي هذا توجيه للمؤمنين ، ألا يتعوذوا إلا بالله ، وألا يستجيروا إلا بالله ، وليدركوا أن الظلم عواقبه وخيمة .

ودخل عزيز مصر على زوجته وهي تحاول تحقيق رغبتها مع يوسف عليه السلام ، وحينذاك أسقط في يدها ، فحاولت أن تجد لنفسها مخرجا ، فما كان منها إلا أن قالت : ﴿ **ما جزاء من أراد بأهلك سوءا إلا أن يسجن أو عذاب أليم** ﴾(٢) .

وكان في الإمكان أن يستر يوسف عليه السلام على سيدته ، لولا تزيين الشيطان الأمر لها ، فَرَمته بهذه التهمة ، وهي الرغبة في اغتصاب عرضها ، وهي من هي ، إنها زوجة العزيز الذى أكرم وفادة يوسف عليه السلام ، وفي هذا ، لو وقع ، خيانة للأمانة ، أمانة عرض العزيز الذى أوصى زوجه : ﴿ **أكرمي مثواه** ﴾ فلم يكن هنالك بد من أن يدافع يوسف عليه السلام عن نفسه : ﴿ **قال هي راودتني عن نفسي وشهد شاهد من أهلها إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين . وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين . فلما رأى قميصه قد من دبر قال : إنه من كيدكن إن**

---

(١) يوسف : ٢٣ ــ ٢٤ ، وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « قالت الملائكة : رب ذاك عبدك يريد أن يعمل سيئة وهو أبصر بها فقال : ارقبوه فإن عملها فاكتبوها له بمثلها ، وإن تركها فاكتبوها له حسنة إنما تركها جرّاى » ، وفي الصحيح : « إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها ما لم تعمل أو تكلم به » الجامع لأحكام القرآن ، ج ٩ ، ص ١٦٨ ، ١٦٩ .

ذكر الإمام القرطبي رحمه الله : « أن ابن عطاء تكلم يوما على يوسُف وأخباره ، حتى ذكر تبرئته مما نسب إليه من مكروه ، فقام رجل من آخر مجلسه ، وهو مشحون بالخليقة من كل طائفة ، فقال : ياشيخ ! يا سيدنا ! فإذاً يوسف همّ وما تمّ ؟ قال : نعم ! لأن العناية من ثمّ » . ثم أورد القرطبي : « وإذا تقررت عصمته وبراءته بثناء الله تعالى عليه ، فلا يصح ماقاله مصعب بن عثمان : أن سليمان بن يسار كان من أحسن الناس وجها ، فاشتاقته امرأة فامتنع عليها وذكّرها ، فقالت : إن لم تفعل لأشهرنك ، فخرج وتركها فرأى في منامه يوسف الصديق ــ عليه السلام ــ جالسا فقال : أنت يوسف ؟ فقال : أنا يوسف الذى هممت ، وأنت سليمان الذى لم تهم ؟ فإن هذا يقتضى أن تكون درجة الولاية أرفع من درجة النبوة ، وهو محال » (الجامع لأحكام القرآن) ، ج ٩ ، ص ١٦٨ ــ ١٦٩ .

(٢) يوسف : ٢٥ .

كيدكن عظيم . يوسف أعرض عن هذا واستغفرى لذنبك إنك كنت من الخاطئين ﴾(١) .

وللجدران آذان ، وتناقل نسوة في المدينة الخبر : ﴿ **وقال نسوة في المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حبا إنا لنراها في ضلال مبين ﴾**(٢) .

والناس ما بين مبتلى ومعافى ، فكان من المفروض على النسوة أن يحمدن الله على العافية ، ويمسكن ألسنتهن عن الخوض في أعراض الآخرين ، ولكن الشيطان صدهم عن السبيل ، وبلغ الخبر امرأة العزيز فماذا فعلت ؟

﴿ **فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن وأعتدت لهن متكئا وآتت كل واحدة منهن سكينا وقالت اخرج عليهن فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن وقلن حاش لله ما هذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم . قالت فذلكن الذى لمتنني فيه ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكوناً من الصاغرين ﴾** (٣) .

وآثر يوسف عليه السلام السجن ، على الوقوع في المعصية : ﴿ **قال رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين . فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن إنه هو السميع العليم ﴾**(٤) .

يوسف عليه السلام يسجن ظلما :

﴿ **ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين ﴾** (٥) .

أى حينما ظهر للعزيز وأهل مشورته : ﴿ **من بعد ما رأوا الآيات ﴾** أى علامات براءة يوسف ، من قدّ القميص من دبر ، وشهادة الشاهد ، وحز الأيدى ، وقلة صبرهن على لقاء يوسف ، أن يسجنوه ، كتمانا للقصة ألا تشيع في العامة ، وللحيلولة بينه وبينها .

---

(١) يوسف : ٢٦ ــ ٢٩ .
ــ (٢) يوسف : ٣٠ .
(٣) يوسف : ٣١ ــ ٣٢ .
(٤) يوسف : ٣٣ ــ ٣٥ . لقد ابتلي يوسف عليه السلام وهو غريب في أرض الله ، ماذا يفعل ، لقد اتجه إلى ربه ، إلى إلهه ، الذى يسمع ويبصر ، والذى يجيب دعوة المضطر إذا دعاه ، فاستجاب له ، وصرف عنه الكيد الذى تعرض له من النسوة .
(٥) يوسف : ٣٥ .

يوسف عليه السلام يدعو إلى الإسلام :

﴿ ودخل معه السجن فتيان قال أحدهما إني أراني أعصر خمرا وقال الآخر إني أراني أحمل فوق رأسي خبزا تأكل الطير منه نبئنا بتأويله إنا نراك من المحسنين ﴾[1] .

هكذا يكون الداعية ، سمعة طيبة ، سلوكا طيبا ، قدوة وأسوة ، فنزلاء السجن لم يطلبوا التأويل من يوسف عليه السلام إلا حينما وثقوا به وأحبوه ، ورأوا فيه استقامة : ﴿ **إنا نراك من المحسنين** ﴾ .

﴿ قال لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما ذلكما مما علمني[2] ربي إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون . واتبعت ملة آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون ﴾[3] .

﴿ يا صاحبي السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار . ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾[4].

---

(١) يوسف : ٣٦ . يقول الإمام القرطبي : « أي أن يوسف لم يعبر لهم الرؤيا » « حتى دعاهما إلى الإسلام » ، ويبين لهما أن الله قد خصه بهذا العلم (بتأويل الرؤيا) لأنه ترك ملة قوم لا يؤمنون بالله ، يعني دين الملك » . (الجامع لأحكام القرآن ، ج ٩ ، ص ١٩٠ ، ١٩١) .

(٢) لهذا كان رسولنا محمد ﷺ يدعو : « اللهم إني أسألك علما نافعا ، وقلبا خاشعا » ، فالمصدر الذى يتلقى منه ويطلب منه العلم هو الله رب العالمين ، والعلم النافع هو الذى يربط الإنسان بربه وخالقه سبحانه وتعالى ، والذى لا يصل الإنسان بربه علم فاسد .

ويبدو هنا أيضا قضية أخرى على جانب كبير من الأهمية ، وهي مفاصلة الكفر وأهله : ﴿ **إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون** ﴾ ، فلا حب ولا مودّة ، وهذا مافعله يوسف عليه السلام ، فأنعم الله عليه بالعلم النافع .

(٣) يوسف : ٣٧ ــ ٣٨ .

(٤) يوسف : ٣٩ ــ ٤٠ ، وهنا تتجلى قضية التوحيد كما يعرضها يوسف عليه السلام واضحة ، تبين للناس أن الإله الواحد الصمد هو المستحق للعبادة ، وأن الإله القهار الذى له الحكم هو المستحق للعبادة .

وذلك يعني أن الذين يشرعون للناس من عند أنفسهم ، اعتبروا أندادا لله سبحانه وتعالى ، وهذا شرك بالله العظيم رب العالمين .

ويؤكد الرؤيا :

﴿ أما أحدكما فيسقى ربه خمرا ﴾ ، أى قال للساقي : إنَّك تُرَدُّ على عملك الذى كنت عليه من سقي الملك ، وقال للآخر : وأما أنت فتدعى إلى ثلاثة أيام فتصلب فتأكل الطير من رأسك ، قال : والله ما رأيت شيئا ، قال : رأيت أو لم تر : ﴿ قضي الأمر الذى فيه تستفتيان ﴾ (١) .

﴿ وقال للذى ظن أنه ناج منهما اذكرني عند ربك (٢) فأنساه الشيطان ذكر ربه فلبث في السجن بضع سنين ﴾ (٣).

ملك مصر يرى رؤيا :

﴿ وقال الملك إني أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات يا أيها الملأ أفتوني في رؤياى إن كنتم للرؤيا تعبرون ﴾ (٤).

﴿ قالوا أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين ﴾ (٥)

يوسف عليه السلام يفسر رؤيا ملك مصر :

﴿ وقال الذى نجا منهما وادّكر بعد أمة أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون . يوسف أيها الصديق أفتنا في سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات لعلي أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون . قال تزرعون سبع سنين دأبا (٦) فما حصدتم فذروه في سنبله (٧) إلا قليلا مما تأكلون (٨) . ثم يأتي من بعد ذلك سبع شداد (٩) يأكلن (١٠) ما قدمتم (١١) لهن إلّا قليلا مما تحصنون ﴾ (١٢) .

---

(١) يوسف : ٤١ ، الجامع لأحكام القرآن ، ج ٩ ص ١٩٣ .

(٢ ، ٣) يوسف : ٤٢ ، في صحيح مسلم وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يقل أحدكم : اسق ربك اطعم ربك وحيي ربك ، ولا يقل أحدكم ربّي وليقل : سيدي ، مولاي ، ولا يقل أحدكم : عبدى أمتي ، وليقل : فتاى غلامي » . الجامع لأحكام القرآن ج ٩ ، ص ١٦٤ .

(٤) يوسف : ٤٣ . (٥) يوسف : ٤٤ . (٦) متوالية متتابعة . (٧) لئلا يتسوس ، وليكون أبقى .

(٨) أى استخرجوا ما تحتاجون إليه بقدر الحاجة . (٩) يعني السنين المجدبات .

(١٠) مجاز ، والمعنى يأكلهن كلهن . (١١) أى ماادخرتم لأجلهن .

(١٢) هكذا أيها الصديق ، فإنك قد أولت رؤياي وقد وفقت بحمد الله إنني لم أجرب الكذب عليك ، وهكذا يجب أن يكون أصحاب الدعوات صديقين ، إسلاما يتحرك على الأرض لأن البشرية التائهة لن تقتنع بهذا الدين إلا إذا رأته واقعا حيا على الأرض .

﴿ ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون ﴾ [1] .

وهنا لابد من وقفة لبيان الدرس المستفاد :

الملك يرى رؤيا : ﴿ **وقال الملك إني أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات** ﴾ وطلب المشورة من الملأ : ﴿ **يا أيها الملأ أفتوني في رؤياى إن كنتم للرؤيا تعبرون** ﴾ .

وجاء الرد عن الملأ ، المفروض أنّهم أفضل الأمة على الإطلاق : ﴿ **قالوا أضغاث أحلام** ﴾ ، وهو ردّ ينبئ عن جهل فاضح .

وهذا يظهر كيف يجرى الله سبحانه وتعالى أقداره ، فكل شيء مقدر ، ويجرى وفقا لسننه وتدبيره .

فإذا بساقي الملك الذى كان في السجن ، وبشره يوسف عليه السلام بخروجه ، وتوليه لهذه الوظيفة ، يتذكر ، يتذكر من ؟ يوسف الصديق الذى يؤول الرؤى .

لقد ذهب إليه ، وقال له : ﴿ **يوسف أيها الصديق أفتنا** ﴾ هذا هو سمته ، هذه هى صفته : أيها الصديق ، وهكذا يجب أن يكون الداعية إلى دين الله عز وجل : ﴿ **ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين** ﴾ . وقص عليه الرؤيا وطلب التعبير .

ماذا فعل يوسف عليه السلام ؟ هل قال له : « أيها الساقي هل تذكر أنني طلبت منك أن تذكر مشكلتي عند الملك ، ولكنك نسيتني ولم تفعل ؟ هل قال : لن أفسر لك الرؤيا حتى تشترط خروجي من السجن ؟ لم يحدث شيء من هذا أبدا ، لقد فسر له الرؤيا ، ليس هذا فحسب ، ولكنه وضع للأمة ... للدولة ، خطة خمس عشرية : ﴿ **تزرعون سبع سنين دأبا فما حصدتم فذروه في سنبله إلا قليلا مما تأكلون . ثم يأتى من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدمتم لهن إلا قليلا مما تحصنون . ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون** ﴾ . هذه الخطة تقوم على تنمية الموارد طيلة السبع سنوات ، مع الادخار وعدم الإسراف والتبذير .. اقتناص فرصة الرخاء والادخار لأيام الشدة ، لأن الأيام دول .. ولا يدرى الإنسان ما يخبئه الغد .. ثم تقوم على ترشيد الاستهلاك طيلة سنوات

---

(١) يوسف : ٤٩ ، هذا خبر من يوسف عليه السلام عما لم يكن في علم البشر ، ولكنه من علم الغيب الذى آتاه الله (الجامع لأحكام القرآن ج ٩ ، ص ٢٠٤) .

القحط ، وأيضا يوضع في الاعتبار ، أثناء الاستهلاك عدم الإتيان على المدخر .

وقد أضاف يوسف عليه السلام ، بشارة لم تكن في رؤيا الملك ، وهي أنه سيأتي في أعقاب الأربعة عشر عاما : ﴿ **عام فيه يغاث الناس ، وفيه يعصرون** ﴾ .

لقد قدم يوسف عليه السلام تفسيرا لرؤيا الملك ، ووضع له خطة لإنقاذ البلاد مما قد يتهددها ، بلا مقابل من متاع الدنيا ، لأنه يريد الأجر والثواب من الله . وهنا يظهر أهمية الإخلاص في القول والعمل ، وهكذا يجب أن يكون المسلم ، إنه سمو في الهدف ، في الغاية ، وهكذا يجب أن يكون المسلم .

الملك يأمر بإخراج يوسف من السجن ، ولكن يوسف عليه السلام يشترط !!!

﴿ **وقال الملك ائتوني به فلما جاءه الرسول قال ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن إن ربي بكيدهن عليم** ﴾[1] .

ظهور براءة يوسف عليه السلام :

﴿ **قال ماخطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين** ﴾[2] .

---

(١) يوسف : ٥٠ .

(٢) يوسف : ٥١ ، وروى الترمذي عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ـــ قال ـــ ولو لبثت في السجن ما لبث ، ثم جاءني الرسول أجبت ـــ ثم قرأ ـــ : ﴿ **فلما جاءه الرسول قال ارجع إلى ربك ، فاسأله مابال النسوة اللاتي قطعن أيديهن** ﴾ ـــ قال ـــ ورحمة الله على لوط لقد كان يأوى إلى ركن شديد إذ قال : ﴿ **لو أن لى بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد** ﴾ فما بعث من بعده نبيا إلّا في ذروة من قومه » . وروى البخارى عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « يرحم الله لوطا لقد كان يأوى إلى ركن شديد ، ولو لبثت في السجن مالبث يوسف لأجبت الداعي ، ونحن أحق من إبراهيم إذ قال له ﴿ **أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى** ﴾ » وروى عن النبى ﷺ أنه قال : « يرحم الله أخي يوسف ، لقد كان صابرا حليما ، ولو لبثت في السجن مالبثه أجبت الداعي ، ولم ألتمس العذر » . وروى نحو هذا الحديث من طريق عبد الرحمن بن القاسم صاحب مالك ، في كتاب التفسير من صحيح البخاري ، وليس لابن القاسم في الديوان غيره . وفي رواية الطبرى : « يرحم الله يوسف ، لو كنت أنا المحبوس ثم أرسل إليّ لخرجت سريعا ، إن كان لحليما ذا أناة » . وقال ﷺ : « لقد عجبت من يوسف وصبره وكرمه ، والله يغفر له حين سأله عن البقرات : لو كنت مكانه لما أخبرتهم حتى أشترط أن يخرجوني ، ولقد عجبت منه حين أتاه الرسول ، ولو كنت مكانه لبادرتهم الباب » . قال ابن عطية : كان هذا الفعل من يوسف عليه السلام أناة =

﴿ ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب وأن الله لا يهدى كيد الخائنين . وما أبرىء نفسي إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي إن ربي غفور رحيم ﴾[1] .

لقد صدر الأمر من الملك ، ويبدو أنه كان صاحب فطرة سليمة : ﴿ ائتوني به ﴾ . لقد أدرك الفارق بين بطانة السوء الذين قالوا له : ﴿ أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين ﴾ ، وبين بطانة الصدق التي لا تفتي إلا عن علم ، ولذلك طلب إحضاره في التو واللحظة .

وهنا يظهر أهمية البطانة الصالحة للحاكم ، هنا تظهر بطانة العلماء ، وليست البطانة التي تدعي العلم ، وهي لا تعلم ، فتفتي بغير علم ، فتضيع الأمة وتضيع نفسها في الدنيا والآخرة .

ماذا فعل يوسف عليه السلام ؟ هل هرول إلى حضرة الملك مطلقا ، لقد كان حريصا على إظهار براءته مما نسب إليه : ﴿ فلما جاءه الرسول قال ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن إنّ ربي بكيدهن عليم ﴾ .

لقد كان حريصا على إظهار نظافة ذيله وعفته ، وأمانته ، أمانته على عرض سيده الذى أكرم مثواه ، وإمساك لسانه عن الخوض في أعراض النساء اللائي قطعن أيديهن .

= وصبرا ، وطلبالبراءة الساحة ، وذلك أنه — فيما روى — خشي أن يخرج وينال من الملك مرتبة ويسكت عن أمر ذنبه صفحا فيراه الناس بتلك العين أبدا ويقولون : هذا الذى راود امرأة مولاه . فأراد يوسف عليه السلام أن يبين براءته ، ويحقق منزلته من العفة والخير ، وحينئذ يخرج للإحظاء والمنزلة . فلهذا قال للرسول : ارجع إلى ربك وقل له : مابال النسوة ؟ ومقصد يوسف عليه السلام إنّما كان :

وقل له يستقصي عن ذنبي ، وينظر في أمري ، هل سجنت بحق أو بظلم ؟ ونكب عن امرأة العزيز حسن عشرة ورعاية لذمام الملك العزيز له . فإن قيل : كيف مدح النبي ﷺ يوسف بالصبر والأناة وترك المبادرة إلى الخروج ، ثم هو يذهب بنفسه عن حالة قد مدح بها غيره ؟؟ فالوجه في ذلك أن النبي ﷺ إنما أخذ لنفسه وجها آخر من الرأى ، له جهة أيضا من الجودة ، يقول : لو كنت أنا لبادرت بالخروج ، ثم حاولت بيان عذرى بعد ذلك وذلك أن هذه القصص والنوازل هي معترضة لأن يقتدى الناس بها إلى يوم القيامة ، فأراد الرسول ﷺ حمل الناس على الأحزم من الأمور ، وذلك أن ترك الحزم في مثل هذه النازلة ، التارك فرصة الخروج من مثل ذلك السجن ، ربما نتج له البقاء في سجنه ، وانصرفت نفس مخرجه عنه ، وإن كان يوسف عليه السلام أمن من ذلك بعلمه من الله ، فغيره من الناس لا يأمن ذلك ، فالحالة التى ذهب النبي ﷺ بنفسه إليها حالة حزم، وما فعله يوسف عليه السلام صبر عظيم وجلد » . الجامع لأحكام القرآن ، ج ٩ ، ص ٢٠٦ — ٢٠٧ .

(١) يوسف : ٥٣ .

واستجاب الملك ، وحقق في القضية ، وكانت الأمانة قول الحق ولو على النفس : ﴿ **قال ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء** ﴾ . كلمة الحق ... الشهادة لله عز وجل حسن الخلق ، والصدق مع الله ومع النفس ومع الآخرين .

وهنا تبدو امرأة العزيز ، قمة في الخلق : ﴿ **الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين . ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب وأن الله لا يهدى كيد الخائنين . وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي إن ربي غفور رحيم** ﴾ . وهنا يبدو موقف امرأة العزيز قمة في الخلق ، قول كلمة الحق والاعتراف بالخطأ ، ونسبة كل ذلك إلى النفس الأمارة بالسوء ، ثم التوبة ، واليقين بأن الله غفور رحيم .

وهذا توجيه لمن يسقطون أو يخطئون أو يأثمون ، إن باب التوبة مفتوح ، والله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر .

ومن هنا يجب التنبيه على الذين يتحدثون في سيرة يوسف عليه السلام أن لا يتعدو اللفظ القرآني في التعبير عن تصرف امرأة العزيز : ﴿ **وراودته التي هو في بيتها عن نفسه** ﴾ وليحذروا الشماتة ، وليحذروا الاستفاضة في الشرح ، وليحذروا منها النساء ، لأن الناس ما بين مبتلى ومعافى فليحمدوا الله على العافية .

الملك يقلد يوسف أمانة قيادة الدولة فيستوزره :

﴿ **وقال الملك ائتوني به أستخلصه لنفسي فلما كلمه قال إنك اليوم لدينا مكين أمين** [1] . **قال اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم** ﴾[2] .

---

(١) يوسف : ٥٤ ، أى لما ثبت للملك براءته مما نسب إليه وتحقق في القضية أمانته ، وفهم أيضا صبره وجلده عظمت منزلته عنده ، وتيقن حسن خلاله قال : ﴿ **ائتوني به أستخلصه لنفسي** ﴾ (الجامع لأحكام القرآن ، ج ٩ ، ص ٢١٠) .

(٢) يوسف : ٥٥ ، أى حفيظ لما وليت ، عليم بأمره . وقد ذهب القرطبي في تفسيره إلى استخلاص بعض الأحكام الفقهية ، منها : جواز أن يخطب الإنسان عملا يكون له أهلا ، فإن قيل : فقد روى مسلم عن عبد الرحمن بن سمرة قال : قال لي رسول الله ﷺ : « ياعبد الرحمن ، لا تسأل الإمارة فإنك إن أعطيتها عن مسألة وُكِلت إليها ، وإن أعطيتها عن غير مسألة أُعِنتَ عليها » . وعن أبي برذة قال : قال أبو موسى : « أقبلت إلى النبي ﷺ ومعى =

وهنا تأكد لملك مصر أن يوسف عليه السلام كان أمينا على عرض امرأة العزيز الذى آواه في منزله وأوصى به خيرا ، ومن كان أمينا على العرض كان أمينا على المال ، كان أمينا على كل شيء ، وأمثال هؤلاء يجب أن يتولوا أمر المسلمين .

ولأمانته ، وصدقه ، وعفته وطهارته ، قال الملك : ﴿ **ائتوني به أستخلصه لنفسي فلما كلمه قال إنك اليوم لدينا مكين أمين** ﴾ .

أى ممكن مؤتمن ، فمثلك يُمَكَّنُ له ويؤتمن ، ﴿ **قال اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم** ﴾ .

= رجلان من الأشعريين ، أحدهما عن يميني والآخر عن يساري ، فكلاهما سأل العمل ، والنبي ﷺ يستاك ، فقال : « ما تقول ياأبا موسى — أو ياعبد الله بن قيس — » قال : قال : والذى بعثك بالحق ما أطلعانى على ما في أنفسهما ، وما شعرت أنهما يطلبان العمل ، قال : وكأني أنظر إلى سواكه تحت شفته وقد قلصت ، فقال : « لن — أو — لا نستعمل على عملنا من أراده » وذكر الحديث ، أخرجه مسلم وغيره .

فالجواب :

أولا : أن يوسف عليه السلام إنّما طلب الولاية لأنه علم أنه لا أحد يقوم مقامه في العدل والإصلاح وتوصيل الفقراء إلى حقوقهم ، فرأى أن ذلك فرض متعين عليه ، فإنه لم يكن هناك غيره ، وهكذا الحكم اليوم ، لو علم إنسان من نفسه أنه يقوم بالحق في القضاء أو الحسبة ولم يكن هناك من يصلح ولا يقوم مقامه لتعين ذلك عليه ، ووجب أن يتولاها ويسأل ذلك ، ويخبر بصفاته التي يستحقها به من العلم والكفاية وغير ذلك ، كما قال يوسف عليه السلام ، فأما لو كان هناك من يقوم بها ويصلح لها وعلم بذلك فالأولى ألا يطلب ، لقوله ﷺ لعبد الرحمن : « لا تسأل الإمارة » . وأيضا فإن في سؤالها والحرص عليها مع العلم بكثرة آفاتها وصعوبة التخلص منها دليل على أنه يطلبها لنفسه وأغراضه ، ومن كان هكذا يوشك أن تتغلب عليه نفسه فيهلك . وهذا معنى قوله عليه السلام : « وكل إليها » ، ومن أباها لعلمه بآفاتها ، ولخوفه من التقصير في حقوقها فرّ منها ، ثم إن ابتلى بها فيرجى له التخلص منها . وهو معنى قوله : « أعين عليها » .

ثانيا : أنه لم يقل : إني حسيب كريم ، وإن كان كما قال النبي ﷺ : « الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم » ولا قال : إني جميل مليح ، إنّما قال : ﴿ **إني حفيظ عليم** ﴾ فسألها بالحفظ والعلم ، لا بالنسب والجمال .

ثالثا : إنما قال ذلك عند من لا يعرفه فأراد تعريف نفسه ، وصار ذلك مستثنى من قوله تعالى : ﴿ **فلا تزكوا أنفسكم** ﴾ .

رابعا : أنه رأى أن ذلك فرض متعين عليه ، لأنه لم يكن هنالك غيره ، وهو الأظهر ، والله الأعلم .

ودلت الآية أيضا على أنه يجوز للإنسان أن يصف نفسه بما فيه من علم وفضل . قال الماوردى : وليس هذا على الإطلاق في عموم الصفات ، ولكنه مخصوص فيما اقترن بوصله ، أو تعلق بظاهر من مكسب ، وممنوع منه فيما سواه ، لما فيه من تزكية ومراءاة ، ولو ميزه الفاضل عنه لكان أليق بفضله ، فإن يوسف دعته الضرورة إليه لما سبق من حاله ، ولما يرجو من الظفر بأهله . الجامع لأحكام القرآن ، ج ٩ ، ص ٢١٥ — ٢١٧ .

هذه هي صفات الأمناء ، صفات المستشارين ، صفات أهل الحل والعقد ، صفات البطانة الصالحة :

الأمانة ، الحفظ ، العلم ، الصدق ، وما ضيعت الأمة الإسلامية اليوم إلا بسبب غياب الأمناء والحفاظ والعلماء والصديقين عن موقع القيادة فيها .

التمكين ليوسف عليه السلام في الأرض :

﴿ وكذلك مكنا ليوسف في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين . ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾(١) .

يوسف عليه السلام يستثمر تمكين الله له على أرض مصر في الدعوة إلى الإسلام :

ولما فوض المَلِكُ أمر مصر إلى يوسف عليه السلام تلطف بالناس ، وجعل يدعوهم إلى الإسلام حتى آمنوا به ، وأقام فيهم العدل ، فأحبه الرجال والنساء ، ثم دخلت السنون المخصبة ، فأمر يوسف بإصلاح المزارع ، وأمرهم أن يتوسعوا في الزراعة ، فلما أدركت الغلة أمر بها فجمعت ، ثم بنى لها الأهراء ، فجمعت فيها في تلك السنة غلة ضاقت عنها المخازن لكثرتها ، ثم جمع عليه غلة كل سنة كذلك ، حتى انقضت السبع المخصبة وجاءت السنون المجدبة . وللجوع والقحط علامتان :

إحداهما : أن النفس تحب الطعام أكثر من العادة ، ويسرع إليها الجوع خلاف ما كانت عليه قبل ذلك ، وتأخذ من الطعام فوق الكفاية .

والثانية : أن يفقد الطعام فلا يوجد رأسا ويعز إلى الغاية(٢) .

ويروى أن يوسف عليه السلام كان لا يشبع من طعام في تلك السنين ، فقيل له : أتجوع وبيدك خزائن الأرض ؟ فقال : إني أخاف إن شبعت أن أنسى الجائع(٣) .

---

(١) يوسف : ٥٦ ، ٥٧ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن ، جـ ٩ ، ص ٢١٨ .

(٣) الجامع لأحكام القرآن ، جـ ٩ ، ص ٢١٩ .

القحط يصيب بلاد الشام ــ أهل الشام (ومنهم إخوة يوسف) يمتارون من مصر :

﴿ وجاء إخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون[1] . ولما جهزهم بجهازهم قال ائتوني بأخ لكم من أبيكم ألا ترون أني أوفي الكيل وأنا خير المنزلين . فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندى ولا تقربون . قالوا سنراود عنه أباه وإنا لفاعلون ﴾[2] .

﴿ وقال لفتيانه اجعلوا بضاعتهم في رحالهم لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم لعلهم يرجعون ﴾[3] .

﴿ فلما رجعوا إلى أبيهم قالوا يا أبانا منع منا الكيل فأرسل معنا أخانا نكتل وإنا له لحافظون . قال هل آمنكم عليه إلاّ كما أمنتكم على أخيه من قبل فالله خير حافظا وهو أرحم الراحمين . ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت إليهم قالوا يا أبانا ما نبغي هذه بضاعتنا ردت إلينا ونمير أهلنا ونحفظ أخانا ونزداد كيل بعير ذلك كيل يسير ﴾[4] .

﴿ قال لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقا من الله لتأتنني به إلا أن يحاط بكم فلما آتوه موثقهم قال الله على ما نقول وكيل ﴾[5] .

﴿ وقال يا بني لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة وما أغني عنكم من الله من شيء إن الحكم إلا لله عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون ﴾[6] .

---

(١) يوسف : ٥٨ ، أى لما أصاب الناس القحط والشدة ، ونزل ذلك بأرض كنعان بعث يعقوب عليه السلام ولده للميرة ، وذاع أمر يوسف عليه السلام في الآفاق ، للينه وقربه ورحمته ورأفته وعدله وسيرته . (الجامع لأحكام القرآن ، جـ ٩ ، ص ٢٢٠) .

(٢) يوسف : ٥٩ ــ ٦١ .

(٣) يوسف : ٦٢ ، بضاعتهم : أثمان ما اشتروه من الطعام .

(٤) يوسف : ٦٣ ــ ٦٥ .

(٥) يوسف : ٦٦ .

(٦) يوسف : ٦٧ ، وقد علق الإمام القرطبى في شرح معنى هذه الآية : « إذا كان هذا معنى الآية فيكون فيها دليل على التحرز من العين ، والعين حق ، وقد قال رسول الله ﷺ : « إن العين لتدخل الرجل القبر والجمل القدر » . وفى تعوذه عليه السلام : « أعوذ بكلمات الله التامات من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامة » . ما يدل على ذلك . وروى مالك عن محمد بن أبي أمامة بن سهل بن حنيف أنه سمع أباه يقول : اغتسل أبي سهل بن حنيف بالخرار ، فنزع جبة كانت عليه ، وعامر بن ربيعة ينظر ، قال : وكان سهل رجلا أبيض حسن الجلد ، قال : فقال : له عامر =

= بن ربيعة : ما رأيت كاليوم ولا جلد عذراء ، فوعك سهل مكانه واشتد وعكه ، فأتى رسول الله ﷺ فأخبر أن سهلا وعك ، وأنه غير رائح معك يا رسول الله ، فأتاه رسول الله ﷺ فأخبره سهل بالذى كان من شأن عامر ، فقال رسول الله ﷺ : « علام يقتل أحدكم أخاه ، ألا برّكت ، إن العين حق ، توضأ له » . فتوضأ عامر ، فراح سهل مع رسول الله ﷺ ليس به بأس . وفى رواية « اغتسل » فغسل له عامر وجهه ويديه ومرفقيه وركبتيه وأطراف رجليه وداخل إزاره في قدح ، ثم صب عليه ، فراح سهل مع رسول الله ﷺ ليس به بأس . وركب سعد بن أبي وقاص يوما فنظرت إليه امرأة ، فقالت : إن أميركم هذا ليعلم أنه أهضم الكشحين ، فرجع إلى منزله فسقط ، فبلغه ما قالت المرأة ، فأرسل إليها فغسلت له . ففي هذين الحديثين أن العين حق ، وأنها تقتل كما قال النبي ﷺ وهذا قول علماء الأمة ، ومذهب أهل السنة ، وقد أنكرته طوائف من المبتدعة ، وهم محجوجون بالسنة ، وإجماع علماء هذه الأمة ، ومما يشاهد من ذلك في الوجود ، فكم من رجل أدخلته العين القبر ، وكم من جمل ظهير أدخلته القدر ، لكن ذلك بمشيئة الله تعالى كما قال : ﴿ **وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله** ﴾ قال الأصمعي : رأيت رجلا عيونا سمع بقرة تحلب فأعجبه شخبها فقال : أيتهن هذه ؟ فقالوا : الفلانية لبقرة أخرى يورون عنها ، فهلكتا جميعا ، الموارى بها والموارى عنها ، قال الأصمعي : وسمعته يقول : إذا رأيت الشيء يعجبني وجدت حرارة تخرج من عيني .

* واجب على كل مسلم أعجبه شيء أن يبرك ، فإنه إذا دعا بالبركة صرف المحذور لا محالة ، ألا ترى قوله عليه السلام لعامر ، « ألا برّكت » فدل على أن العين لا تضر ولا تعدو إذا برّك العائن وأنها إنما تعدو إذا لم يبرّك . والتبريك أن يقول : تبارك الله أحسن الخالقين ، اللهم بارك فيه .

* العائن إذا أصاب بعينه ولم يبرّك فإنه يؤمر بالاغتسال ، ويجبر على ذلك إن أباه ، لأن الأمر على الوجوب ، لا سيما هذا ، فإنه يخاف على المَعِينْ الهلاك ، ولا ينبغي لأحد أن يمنع أخاه ما ينتفع به أخوه ولا يضره هو ، ولا سيما إذا كان بسببه وكان الجاني عليه .

* من عرف بالإصابة بالعين منع من مداخلة الناس دفعا لضرره ، وقد قال بعض العلماء : يأمره الإمام بلزوم بيته ، وإن كان فقيرا رزقه ما يقوم به ، ويكف أذاه عن الناس . وقد قيل : إنه ينفى ، وحديث مالك الذى ذكرناه يرد هذه الأقوال ، فإنه عليه السلام لم يأمر في عامر بحبس ولا بنفي ، بل قد يكون الرجل الصالح عائنا ، وأنه لا يقدح فيه ولا يفسق به ، ومن قال : يحبس ويؤمر بلزوم بيته . فذلك احتياط ودفع ضرر ، والله أعلم .

* روى مالك عن حميد بن قيس المكي أنه قال : دخل على رسول الله ﷺ بابنى جعفر بن أبي طالب فقال لحاضنتهما : « ما لي أراهما ضارعين ؟ » فقالت حاضنتهما : يارسول الله ، إنه تسرع إليهما العين ، ولم يمنعنا أن نسترقي لهما إلا أنا لا ندرى ما يوافقك من ذلك ؟ فقال رسول الله ﷺ : « استرقوا لهما ، فإنه لو سبق شيء القدر سبقته العين » . وهذا حديث منقطع ، ولكنه محفوظ لأسماء بنت عميس الخثعمية عن النبي ﷺ من وجوه ثابتة متصلة صحاح ، **وفيه أن الرقى مما يُستَدفع به البلاء ، وأن العين تؤثر في الإنسان وتضرعه ، أى تضعفه وتنحله ،** وذلك بقضاء الله تعالى وقدره . ويقال : إن العين أسرع إلى الصغار منها إلى الكبار ، والله أعلم .

* أمر ﷺ في حديث أبي أمامة العائن بالاغتسال للمعين ، وأمر هنا بالاسترقاء . قال علماؤنا : إنما يسترق من العين إذا لم يعرف العائن ، وأما إذا عرف الذى أصابه بعينه فإنه يؤمر بالوضوء على حديث أبي أمامة ، والله أعلم .
(الجامع لأحكام القرآن ، جـ ٩ ، ص ٢٢٦ ـــ ٢٢٨) .

﴿ ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم [١] ما كان يغني عنهم من الله من شيء إلا حاجة في نفس يعقوب قضاها وإنه لذو علم لما علمناه ولكن أكثر الناس لا يعلمون [٢] . ولما دخلوا على يوسف آوى إليه أخاه قال إنّي أنا أخوك فلا تبتئس بما كانوا يعملون . فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية في رحل أخيه ثم أذن مؤذن أيتها العير إنّكم لسارقون ﴾[٣] .

﴿ قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض وما كنا سارقين . قالوا فما جزاؤه إن كنتم كاذبين . قالوا جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه [٤] كذلك نجزى الظالمين ﴾[٥] .

﴿ فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ثم استخرجها من وعاء أخيه كذلك كدنا ليوسف ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك [٦] إلا أن يشاء الله نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذى علم عليم ﴾ [٧] .

﴿ قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل فأسرها يوسف في نفسه ولم يبدها لهم قال أنتم شر مكانا والله أعلم بما تصفون . قالوا يا أيها العزيز إن له أبا شيخا كبيرا فخذ أحدنا مكانه إنا نراك من المحسنين . قال معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده ، إنا إذا لظالمون ﴾ [٨] .

﴿ فلما استيئسوا منه خلصوا نجيا قال كبيرهم ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقا من الله ومن قبل ما فرطتم في يوسف فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي أبي أو يحكم الله لى وهو خير الحاكمين . ارجعوا إلى أبيكم فقولوا يا أبانا إن ابنك سرق وما شهدنا إلا بما

---

(١) أمرهم أبوهم : أى من أبواب شتى .

(٢) ودلت هذه الآية على أن المسلم يجب عليه أن يحذّر أخاه مما يخاف عليه ، ويرشده إلى ما فيه طريق السلامة والنجاة ، فإن الدين النصيحة ، والمسلم أخو المسلم ، الجامع لأحكام القرآن ، جـ ٩ ، ص ٢٢٩ .

(٣) يوسف : ٦٨ ــ ٧٠ .

(٤) أى يستعبد ويسترق .

(٥) يوسف : ٧٣ ــ ٧٥ .

(٦) يقول القرطبي : « وفيه جواز التوصل إلى الأغراض بالحيل إذا لم تخالف شريعة ، ولا هدمت أصلا ، خلافا لأبي حنيفة في تجويزه الحيل وإن خالفت الأصول ، وخرمت التحليل » ، (الجامع لأحكام القرآن ، جـ ٩ ، ص ٢٣٦) .

(٧) كان حكم الملك الضرب والغرم ضعفين . (يوسف : ٧٦) .

(٨) يوسف : ٧٧ ــ ٧٩ .

علمنا وما كنا للغيب حافظين . واسأل القرية [1] التي كنا فيها والعير التي أقبلنا فيها وإنا لصادقون ﴾ [2] .

﴿ قال بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل عسى الله أن يأتيني بهم جميعا إنه هو العليم الحكيم . وتولى عنهم وقال ياأسفى على يوسف وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم . قالوا تالله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرضا أو تكون من الهالكين . قال إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله وأعلم من الله مالا تعلمون ﴾ [3] .

إخوة يوسف للمرة الثالثة في مصر :

﴿ يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله إنه لا ييأس [4] من روح الله إلا القوم الكافرون . فلما دخلوا عليه قالوا يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر [5] .

---

(١) يريدون بالقرية مصر ، في هذه الآية من الفقه ، أن كل من كان على حق ، وعلم أنه قد يظن به أنه على خلاف ما هو عليه أو يتوهم ، أن يرفع التهمة وكل ريبة عن نفسه ، ويصرح بالحق الذى هو عليه ، حتى لا يبق لأحد متكلم . وقد فعل هذا نبينا محمد ﷺ بقوله للرجلين اللذين مرّا وهو قد خرج مع صفية يقلبها (يردها) من المسجد : « على رسلكما ، إنَّما هي صفية بنت حيي » فقالا : سبحان الله ، وكَبُر عليهما ، فقال النبي ﷺ : « إنَّ الشيطان يبلغ من الإنسان مبلغ الدم ، وإنِّي خشيت أن يقذف في قلوبكما شيئا » . رواه البخارى ومسلم . (الجامع لأحكام القرآن ، جـ ٩ ، ص ٢٤٦) .

(٢) يوسف : ٨٠ ــ ٨٢ .

(٣) يوسف : ٨٣ ــ ٨٦ . يقول الإمام القرطبي رحمه الله تعالى : « الواجب على كل مسلم إذا أصيب بمكروه في نفسه أو ماله أن يتلقى بالصبر الجميل ، والرضا والتسليم لمجريه عليه وهو العليم الحكيم ، ويقتدى بنبي الله يعقوب وسائر النبيين ، صلوات الله عليهم أجمعين . وقال سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن الحسن قال : مامن جرعتين يتجرعهما العبد أحب إلى الله من جرعة مصيبة يتجرعها العبد بحسن صبر وحسن عزاء ، وجرعة غيظ يتجرعها العبد بحلم وعفو . وقال ابن جريج عن مجاهد في قوله تعالى : ﴿ فصبر جميل ﴾ أى لا أشكو ذلك إلى أحد . وروى مقاتل بن سليمان عن عطاء بن أبي رباح عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال : « من بثّ لم يصبر » . وقد تقدم في البقرة أن الصبر عند أول الصدمة ، وثواب من ذكر مصيبته واسترجع وإن تقادم عهدها . وقال جويبر عن الضحاك عن ابن عباس قال : إن يعقوب أعطي على يوسف أجر مائة شهيد ، وكذلك من احتسب من هذه الأمة في مصيبته فله مثل أجر يعقوب عليه السلام .

(٤) أى أن المؤمن يرجو فرج الله ، والكافر يقنط في الشدة .

(٥) أى الجوع والحاجة ، وفي هذا دليل على جواز الشكوى عند الضر ، أى الجوع ، بل واجب عليه إذا خاف على نفسه الضر من الفقر وغيره ، أن يبدى حالته إلى من يرجو منه النفع ، كما هو واجب عليه أن يشكو ما به من الألم =

وجئنا ببضاعة مزجاة [1] فأوف لنا الكيل وتصدق علينا إن الله يجزى المتصدقين ﴾ [2] .

﴿ هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون . قالوا أإنك لأنت يوسف قال أنا يوسف وهذا أخي قد من الله علينا إنه من يتق الله ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين . قالوا تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين . قال لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين . اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأت بصيرا وأتوني بأهلكم أجمعين ﴾[3] .

﴿ ولما فصلت العير قال أبوهم إني لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون . قالوا تالله إنك لفي ضلالك القديم . فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيرا قال ألم أقل لكم إني أعلم من الله ما لا تعلمون . قالوا يا أبانا استغفر [4] لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين . قال سوف أستغفر لكم ربي إنه هو الغفور الرحيم . فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين ﴾ [5] .

﴿ ورفع أبويه على العرش وخروا له سجدا [6] وقال يا أبت هذا تأويل رؤياى

= إلى الطبيب ليعالجه ، ولا يكون ذلك قدحا في التوكل ، وهذا ما لم يكن التشكي على سبيل التسخط ، والصبر والتجلد في النوائب والتعفف عن المسألة أفضل ، وأحسن الكلام في الشكوى سؤال المولى . الجامع لأحكام القرآن ، جـ ٩ ، ص ٢٥٢) .

(١) المزجاة : الناقصة غير التامة . (٢) يوسف : ٨٧ ــ ٨٨ . (٣) يوسف : ٨٩ ــ ٩٣ .

(٤) « وإنما سألوه المغفرة ، لأنهم أدخلوا عليه من ألم الحزن مالم يسقط المأثم عنه إلَّا بإحلاله .

وهذا الحكم ثابت فيمن آذى مسلما في نفسه أو ماله أو غير ذلك ظالما له ، فإنه يجب عليه أن يتحلل له ويخبره بالمظلمة وقدرها ، وهل ينفعه التحليل المطلق أم لا ؟ فيه خلاف ، والصحيح أنه لا ينفع ، فإنه لو أخبره بمظلمة لها قدر وبال ربما لم تطب نفس المظلوم في التحلل منها . والله أعلم . وفي صحيح البخارى وغيره عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « من كانت له مظلمة لأخيه من عرضه أو شيء فليحلله منه اليوم قبل ألا يكون دينار ولا درهم ، إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته وإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه » الجامع لأحكام القرآن ، جـ ٩ ، ص ٢٦٢ .

(٥) يوسف : ٨٩ ــ ٩٩ فصلت العير : أى خرجت منطلقة من مصر إلى الشام .

(٦) يقول الإمام القرطبي : « هذا الانحناء والتكفي وقد نسخ عنا قد صار عادة بالديار المصرية وعند العجم ، وكذلك قيام بعضهم لبعض ، حتى إن أحدهم إذا لم يقم له وجد فى نفسه كأنه لا يُؤبه به ، وأنه لا قدر له ، وكذلك إذا التقوا انحنى بعضهم لبعض ، عادة مستمرة ، ووراثة مستقرة لاسيما عند التقاء الأمراء والرؤساء . نكبوا عن السنن ، وأعرضوا عن السنن ، وروى أنس بن مالك قال : قلنا : يا رسول الله ، أينحنى بعضنا إلى بعض إذا التقينا ؟ قال : =

من قبل قد جعلها ربي حقا وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي إنّ ربي لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم ﴾ (١) .

﴿ رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض أنت ولي في الدنيا والآخرة توفني مسلما (٢) وألحقني بالصالحين ﴾(٣) .

معالم ترسيها سيرة يوسف عليه السلام :

لقد وسم الله قصة يوسف عليه السلام بأنها : أحسن القصص من بين سائر

= « لا » . قلنا : أفيعتنق بعضنا بعضا ؟ قال : « لا » . قلنا : أفيصافح بعضنا بعضا ؟؟ قال : « نعم » . خرجه أبو عمر في التمهيد . فإن قيل : فقد قال رسول الله ﷺ : « قوموا إلى سيدكم وخيركم » ، يعنى سعد بن معاذ ؟ قلنا : ذلك مخصوص بسعد لما تقتضيه الحال المعينة ، وقد قيل : إنما كان قيامهم لينزلوه عن الحمار ، وأيضا فإنه يجوز للرجل الكبير إذا لم يؤثر ذلك في نفسه ، فإن أثر فيه وأعجب به ورأى لنفسه حظا لم يجز عونه على ذلك لقوله ﷺ : « من سره أن يتمثل له الناس قياما فليتبوأ مقعده من النار » . وجاء عن الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين أنه لم يكن وجه أكرم عليهم من رسول الله ﷺ ، وما كانوا يقومون له إذا رأوه ، لما يعرفون من كراهته لذلك .

فإن قيل : فما تقول في الإشارة بالإصبع ؟ قيل له : ذلك جائز إذا بعد عنك ، لتعين له به وقت السلام ، فإن كان دانيا فلا ، وقد قيل بالمنع في القرب والبعد ، لما جاء عن رسول الله ﷺ أنه قال : « من تشبه بغيرنا فليس منا » وقال : « لا تسلموا تسليم اليهود والنصارى ، فإن تسليم اليهود بالأكف والنصارى بالإشارة » . وإذا سلم فإنه لا ينحني ، ولا أن يقبل مع السلام يده ، ولأن الانحناء على معنى التواضع لا ينبغي إلا لله . وأما تقبيل اليد فإنه من فعل الأعاجم ، ولا يتبعون على أفعالهم التي أحدثوها تعظيما لكبرائهم ، قال النبي ﷺ : « لا تقوموا عند رأسي كما تقوم الأعاجم عن رؤوس أكاسرتها » . فهذا مثله . ولا بأس بالمصافحة ، فقد صافح النبي ﷺ جعفر بن أبي طالب حين قدم من الحبشة ، وأمر بها ، وندبَ إليها ، وقال : « تصافحوا يذهب الغل » وروى غالب التّمّار الشعبي ، أن أصحاب النبي ﷺ كانوا إذا التقوا تصافحوا ، وإذا قدموا من سفر تعانقوا . فإن قيل : فقد كره مالك المصافحة ؟ قلنا : روى ابن وهب عن مالك أنه كره المصافحة والمعانقة ، وذهب إلى هذا سحنون وغيره من أصحابنا . وقد روى عن مالك خلاف ذلك من جواز المصافحة ، وهو الذى يدل عليه معنى ماعني الموطأ . وعلى جواز المصافحة جماعة من السلف والخلف . قال ابن العربي : إنما كره مالك المصافحة لأنه لم يرها أمرا عاما في الدين ، ولا منقولا نقل السلام ، ولو كانت منه لاستوى معه .

قلت : قد جاء في المصافحة حديث يدل على الترغيب فيها ، والدأب عليها والمحافظة ، وهو ما رواه البراء بن عازب قال : لقيت رسول الله ﷺ فأخذ بيدى فقلت : يا رسول الله ، إن كنت لأحسب أن المصافحة للأعاجم ؟ فقال : « نحن أحق بالمصافحة منهم ، ما من مسلمين يلتقيان فيأخذ أحدهما بيد صاحبه مودة بينهما ونصيحة إلا ألقيت ذنوبها بينهما » . (الجامع لأحكام القرآن ، جـ ٩ ، ص ٢٦٥ ــ ٢٦٦) .

(١) يوسف : ٩٩ ــ ١٠٠ . (٢) أى إذا جاء أجلي توفني مسلما . (٣) يوسف : ١٠١ .

الأقاصيص ، لأنه ليست قصة في القرآن تتضمن من العبر والحكم ما تتضمن هذه القصة[1] .

وقيل : لأنّ فيها ذكر الأنبياء والصالحين والملائكة والشياطين ، والجن والانس والأنعام والطير ، وسير الملوك والممالك ، والتجار والعلماء والجهال ، والرجال والنساء وحيلهن ومكرهن ، وفيها ذكر التوحيد والفقه والسير وتعبير الرؤيا ، والسياسة والمعاشرة وتدبير المعاش ، وجمل الفوائد التي تصلح للدين والدنيا [2] .

الرؤيا حالة شريفة ، ومنزلة رفيعة ، قال ﷺ : « لم يبق بعدى من المبشرات إلا الرؤيا الصالحة الصادقة يراها الرجل الصالح أو ترى له » . وقال : « أصدقكم رؤيا أصدقكم حديثا » . وحكم ﷺ بأنها جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة ، وروى « من سبعين جزءا من النبوة » [3] .

يقول ابن عبد البر : اختلاف الآثار في هذا الباب في عدد أجزاء الرؤيا ليس عندى اختلاف متضاد متدافع ـــ والله أعلم ـــ لأنه يحتمل أن تكون الرؤيا الصالحة من بعض من يراها على حسب ما يكون من صدق الحديث ، وأداء الأمانة ، والدين المتين ، وحسن اليقين . فعلى قدر اختلاف الناس فيما وصفنا تكون الرؤيا منهم على الأجزاء المختلفة العدد ، فمن خلصت نيته في عبادة ربه ويقينه وصدق حديثه ، كانت رؤياه أصدق ، وإلى النبوة أقرب [4] .

روى البخارى عن أبي سلمة قال : لقد كنت أرى الرؤيا فتمرضني حتى سمعت أبا قتادة يقول : وأنا كنت لأرى الرؤيا فتمرضني حتى سمعت رسول الله يقول : « الرؤيا الحسنة من الله ، فإذا رأى أحدكم ما يحب فلا يحدث بها إلا من يحب ، وإذا رأى ما يكره فليتعوذ بالله من شرها وليتفل ثلاث مرات ولا يحدث بها أحدا فإنها لن تضره » . قال علماؤنا : فجعل الله الاستعاذة منها مما يرفع أذاها ، وزاد مسلم من رواية جابر عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إذا رأى أحدكم الرؤيا يكرهها فليبصق عن يساره ثلاثا ، وليتعوذ بالله من الشيطان ثلاثا ، وليتحول عن جنبه الذى كان عليه » [5] .

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ، جـ ٩ ، ص ١٢٠ .
(٢) المرجع السابق ، ص ١٢٠ .
(٣) رواه مسلم .
(٤) الجامع لأحكام القرآن ، جـ ٩ ، ص ١٢٢ ـــ ١٢٣ .
(٥) الجامع لأحكام القرآن ، جـ ٩ ، ص ١٢٨ ، تفسير القرآن العظيم ، جـ ٢ ، ص ٤٦٩ .

« والرؤيا معلقة برجل طائر مالم يحدث بها صاحبها فإذا حدث بها وقعت ، فلا تحدثوا بها إلّا عاقلا أو محبا أو ناصحا » . أخرجه الترمذى وقال فيه : حديث حسن صحيح [١] .

* وفى هذه الآية دليل على إباحة أن يحذر المسلم أخاه المسلم ممن يخافه عليه ، ولا يكون داخلا في معنى الغيبة ، لأن يعقوب عليه السلام ، قد حذر يوسف أن يقص رؤياه على إخوته فيكيدوا له كيدا . وفيها ما يدل على جواز ترك إظهار النعمة عند من تخشى غائلته حسدا وكيدا ، وقال النبي ﷺ : « استعينوا على إنجاح حوائجكم بالكتمان ، فإن كل ذى نعمة محسود » [٢] .

روى البخارى عن أبي هريرة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لم يبق من النبوات إلّا المبشرات » قالوا : وما المبشرات ؟ قال : « الرؤيا الصالحة » . وهذا الحديث يدل على أن الرؤيا بشرى على الإطلاق وليس كذلك ، فإن الرؤيا الصادقة قد تكون منذرة من قبل الله تعالى لا تسر رائيها ، وإنّما يريها الله تعالى المؤمن رفقا به ورحمة ، ليستعد لنزول البلاء قبل وقوعه ، فإن أدرك تأولها بنفسه ، وإلا سأل عنها من له أهلية ذلك . وقد رأى الشافعي رضي الله عنه وهو بمصر رؤيا لأحمد بن حنبل تدل على محنة فكتب إليه بذلك ليستعد لذلك [٣] .

الله يصطفي لدعوته ــ الإسلام هو الحل لمشاكل الناس جميعا :

وأتاح الله الفرصة بعد ذلك لنبيه الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق ابن إبراهيم عليهم السلام لكي يباشر دعوته ، ويدعو الأمة المصرية إلى الإسلام .

كان ذلك حينما طلب الملك من الملأ تفسير الرؤيا ، فعجزوا ولجأوا إلى يوسف عليه السلام .

« يوسف أيها الصّديق » لأن الصدق سمت المسلمين ، ولا يصدق في النصيحة إلا المسلم . مجتمع بأسره عجز أن يكون فيه نموذج ليوسف عليه السلام ، يلجأ إليه ويستفتيه

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ، جـ ٩ ، ص ١٢٦ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٢٦ ــ ١٢٧ .

(٣) المرجع السابق ، ص ١٢٧ .

في الأمر ، وشاءت رحمة الله ، أن يقدم لهذا المجتمع ـــ رحمة به ـــ هذا المنقذ هو رسول من رب العالمين ، إنه يوسف عليه السلام ، النبي المسلم ابن النبى المسلم ابن النبي المسلم ابن النبى المسلم .

لقد طلب منه ساقي الملك الفتيا ، لأنها لا تطلب إلا من صادق : « أفتنا في سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف ، وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات » .

وقدم يوسف التفسير :

ستمر عليكم سبع سنين مخصبات متتابعات يعقبهن سبع سنين مجدبات ، وما تزرعونه أثناء السبع سنين المخصبات المتتابعات « فما حصدتم فذروه في سنبله » ، قيل : لئلا يتسوس وليكون أبقى « إلا قليلاً مما تأكلون » أى استخرجوا ما تحتاجون إليه بقدر الحاجة .

ثم تأتي بعد ذلك سبع مجدبات ، يأكلن ما ادخرتم لأجلهن .

ثم أضاف : « ثم يأتي من بعد ذلك عام ، فيه يغاث الناس ، وفيه يعصرون » .

لقد قدم الإسلام الحل للمجتمع الذى سيواجه المجاعة **على مدار سبع سنين** ، لقد جاء هذا التنبيه من الله عز وجل ، رحمة منه بأهل مصر ، وتبيينا لهم لعلهم يتذكرون ولعلهم يرجعون إلى ربهم وسيدهم وخالقهم .

وهذا مثال نسوقه لدعاة المادية ، الذين تركوا دين الله وراء ظهورهم ، وأفسدوا في الأرض بعد إصلاحها ، فجاعوا وركبتهم الديون المهلكة التي جعلتهم مطية لأعدائهم ، وتصوروا وقد برحت بهم العلة ، أنهم يستطيعون بعقولهم القاصرة ، الخروج من هذه الأزمات الاقتصادية المتفاقمة عن طريق تحديد النسل ، أو عن طريق خطط التنمية ، أو عن طريق القروض ذات الفوائد المفروضة من أعدائهم .

إن الإسلام هو الحل ، إن الحُفَّاظ الأمناء الأقوياء هم الحل ، إن الأشراف الأطهار هم الحل ، فما أحوج الأمة في وقت الشدة إلى هذا .. إلى هذا الإسلام وهؤلاء الأمناء .

إننا نجزم ـــ على سبيل المثال ـــ أن مصر وغيرها من بلاد العالم لن تنصلح أحوالها ، إلا إذا أسلمت حياتها كلها لله رب العالمين ، يسيرها كما يشاء هو ﴿ **يا أيها الذين آمنوا**

ادخلوا في السلم كافة ﴾[1] . لن تنصلح أحوالها إلا إذا سلمت الأمانة أو دفة الحكم إلى الرجال الشرفاء الأطهار ، العلماء الذين يتورعون عن أكل أموال الناس بالباطل ، المحسنين ، الصديقين ، الأمناء الذين **يحافظون على أعراض الأمة ، على أبنائها وبناتها** ..

وبهؤلاء خرجت مصر من أزمتها :

لقد استجاب الملك لتوجيه الله عز وجل .

وفي هذا حض للأمة على الادخار ، وألا تسمح للحياة أن تلتهم مدخراتها أولاً بأول ، لأن الأيام دول . ولهذا فقد وجه رسول الله محمد ﷺ صحابيا أراد أن يتصدق بماله كله ، أن يتصدق بالثلث والثلث كثير ، رغم أن هذه صدقة ، أى أنها مدخرة عند رب السموات والأرض ، فما بالنا بمن يسرفون في كثير من وجوه الترف والمجون ، ومن هنا نستطيع أن نفهم توجيه الإله الحكيم : ﴿ **ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا** ﴾[2] . كما أن رسول الله محمد ﷺ وصى أمته بأن تغتنم فرصة غناها قبل فقرها ، لأنه قد تأتي أيام تحتاج فيه إلى ماادخرته [3] .

وهذا هو الذى حدث ، لقد ادخرت مصر على مدار سبع سنوات ، ثم جاءت السبع سنوات الشداد ، أعوام الجفاف لتأكل هذا الذى ادخره العقلاء .

التكافل :

لقد كان ملك مصر في ذلك الزمان ، متفتح العقلية ، حريصا على مصلحة أمته ، بل على البشرية كلها .

إنه طلب من يوسف القادم من بلاد الشام أن يتولى المسؤولية كاملة : ﴿ **إنّك اليوم لدينا مكين أمين** ﴾ لم ينظر إلى لونه أو حسبه أو جنسه أو عصبيته ، بل نظر في دينه وتقواه ، فلما علم أنه رجل مسلم حقيقة ، سلمه مسؤولية الحفاظ على خزانة الدولة ، ومواردها الاقتصادية ومصروفاتها .

لم يقل له : إنّك من علماء الدين ، وعلماء الدين لا يصلحون .. لم يقل له : إنّك

---

(١)البقرة : ٢٠٨ .　　(٢) الإسراء : ٢٩ .

(٣) اغتنم خمسا قبل خمس ، ومنها : غناك قبل فقرك .

مسلم ، ونحن مطالبون بأن لا نولي مسلما ، أمراً من أمور الأمة ، على العكس لقد قال له : ﴿ **إنك اليوم لدينا مكين أمين** ﴾ .

فقال يوسف عليه السلام : ﴿ **اجعلني على خزائن الأرض ، إني حفيظ عليم** ﴾ .

هذا درس لمن يتولون مسئولية الشعوب في كل زمان ، لابد من الحفظ والعلم ، لم يقل له : ابن فلان ، أو عندى كذا ، ولم يقل له : أنا ابن المطرب أو الراقصة أو من المحاسيب ، ولكنه قال له : إن مؤهلاتي هي الحفظ والعلم ، فسلمه المسؤولية ، مسؤولية إطعام أمة بأكملها على مدار أربع عشرة سنة ، ولم تكن أمة واحدة ، بل شعوب لأن أهل الشام كانوا يأتون إلى مصر ليمتاروا منها أيام الجفاف ..

وهذا يبين لنا حقيقة التكافل الذى كان قائما في ذلك الزمان بين الجيران .

لم يقل الملك أو رئيس وزرائه ، هؤلاء أجانب وأقواتنا قليلة ، ولكنهما ومعهما شعب مصر فتحوا أذرعهم وقلوبهم لجيرانهم ، لإدراكهم أن الرزق بيد الله ، وإنما ترزق الناس وتنصر بضعفائها .

ويروى أن يوسف عليه السلام كان لا يشبع من طعام في تلك السنين ، فقيل له : **أتجوع وبيدك خزائن الأرض ؟؟ فقال : إنِّي أخاف إن شبعت أن أنسى الجائع ، وأمر يوسف** طباخ الملك أن يجعل غداءه نصف النهار ، حتى يذوق الملك طعم الجوع ، فلا ينسى الجائعين(١) .

ومن المعالم التى ترسيها سيرة يوسف عليه السلام فى حياة الأمة ، أن الله سبحانه وتعالى قد تعهد شعب مصر وغيره من بنى آدم عليه السلام ، بالرسل يعرفونهم بربهم الحق ودين الله الحق وهو الإسلام ، أى أن الإسلام أصيل فى حياة شعب مصر منذ زمن طويل ، ولا عجب فى **ذلك**، فشعب مصر من ذرية المسلمين الذين نجوا مع نوح من الطوفان .

إن شعب مصر فى الأصل شعب مسلم ، والشرك والكفر الذى حدث بعد ذلك إنما هو طارئ عليه .

شعب مصر الإسلام عريق فى حياته ، دعاه إليه الرسل ومنهم يوسف عليه

(١) الجامع لأحكام القرآن ، جـ ٩ ، ص ٢١٩ .

السلام ، قبل أن يولد الرسول المسلم عيسى عليه السلام بزمن طويل .

فى ضوء رسالة يوسف عليه السلام إلى شعب مصر ، وفى ضوء الإسلام الذى كان عليه أبناء مصر يمكن أن يعاد النظر فى دراسات التاريخ القديم التى قام بها المستشرقون ومن سار على نهجهم ، والتى تجاهلت دعوة الإسلام التى دعا إليها يوسف عليه السلام فى مصر .

فى ضوئها يمكن أن نجزم أن توحيد الله رب العالمين والإيمان بالبعث والحساب والجنة والنار الذى كان يؤمن به شعب مصر ، وأثبتته الدراسات الأثرية ليست من اختراع العقل البشرى إنما هو نتيجة الرسالات السماوية التى حملها يوسف عليه السلام وغيره من الرسل إلى شعب مصر .

ويمكن أن نجزم فى ضوئها أيضا ، أن أرض مصر أرض إسلامية ، وهى للمسلمين ، وحينما جاء عمرو بن العاص إلى مصر بعد رسالة محمد ﷺ إنما أعاد شعب مصر إلى الإسلام الذى كان عليه الآباء والأجداد ، وإن كان لكل أمة على أيدى كل رسول شرعة ومنهاجا ...

ولعل هذه الحقيقة تكف ألسنة وأقلام هؤلاء الذين يصورون مصر على أنها غير إسلامية فها هو التاريخ المقترن بالوثائق كما بينا يؤكد حقيقة لا مراء فيها أن مصر إسلامية .

وبعد :

لقد عاشت مصر فى ظل يوسف الرسول والحاكم المسلم ، تنعم بالإسلام عقيدة وشريعة ، وجاءت أجيال ضعفت سلطان العقيدة ، وتفشى الظلم والانحراف فى حياتها ، فتسلط عليها الطغاة ، فأخرجوا من أخرجوا عن دينه ، وباتوا وأصبحوا يطاردون الموحدين فى كل مكان ، ومن هؤلاء الطغاة سنقنزع وأحمس وكامس الذين تحكى كتب التاريخ أنهم طاردوا الهكسوس أو الملوك الرعاة من مصر .

نهاية عصر الفترة الثانية :

يقول الأستاذ الدكتور أحمد فخرى فى كتابه مصر الفرعونية :

« أما عن الهكسوس فإن حرب أحمس فرقت شملهم ثم جاءت حروب تحوتمس فقطعت دابرهم ومحتهم محواً تاماً من صفحات التاريخ كقوة حربية أو كأمة لها كيانها » [1] .

وإن صح هذا الخبر ، فذلك يعنى أنه قد تسلط الفراعنة على بنى إسرائيل الذين كانوا فى مصر بعد وفاة يوسف عليه السلام . وتسلط المشركون على ذرية المسلمين ليس له إلا تفسير واحد فى ضوء السنن الربانية وهو أن بنى إسرائيل قد انحرفوا عن دينهم (الإسلام) ، فسلط الله عليهم من الفراعنة من طردهم من البلاد يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم : ﴿ **ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم** ﴾ . وهذا يفسر لنا الحملة الشرسة التى حمل لواءها فراعنة ماتسمى بالدولة الحديثة ، والتى بدأها سنقنزع وأحمس وكامس ضد الإسلام والمسلمين فى مصر وبلاد الشام .

---

(١) صفحة ٢١٦ ، ولا علاقة مطلقا بين الدولة التى تسمت باسم إسرائيل بعد أن قتلت وشردت أهلها واغتصبت أرضها ، وبين النبى الكريم المسلم إسرائيل عليه السلام ـــ إنما هو التشابه فى الأسماء ، وهو التدليس لاغتصاب أرض الأنبياء والمسلمين .

obeikandl.com

الفصل الثالث

مايُسمى عصر الدولة الحديثة

عصر تنحية أبناء المسلمين عن موقع القيادة بعد انحرافهم عن دينهم

عصر التمكين للفراعنة الطغاة من باب الاستدراج

﴿ لا يغرنك تقلب الذين كفروا فى البلاد . متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد ﴾ (١)

المبحث الأول

الدولة الحديثة « الأسرات ١٨ ــ ٢٠ »

فى مراجع التاريخ القديم

(١٥٧٠ ــ ١٠٩٠ ق . م)

الأسرة الثامنة عشرة (١٥٧٠ ــ ١٠٩٠ ق . م) :

أحمس الأول (٢٢ عاما) :

أحمس هو ابن سنقنزع . ولقد بدأت مصر بحكم هذا الملك عهدا جديدا فى تاريخها ، إذ أنه أخذ على عاتقه استمراره فى مطاردة الهكسوس فهزمهم فى فلسطين (٢) وذلك غير جهوده التى بذلها لتأمين حدود مصر الجنوبية والتى فى أثنائها حدثت ثورة من الموالين للهكسوس (؟) أو سلالتهم (٣) (؟) فى مصر ولذلك فقد عاد وأجهز عليها .

---

(١) آل عمران : ١٩٦ ــ ١٩٧ .

(٢) حضارة مصر الفرعونية ص ٢٢٢ .

(٣) هم غالبا المسلمون من ذرية يعقوب وإخوان يوسف عليهما السلام ، والذين جاءوا من البلاد المجاورة إلى مصر .

obeikandl.com

ومن الشخصيات التى ارتبط ظهورها بذلك العصر ، وكان لها دور كبير فى الحرب ضد الهكسوس ، حث الملوك والشعب على القتال ، تتى شرى جدة الملك أحمس ، واعح حتب والدته ، وأحمس نفرتارى ، التى تزوجت من أخيها كامس ، ثم من أخيها أحمس[1] ، وقد خلدت الآثار ذكر هن ، التى تشير إلى أن الناس كانوا ينظرون إليهما نظرة عبادة واحترام كما يزعم كتاب التاريخ .

أمنحتب الأول (٢١ عاما) :

تولى العرش بعد وفاة أبيه أحمس ، وقد كان يافعا ولذلك تولت والدته أحمس نفرتارى مهمة توجيهه فى بداية حكمه .

ومن أهم أعماله خروجه على رأس جيشه للاطمئنان على ملكه فى سوريا وفى ليبيا ، وفى شمال السودان . وقد تمتعت البلاد فى عهده بالهدوء ، ولذلك فقد أخذ هذا الملك الشاب يوجه الجهود إلى تعمير المعابد والإكثار من الإنشاءات وقد توفى هذا الملك دون أن يترك ولدا يتولى عرش البلاد .

ويقول الدكتور فخرى أن امنحتب كان رفيقا برعيته[2] .. ولأمر ما ظل عمال الجبانة فى طيبة قرونا عدة بعد وفاته يعبدونه ويقدمون له القرابين .

تحتمس الأول (٣٠ عاما) :

من المرجح أنه أحد أمراء البيت المالك وأنه قد اعتلى العرش وعمره أربعون عاما بعد أن تزوج من الأميرة صاحبة الحق فى تولى العرش .

ويعتبر هذا الملك هو أول من وضع اللبنة الأولى فى بناء صرح مملكة الفراعنة خارج الحدود المصرية . ولتحقيق هذا الهدف ، فقد قاد جيوشه لتأمين ومد حدود مصر الجنوبية حتى الشلال الرابع جنوبا ، وقد كان ذلك العهد بداية اصطباغ بلاد النوبة وشمال السودان بالصبغة المصرية ، وبعد ذلك اتجه بجيوشه إلى آسيا حتى وصل إلى نهر الفرات حيث قام باصطياد بعض الفيلة التى أرسل بعضا منها إلى معبد آمون فى طيبة وذلك كما تروى

---

(١) وإن صح هذا الخبر فهو دليل على الانحراف الذى أصاب حكام مصر فاستحلّوا المحارم ، وأشركوا بالله .

(٢) وهل الرفق بالرعية ، يبرر للناس عبادته من دون الله ؟ .

النصوص المصرية القديمة .

ومن أعمال هذا الملك أيضا ، المبانى الفخمة التى أقامها فى معبد [1] الكرنك وعلى الأخص المعبد الكبير الذى أقيمت أمامه مسلتان ولا زالت إحداهما حتى الآن .

وتعرف من نقوش ذلك العصر أن البلاد قد تمتعت فى عهده بالرخاء ، نتيجة لتدفق الضرائب وخيرات الأمم الأخرى على خزانة طيبة .

والجدير بالذكر أن الملكية فى هذا العصر استمسكت بما استمسكت به الملكيات القديمة من حيث الإصرار **على المركزية الواسعة وادعاء حق الحكم الإلهى والقول بالوراثة المقدسة والبنوة للآلهة الكبار** [2] .

تحتمس الثانى (٥ سنوات) :

هوابن تحتمس الأول من زوجته غير الملكية « موت نفرت » وهو أخ غير شقيق للملكة حتشبسوت المولودة من الزوجة الملكية « أحمس » ولذلك فقد كان طبيعيا أن يثور النزاع بين تحتمس الثانى وبين حتشبسوت بشأن الأحقية فى تولى الملك ، ولذلك فقد اضطربت الأمور ، وبدأت المؤامرات تأخذ سبيلها داخل البلاد وخارجها .

ولذلك نرى ثورة تقوم فى شمال السودان ضد الحكم المصرى فيرسل إليها الملك تحتمس الثانى جيشا هزم الثوار ، وأعاد الأمور إلى نصابها .

وهناك احتمال أن قبائل البدو التى كانت موجودة فى شرق مصر قد انتهزت هذه الفرصة وبدأت تقطع الطريق على القوافل فأدبها جيش تحتمس الثانى .

وبالإضافة إلى ذلك أظهر هذا الملك الكثير من الاهتمام بالبناء والتعمير .

---

(١) وهذا مايفعله الطاغوت فى كل زمان ، إقامة معابد للطاغوت ، والطاغوت هو كل مايعبد من دون الله ، فمعاهد الرقص والغناء والموسيقى والنحت وصناعة التماثيل ، كلّها معابد للطاغوت ، وفيها تهدر أموال الأمة ، وقدرات الشباب ، أين الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر ؟

(٢) مصر الفرعونية ص ٢٢٦ ــ ٢٢٨ ، وهذا شرك بالله ، كأنه ليس هناك استخلاف ، من الله للناس ــ وهم عبيد الرحمن فى الحكم ــ بشروط أهمها أن يقروا بالألوهية والربوبية لله الواحد الأحد ، ويقيموا شرع الله فى حياتهم ؛ وزعمهم أيضا بأنهم أبناء الإله . وهذا أيضا شرك بالله رب العالمين .

وبعد موت هذا الملك ، انفجر الصراع الشديد المتوقع بين حتشبسوت التى كانت قوية الشكيمة وورثت حب المجالدة عن والدها تحتمس الأول وبين الملك تحتمس الثالث[1] .

الملكة حتشبسوت (١٨ عاما) :

لا يتسع المجال هنا لتناول موضوع الصراع ، ولكن كل ما يجب قوله أن حتشبسوت قد أتيح لها أخذ مقاليد الأمور فى يدها ، والاستئثار بحكم البلاد ، يدل على ذلك أنها بدأت تظهر فى رسومات المعابد وقد ارتدت زى الرجال ، واستخدمت الضمير المذكر فى الحديث عن نفسها . وذلك لإقناع الجماهير أن اعتلاءها عرش مصر لم يغير شيئا فى التقاليد المتبعة .

ويبدو أن هذا الموضوع ، لم يرق للجميع بدليل ما عمل لها من الدعاية السياسية التى تتمثل فيما حاكته هذه السيدة عن نفسها وسجل على جدران معبد الكرنك ومعبد الدير البحرى [2] بأنها ليست من صلب أبيها ، ولكنها من صلب « آمون رع » الذى اختار أمها الملكة أحمس لتكون أما لابنة له تحكم مصر ، وذلك بالإضافة إلى تسجيل مبايعة أبيها تحتمس الأول لها بالملك أثناء حياته .

وكانت سياسة حتشبسوت الخارجية تعتمد على توثيق صلاتها بالدول الإفريقية . ولم يعرف لهذه الملكة أى نشاط عسكرى ذو قيمة . ومن أهم إنشاءاتها المعمارية ، بخلاف معبد الدير البحرى ، صالة معبد الكرنك ومسلتيها وذلك غير معبد آخر من الجرانيت بالكرنك أيضا . ولا يعرف حتى الآن كيف انتهت حياة هذه الملكة التى لم يعثر على جثتها ويذهب المؤرخون إلى أن نهايتها كانت محزنة إذ أن الفرصة قد أتيحت لتحتمس الثالث لاستعادة عرش البلاد . وحينئذ لم يتوان لحظة فى إزالة اسمها من كل أثر وتحطيم مقابر أصفيائها وأسمائها كما صب جام غضبه على كل ما شادته وأقامته . فحطم تماثيلها .

هكذا انتهى حكم حتشبسوت بهذه الكارثة ، التى كانت كفيلة بإيقاظ الفتن داخل البلاد وخارجها ، كما تحكى مراجع التاريخ القديم .

---

(١) مصر الفرعونية ، ص ٢٢٨ — ٢٢٩ .

(٢) بناه المهندس سنموت للملكة حتشبسوت فى الدير البحرى بالقرب من مقبرة منتوحب الثانى . ومن أهم نقوش هذا المعبد مناظر الرحلة البحرية التى أرسلتها الملكة إلى بلاد بونت لإحضار خيرات ومنتجات هذه البلاد : مصر الفرعونية ، ص ٢٢٩ — ٢٣٣ .

تحتمس الثالث (حكم ٥٤ عاماً) :

فى هذه الفترة التى كثرت فيها الفتن ، اعتلى عرش البلاد ملك هو تحتمس الثالث ، الذى أخذ يعد العدة للقضاء على الفتن والثورات التى شبت فى آسيا بهدف التحرر من الحكم المصرى .

وقد بلغ عدد الحملات التى قادها ستة عشرة ، أولها [١] كانت فى العام الثانى والعشرين من حكمه ، وقد كانت هذه الحملة فاتحة لبقية الحملات التى كانت كلها تتم أثناء الصيف ، على أن يعود الملك أثناء فصل الشتاء إلى مصر ، للإشراف على الأعمال الإنشائية والتعميرية .

وفى العام الحادى والثلاثين من حكمه قاد حملة سادسة للاستيلاء على قادش بعد أن أعد بعض الموانىء السورية لتكون قاعدة للأسطول المصرى ، ضامنا بذلك تعاون الأسطول مع القوات البرية .

---

(١) سجلت تفاصيلها على جدران معبد الكرنك وتحرك الجيش المصرى إلى فلسطين بقيادة الفرعون تحتمس الثالث من حصن ثارو ، شرق القنطرة الحالية ، فوصل إلى غزة ومنها تحرك فى طريقه إلى مجدو حيث نمى إلى علم تحتمس الثالث من رجال مخابراته أن أعداءه من زعماء سوريا وفلسطين بزعامة أمير قادش الذى يقال عنه أنه كان ميتانى الأصل أو على الأقل ممن استجابوا لهم قد جمعوا جموعهم عند مجدو (فى الناحية الشمالية الشرقية من جبال الكرمل) ومعناها الحصن ومكانها « تل المتسلم الحالى » وكان موقعها يسمح لها بالتحكم فى الممرات الجبلية التى تعترض طرق التجارة بين بلاد النهرين وسوريا من ناحية وبين فلسطين ومصر من ناحية أخرى وحينما وصل الجيش المصرى جبال الكرمل قرر تحتمس الثالث سلوك الطريق الصعب الذى يوصل مباشرة إلى مجدو ، بدلا من سلوك أى من الطريقين اللذين يدوران حول سفح جبال الكرمل ، وذلك على الرغم من نصيحة قواده من أنه ليس من الحكمة المخاطرة بسلامة الجيش .

وقد كان تحتمس الثالث يهدف من وراء سلوك هذا الطريق إلى مفاجأة العدو الذى كان يتوقع سلوكه للطريقين الآخرين ، واجتاز الجيش الطريق الوعر ثم عسكر عند مدخل وادى (قينا) حتى تم تجميع فرقه وأفراد قواته . وفى اليوم التالى هجم الجيش المصرى على مجدو فى هيئة نصف دائرة ، وما لبث المدافعون أن ولوا الأدبار للتحصن داخل المدينة وقد كان فى الإمكان أن يستولى الجيش المصرى على مجدو لولا أن شغل الجند بالغنائم مما أعطى الفرصة للأعداء للتحصن داخل المدينة . وقد كلفتهم الغلطة حصارا دام سبعة أشهر قبل أن تستسلم لهم المدينة استسلاما تاما ، ويقدم كل من فيها الولاء لتحتمس الثالث ، ما عدا أمير قادش فر إلى خارج المدينة . وما إن فرغ الملك من الاستيلاء على مجدو حتى عاد إلى مصر . وقد غنم المصريون الكثير من الأشياء فى أثناء هذه الحملة التى من أهم نتائجها إعادة الاستقرار للحكم المصرى فى جنوب سوريا وهنا نتساءل ، هل كان من حق مصر فى ذلك الوقت أن تجبر غيرها على الانضواء تحت لوائها ؟ (مصر الفرعونية ، ٢٣٤ ــ ٢٣٥) .

وفى الحملة الثالثة ، استولى تحتمس الثالث على مدينة قرقميش وغيرها من مدن العراق مقيما على ضفة الفرات لوحة حدودية إلى جوار لوحة جده تحتمس الأول ، تذكر بحدود مصر التى وصلت إلى شمال غرب بلاد العراق القديم .

وبذلك يمكن القول أن نفوذ مصر قد امتد إلى غرب آسيا بدليل أن القوى التى كانت موجودة على هذا المسرح ، سواء الميتان أو الحيثيين أو الآشوريين أو البابليين ، بدأوا يخطبون ود الملك المصرى ويقدمون له الهدايا . كما أن موانئ الشاطىء السورى وفلسطين وجزر البحر المتوسط كانت تحت نفوذ مصر أيضا .

ولكن ذلك لم يكن يعنى استقرار الأمور نهائيا على هذا الوضع ، فقد اضطر الملك تحتمس الثالث إلى الخروج فى حملته السادسة عشرة لتأديب مدينه قادش التى كان يؤازرها الميتان ومدينة تونيب (بالقرب من حماة) . وقد سقطت قادش وبذلك انتهى كل أثر لمعارضة النفوذ المصرى هناك . وبذلك يمكن القول أن مملكة الفراعنة قد امتدت حدودها من جبل برقل عند الشلال الرابع جنوبا حتى أطراف مياه نهر الفرات بالعراق شمالا [1]

وتصور المصادر المصرية أن مصر قد نعمت فى أيام حكم تحتمس الثالث التى امتدت ١٢ عاما بعد حملته الأخيرة بعدالة اجتماعية وبرخاء اقتصادى نتيجة ضرائب وخيرات ومنتجات البلاد الأجنبية التى كانت تصب فى الخزانة المصرية من إفريقيا وآسيا وجزر البحر الأبيض ، كما تزعم مراجع التاريخ القديم .

ومن أهم وزراء ذلك العصر ، رخ مى رع وبوىمرع وآمون مس وغيرهم الذين تعتبر مقابرهم فى البر الغربى بالأقصر (طيبة) مصدرا من مصادر معلوماتنا عن مدنيات الشعوب الأخرى ، والحياة الاجتماعية فى مصر فى ذلك الوقت .

وقد اقترن عهد هذا الملك بالكثير من المنشآت المعمارية ، فبنى المعابد والهياكل وأقام المسلات وتوفى تحتمس الثالث ، ليخلفه على العرش ابنه أمنحتب الثانى .

أمنحتب الثانى (حكم ٢٦ عاماً) :

تولى أمنحتب عرش البلاد وقد جاوز الثامنة عشر من عمره ، وذلك يعنى أنه قد

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢٣٦ ــ ٢٣٧ .

منع ناظريه بالجيوش تخرج لتملأ سمع الدنيا وبصرها بانتصارات أبيه أثناء حياته ولقد أعد إعدادا عسكريا خاصا مع الكثير من أبناء ضباط أبيه وكبار رجال البلاد وأبناء أمراء آسيا فى مدرسة القصر[1] التى أنشأها تحتمس الثالث فى طيبة .

ولقد كان هذا الملك مغرما بالفروسية والرياضة بأنواعها وعلى الأخص الرماية وتصور المصادر المصرية أن هذا الملك قد جلس على العرش وخزائن البلاد عامرة ، وشعبها آمنة ، وفى أثناء توليه العرش ، انتهزت المدن السورية فرصة وفاة والده كى تستقل بنفسها عن الحكم المصرى فأغضب هذا الملك وعد ذلك استخفافا به وسار إلى سوريا على رأس جيشه حيث أنزل بهم أشد أنواع الانتقام .

وكان ذلك كافيا لبث الرعب فى قلب كل من تحدثه نفسه بالخروج على الفرعون الجالس على عرش مصر ، وكان من نتيجة ذلك أن الميتان الذين ألبوا المدن السورية وكذلك مدينة قادش على الحكم المصرى استمرت فى إرسال هداياها إلى الملك المصري ضمانا لحسن معاملته .

وقد قاد هذا الملك حملة تفتيشية فى فلسطين ، ويقال إن النفوذ المصرى امتد فى عهده حتى قبيل مدينة الخرطوم .

وقد أعقب أمنحتب الثانى ، ابنه تحتمس الرابع (الذى حكم ٩ سنوات) أحد أبنائه الخمسة الذين وصلوا إلى عرش مصر بعد نزاع دار بينه وبينهم ، والذى سار على نهج آبائه وأجداده . ومن الأحداث البارزة فى عصره زواجه من ابنة الملك الميتانى « ارتاتاما » ، والتى أصبحت فيما بعد أما للملك أمنحتب الثالث الذى تولى العرش بعد وفاة أبيه .

أمنحتب الثالث (حكم ٣٦ عاماً) :

لقد طرأ كثير من التغيرات على التقاليد الدينية والحياة الاجتماعية فى مصر نتيجة اتصال مصر بالشعوب المجاورة فى أعقاب الفتوحات المصرية .

وينعكس ذلك التغيير فى آدابهم ولغتهم . كما يعكسه لنا زواج تحتمس الرابع من أميرة ميتانية تنجب له ولدا هو امنحتب الثالث الذى تربع على عرش مصر ، ويعكس ذلك أيضا

---

(١) المرجع السابق ص ٢٤٢ ــ ٢٤٧ .

معاملة امنحتب الثالث لزوجته الملكة « تى » .

لقد كانت هذه الفترة ، فترة رخاء واسترخاء ، فالخزانة العامة تفيض بالأموال والمخازن تغص بالمؤن والمنتجات والثروات ، وكان على العرش ملك غير ميال للحروب فأخذ يبتنى المعابد الجميلة والقصور الباذخة ، وأخذ يعيش حياة كلها ترف وبذخ فطبع البلاد بطابعه ، « والناس على دين ملوكهم » فانغمس الشباب فى حياة الترف والمجون ، ولم يكن هنالك مايحول بينه وبين الاندفاع وراء شهوته وملذاته ... ولقد كانت هذه بداية النهاية لتاريخ المملكة المصرية ـــ كما سنرى فيما بعد .

لقد اتبع الملك امنحتب الثالث شهواته فأخذ يعيش حياته متمتعا بزوجاته والمئات من جواريه ، ناسيا أن هنالك رعية تحتاج إلى رعايته وأنه لا بد أن يكون قدوة طيبة لأبناء دولته .

وكما قلنا لقد انعكست هذه الملامح الفاسدة على المجتمع الذى غص بالأجانب ، وأسيرات الحرب اللائى كن خير معوان على ذلك ، فكثرت حفلات الرقص والغناء فى منازل كبار الموظفين وامتدت إلى جميع الطبقات الأخرى ، بل وازداد الأمر سوءا عندما أقيمت مشارب الخمور حيث الفتيات والراقصات والمحترفات ، والتى كان يرتادها طبقات الشعب ، ومما لا شك فيه ، لقد كان ذلك بداية كافية لتحطيم الشباب وأخلاقه وإذا ما انهار الشباب وهو عماد الأمة ، فلا فائدة ترجى بعد ذلك ، ولكن ذلك لم يكن يروق للجميع فلا تحرم أمة من دعاة إلى التمسك بالأخلاق الفاضلة والقيم الفاضلة ممن أخذوا على عاتقهم التصدى للفساد وأعوانه ، ويتضح لنا ذلك جليا إذا ما قرأنا ـــ على إحدى البرديات ـــ أن أحد الأساتذة يحذر تلميذه من ارتياد أماكن شرب الخمور واصفا له ما يحدث بداخلها من أعمال تتنافى والأخلاق الكريمة [1] .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢٥٠ ـــ ٢٥٧ . كان من الواجب على حكام مصر وقد أنعم الله عليهم بالرزق الوفير أن يشكروا المنعم سبحانه وتعالى : ﴿ **كلوا من رزق ربكم واشكروا له** ﴾ . وشكر المنعم سبحانه وتعالى يستوجب إفراده وحده بالعبادة ، وتصريف النِّعَم فى مصارفها الشرعية بدلا من تصريفها فى تحصيل المعاصى التى توجب غضب العزيز الجبار ومقته وعقابه . إن حكام مصر قد شجعوا الرذيلة ـــ كما قرأنا ـــ وطاردوا المسلمين الموحدين داخل مصر وخارجها منذ نهاية الأسرة السابعة عشرة لقد فسد حكام البلاد وبالتالى فسدت الرعية ، لأن الناس على دين ملوكهم .

والرخاء الذى نلمحه هنا فى ضوء السنن الربانى هو من باب الاستدراج ﴿ **فلما نسوا ماذكروا به فتحنا** =

ولقد سار فى هذا الاتجاه أصحاب الحرف والفنون وكذلك المعماريون ويؤكد ذلك عمارة معبد الأقصر وأفنيته وأعمدته ونقوشه ، وكذلك مقابر الأشخاص الذين عاشوا فى أيامه مثل « رع موسى » ، وذلك غير بقايا معبد أمنحتب الثالث الجنازى خلف تمثالى ممنون اللذين يمثلانه ، والقصر الذى بناه لزوجته[1] على الضفة الغربية للنيل .

ولكن لم يكن من الممكن أن تسير الأمور على هذا النسق لفترة طويلة ، فسرعان لم بدت علامات التصدع فى البنيان :

١ ــ ملك دون الخمسين أنهكته الملذات وزوجته الملكة « تى » هى التى تسير شئون البلاد .

٢ ــ حكام البلاد المجاورة للدولة المصرية لم يكن يكفيهم صلات الود والمصاهرة ، إذا أن الشعوب قد بدأت تحس بما يجرى على أرض مصر ، ولم يكن من الممكن أن يقبلوا ذلك حتى ولو وافق ذلك مزاج حكامهم .

٣ ــ بدأ رجال الدين (كهان آمون رع) يأخذون على الملك ورعاياه التحرر من الديانات والتقاليد ، لأن ذلك يعنى انهيار سلطانهم الوثنى على النفوس .

ولذلك نرى الملك يتجه إلى تشجيع عبادة وثن آخر هو بتاح ليضرب به عبادة « آمون رع » حتى يتخلص من سطوة سدنة وكهان « بتاح » ذلك الوثن معبود منف ويعين ابنه كاهنا له [2] .

لقد كان كل شى فى مصر فى حاجة إلى إصلاح ملح وسريع ، استدراكا لبوادر هذا الانهيار ، لقد كانت الأحوال فى حاجة إلى منقذ رضى بالله ربا وبالإسلام دينا لقد كانت البلاد فى حاجة أن تعود حياتها كلها إلى منهج الله يسيرها كما يريد الله . ولكن ذلك لم

= عليهم أبواب كل شىء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون . فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين ﴾ .

(١) لقد كانت له زوجات أجنبيات أخريات إذ تزوج من ابنة الملك الميتانى سوتارنا ابن خاله ، وقد جاءت هذه الأميرة إلى البلاد ومعها ٢١٧ من وصيفاتها . كن من نصيب رجال البلاط كما تزوج من الأميرة ابنة الملك توسراتا وذلك غير أميرات بابليات وسوريات ، وهكذا كشف لنا كتاب التاريخ عن حاكم غرق فى الترف والمجون حتى أذنيه ، أحاطت به بطانة سوء كان همها أن تَعُبّ من الفساد عبّا .

(٢) هكذا صور لنا كتاب التاريخ القديم حكام مصر على أنهم يشركون بالله سبحانه وتعالى .

يحدث فقد رقى عرش البلاد ، شاب حالم شاعر ذا إحساس مرهف عميق كما يزعم كتاب التاريخ هو أمنحتب الرابع زوج « نفرتيتى » .

أمنحتب الرابع (أخناتون) وما يسمى بالثورة الدينية [1] :

فساد الزعم القائل : أن أخناتون أول موحد فى التاريخ :

ذكر كتاب التاريخ أن أهم أحداث عصر هذا الملك ، الثورة الدينية التى قادها وأراد التصدى بها لتسلط وطغيان كهنة الوثن « آمون رع » واتجه بمشاعره إلى عبادة وثن آخر هو « آتون » الذى عبر عنه بالقوة الكامنة فى قرص الشمس ، وأقام له معبدا بالقرب من معبد الكرنك ، وغير اسمه إلى « أخ ــ ان ــ آتون » (أخناتون) كما بدأ يقف فى وجه كهنة آمون ، وكان من الطبيعى أن يتبع ذلك انقسام الناس منهم من يتبع ذلك الدين الجديد ومنهم من يبقى على القديم ، ويقال إن الأب أمنحتب الثالث لم يكن راضيا عن هذه الفتنة بالرغم أنه عين ابنه فى وظيفة « كاهن بتاح » ويبدو أنه قد بدأ يفيق على انهيار ملكهم فى آسيا ، واستقلال سوريا الشمالية وامتناع الضرائب والأموال عن الصب فى خزانة مصر .

ويبدو أن نزاعا قد شب بين الأب « أمنحتب الثالث » والأم « تى » والابن أخناتون الذى ترك العاصمة طيبة ورحل إلى الشمال حيث اختار مكانا على مقربة من تل العمارنة (مركز ملوى) حيث بنى عليه عاصمة جديدة أسماها « أخت أتون » وهنا أقام وزوجته ورجال بلاطه ، مقسما ألا يغادر أخت آتون مادام حيا ، ويبدو أن « أخناتون » كان حقده على « آمون » وكهنته لا حدود له فقد محا اسمه أين ما كان حتى ولو كان فى اسم أبيه وأمه ، وأقصى عن الحكم والإدارة من لم يتبعه فى دينه الجديد ، فولى شئون البلاد رجالا حديثى العهد بفنون الحكم وكان ذلك كافيا للإتيان على البقية الباقية من كيان الدولة .

فها نحن نرى الدولة الحيثية تغير على سوريا وتحتلها بلدة بعد أخرى كما أن عدة مدن فلسطينية بدأت تستقل بأمورها .

ارتفعت صيحات المخلصين من أهل الملك ، وأصدقائه فى أنحاء الدولة عسى أن

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢٥٧ ــ ٢٦٠ .

يثوب الملك إلى رشده ، لوقف الانهيار الذى بدأ يزحف على أوصال الدولة ولكنها لم تجد أذنا صاغية وصدق القائل سبحانه ﴿ **ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا** ﴾ .

زاد الطين بلة التآمر على حياة الملك الذى كاد أن يقتل لولا يقظة حراسه ، فزاده ذلك عزوفا عن مخالطة الناس ، فانزوى فى قصره ، مقربا إليه المتملقين والمداهنين تاركا الأمور تجرى فى أعنتها .

وقد مات أخناتون تاركا على العرش « أخا له أو ابن أخ » هو « توت عنخ آتون » .

أهم الآثار الفكرية لعهد أخناتون :

بعض فقرات من تسابيحه[1] :

« أيها الخالق لبذرة الحياة فى النساء .
إنك أنت الذى يجعل من البذرة السائلة إنسانا .
إنك أنت الذى يعنى بالطفل فى بطن أمه .
وأنت الذى يهدئه بما يوقف بكاءه .
لأنك تعنى به وهو فى الرحم .

---

(١) وقد زعم كتاب التاريخ ، المستشرقون ومن سار على نهجهم ، أن أخناتون أول موحِّد فى التاريخ وأنه قد وصل إلى ذلك من تلقاء نفسه ، وعنه أخذ الأنبياء الفكرة وأقاموا ديانتهم ، تطور الفكر والدين فى مصر القديمة ، تأليف جيمس هنرى برستد ترجمة زكى سوس ، ص ٤٥٧ ــ ٤٥٩ ، الشرق الخالد ، تأليف د / عبد الحميد زايد ، ص ب ؛ مصر والشرق القديم تأليف د / محمد أنور شكرى ، ص ٢٠٧ .

وقد اعتمدوا فى زعمهم هذا على ماورد فى النشيد الذى يسمى تسابيح أخناتون والذى أوردناه هنا . وهذه المزاعم غير صحيحة ، فالكون كله مفطور على توحيد الله (الإسلام) وخلق الله آدم أبا للبشر جميعا موحدا مسلماً ، وبين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام ، وشعب مصر كان يدين بالإسلام فى فترات سابقة على عهد أخناتون ، ولذلك يمكن القول بأن ماورد فى تسابيح أخناتون من توحيد الله رب العالمين هو من آثار الرسالات السماوية السابقة على عهد أخناتون مثل رسالة يوسف عليه السلام الذى كان يعلم الناس التوحيد ويدعو إلى الإسلام ﴿ **أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار . ماتعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ماأنزل الله بها من سلطان ، إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون** ﴾ يوسف : ٣٩ ــ ٤٠ وسنفند هذه الشبهة تفصيلا إن شاء الله (انظر أخطاء يجب أن تصحح فى التاريخ ، الرسالة الأولى ، الإسلام دين الله فى الأرض والسماء ، نشر دار الوفاء ــ المنصورة ــ مصر ؛ دار طيبة ــ الرياض .

أنت الذى يعطى النفس ليحفظ حياة كل من يخلقهم .
عندما ينزل (الطفل) من بطن أمه ليتنفس .
فى اليوم الذى يولد فيه .
تفتح فمه ، وتمده بكل ما يحتاج إليه .
وعندما يصرخ الفرخ (الكتكوت) وهو داخل البيضة .
فأنت الذى تمده بالنفس فى داخلها ليعيش .
وعندما تتم خلقه داخل البيضة ، تجعله يكسرها .
ويخرج من البيضة وهو يصوصو إذا ما حان موعده .
ويمشى على رجليه عندما يخرج منها .

* * *

ما أعظم (أعمالك) التى عملتها !
إنها خافية على الناس .
أيها الإله الأوحد الذى لا شبيه له !
لقد خلقت الدنيا كما شئت !
عندما كنت وحدك .
الناس والماشية والوحوش الضارية .
وكل ما على الأرض يسعى على قدميه .
وكل ما يرتفع (فى السماء) يطير بجناحيه .

* * *

« فى » بلاد سوريا والنوبة وأرض مصر .
تضع كل شىء فى مكانه .
إنك أنت الذى يمدهم بما يحتاجونه .
يحصل كل شخص على طعامه ، وسنوات حياته مقدرة له .
يختلف الناس فى لغاتهم .
كما يختلفون أيضا فى طبائعهم .
يمتاز لون جلودهم عن بعضهم البعض .

لأنك أنت الذى يميز أهل الأمم الأجنبية .
أنت الذى خلقت نيلا فى ذلك العالم الآخر .
وأنت الذى يأتى به عندما يشاء ، لتبقى على الناس .
وذلك لأنك أنت الذى خلقتهم لأجل نفسك .
وأنت سيدهم جميعا الذى يشغل نفسه من أجلهم ، سيد كل أرض الذى يشرف لأجلهم .
أنت آتون (شمس) النهار ، عظيم البهاء .

* * *

أنت الذى يعطى الحياة (أيضا) لكل البلاد الأجنبية البعيدة .
لأنك خلقت نيلا فى السماء .
لينزل لأجلهم ويحدث أمواجا فوق الجبال .
مثل (أمواج) البحر .
لتروى حقولهم التى فى قراهم .
ما أجمل أعمالك يارب الأبدية !
فالنيل الذى فى السماء (خلقته) للأجانب .
ولكل حيوانات الصحراء التى تسعى على الأقدام .
أما النيل (الحقيقى) فإنه ينبع من العالم الآخر لأجل مصر .
تغذى أشعتك كل مرج .
وعندما تشرق ، تحيا وتنمو لأجلك
وجعلت فصول السنة لتغذى كل ما خلقت .
فالشتاء يبرد أجسامهم .
والحرارة تجعلهم يحسون بك .

* * *

أنت فى قلبى .
أنت الذى صنعت الدنيا بيديك .

وخلقت (الناس) كما شئت أن تصورهم .

أنت فى قلبى ، وليس هناك من يعرفك .

غير إنك « نفر ــ خبرو ــ رع ، واع ــ ان ــ رع لأنك أنت الذى خلقته عالما بمقاصدك ومدركا (لقوتك) .

أنت الذى صنعت الدنيا بيديك .

وخلقت (الناس) كما شئت أن تصورهم .

فهم يحيون عندما تشرق ، ويموتون عندما تغرب ،

إنك أنت الحياة بعينها .

ويعيش الإنسان (فقط) إذا أردت .

تتعلق العيون بالجمال حتى تغيب .

ويترك الناس أعمالهم عندما تغرب فى الغرب .

ولكنى عندما (تشرق) ثانية .[1]

يزدهر كل شىء لأجل الملك .

لأنك أنت الذى خلقت الأرض .

وأنت الذى خلقتهم (أى الناس) لأجل ابنك الذى ولد من صلبك ملك الوجه القبلى والوجه البحرى ... أخناتون .

وزوجة الملك العظيمة ... نفرتيتى .

عاشت ممتعة بالشباب دائماً وإلى الأبد » [2] .

توت عنخ آتون (١٠ سنوات) :

وقد رزقت البلاد فى عهده برجلين أحدهما هو « آى » الذى حاول أن يصلح

---

(١) يلاحظ أن الكاتب المصرى (أخناتون) القديم قد صرف الكثير من صفات الله تعالى إلى الوثن آتون ، ومعرفة الكاتب أو أخناتون لصفات الله تعالى ؛ قد تحقق من معرفته برسالات الرسل الذين بعثوا إلى شعب مصر يدعونه إلى التوحيد والاستسلام لله رب العالمين ، كما بيّنا .

(٢) هذا النص منقول عن حضارة مصر الفرعونية ، ص ٢٦٨ ــ ٢٦٩ .

obeikandi.com

الأحوال الداخلية للبلاد « وحور محب » قائد الجيش الذى آثر ألا يتدخل فى الصراع ـــ بين أتباع آتون وكهنة آمون ـــ وبقى فى منف بعيداً عن « طيبة » وعن « تل العمارنة » وقد قام حور محب بقيادة القوات المصرية لإعادة الأمن إلى نصابه فى بعض مستعمرات مصر فى فلسطين وفينيقيا .

وقد بقى توت عنخ آمون ثلاث سنوات فى العمارنة ثم انتقل بعدها إلى طيبة ، حيث رضخ لسطوة وشروط كهنة آمون بعد أن غير دينه وهجر ديانة آتون وغير اسمه إلى توت عنخ آمون . وبدأ الكهنة يصبون جام غضبهم على كل من كان له صلة بديانة آتون . وكان على الملك الصغير الذى حكم وله من العمر ٩ سنوات أن ينصاع لمطالبهم ، فبنى المعابد وأقام التماثيل وعين كهنة ومرتلين لوثنة « آمون » وهكذا ارتكست حياة الناس فى الشرك .

ويعتبر ذلك العصر بداية تسلط الكهنة على الدولة فى محاولة جادة للوصول إلى سلطة الحكم . وبعد وفاة[1] هذا الملك جاء إلى العرش ملك يقال عنه أنه آخر غريب عن البيت المالك هو « آى » الذى أعقبه على عرش البلاد قائد الجيش « حور محب » .

حور محب (٣٠ عاماً) :

لقد كان ذلك الملك ذكياً ، قد صقلته التجارب ، فوجه كل جهوده للإصلاح الداخلى ، بدلا من إضاعة موارد البلاد فى حروب غير مضمونة النتائج ، ولذلك فإنه عقد معاهدة مع ملك الحيثيين مورسيل الثالث . ووجه همه إلى تطبيق الكثير من التشريعات للقضاء على تدهور الأحوال وما كان يقع من ظلم على المساكين والفقراء ، وما تفشى من رشوة بين الموظفين .

ولا شك أن البلاد قد عاودها هدوءها القديم ، وأن الأمور الداخلية عادت إلى أحوالها الطبيعية [2] .

---

(١) ترك لنا هذا الملك مقبرة فى وادى الملوك ، مزودة بجميع أنواع الأدوات التى كان يستعملها فى حياته اليومية من الحلى والأثاث والملابس وأدوات الزينة والأسلحة والعربات وذلك غير تابوته الذى يزن ١١٠ كيلو جرام من الذهب الخالص ، وذلك غير النقوش والنصوص الدينية التي زينت جدران مقبرته . مصر الفرعونية ، ص ٢٨٤ ـــ ٢٨٧. وهكذا أهدر الفراعنة الثروات فى بناء القبور وتزيينها وتأثيثها كما لو كانت قصراً من القصور الأبدية .

(٢) مصر الفرعونية ، ص ٢٨١ ـــ ٢٩١ .

المبحث الثاني

تقويم تاريخ مصر العقدى والسياسى والاجتماعى والاقتصادى فى عصر الدولة الحديثة (الأسرة الثامنة عشرة) فى ضوء العقيدة الإسلامية « بعد موت يوسف عليه السلام وإسقاط حكم ملوك الرعاة »

إن العقيدة التى تدين بها الأمة المسلمة ، هي عقيدة الإسلام وعلى **هذه العقيدة يقوم** نظام وشرع يجب أن تخضع الأمة حياتها له .

والنظام السياسي أو نظام الحكم في الإسلام له سمت معين ، سمت معين لابد وأن يتوفر في رئيس الأمة ، وبطانته ومساعديه وفي النظم والتشريعات التي تحكم حياة الأمة ، راع ورعية ، هذه السمات أرساها في حياة المجتمع المصرى الله سبحانه وتعالى على يد يوسف عليه السلام .

فالحاكم الذى يحكم لابد وأن يكون مسلماً ، أى مستسلماً منقاداً طائعاً لله رب العالمين في الصغيرة والكبيرة ، وهو يقود الأمة التي ولاه الله أمرها ، وهكذا كان يوسف عليه السلام .

فالحاكم لابد وأن يكون متبرئاً من الشرك وأهله ، لا يوالي إلا أولياء الله ، ويحب في الله ويبغض في الله ، وهكذا كان يوسف عليه السلام : ﴿ **إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون** ﴾ (١) .

والحاكم لابد وأن يخضع حياته وحياة رعيته كلها لنظام الله وشرعه ، وهكذا **كان** يوسف عليه السلام الذى أعلنها : ﴿ **إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه** ﴾ .

والحاكم في دولة الإسلام لابد وأن يكون محسناً ، يحظى بثقة رعيته ، وهكذا كان

---

(١) يوسف : ٣٧ .

يوسف عيه السلام : ﴿ **إنا نراك من المحسنين** ﴾ .

. والحاكم في دولة الإسلام لابد وأن يكون صادقاً ، لا كذابا ، وهكذا كان يوسف عليه السلام : ﴿ **يوسف أيها الصديق** ﴾ .

إن الحاكم في دولة الإسلام لابد وأن يكون عليما حفيظا ، وهكذا كان يوسف عليه السلام : ﴿ **اجعلني على خزائن الأرض ، إنى حفيظ عليم** ﴾ . إن الحاكم في دولة الإسلام لا يكون جاهلاً .

إن الحاكم في دولة الإسلام لابد وأن يكون أمينا ، فهذه المسئولية مسئولية الحكم ، لا يجب أن تكون في أيدى اللصوص والفسقة والمجرمين وغير العقلاء ، ولكن يجب أن تكون في أيدى الأمناء ، وهكذا كان يوسف عليه السلام : ﴿ **إنك اليوم لدينا مكين أمين** ﴾ .

إن الحاكم في دولة الإسلام لابد وأن يكون عنده قدرة على الاجتهاد والاستنباط والترجيح والتخطيط لمستقبل الأمة ، وهكذا فعل يوسف عليه السلام : ﴿ **يوسف أيها الصديق أفتنا** ﴾ .

إن الحاكم المسلم لابد وأن يُعَوِّدَ الأمة الصبر على شظف العيش ، تعيش في حدود إمكانياتها ، ولا تمد يدها إلى أعدائها ، تستجدى طعامها وشرابها ، تماماً كما عوّد يوسف عليه السلام أمته .

إن الحاكم في دولة الإسلام ، لا يحكم بمزاجه ، أو طبقا لأهوائه ورغباته ، أو بقانون أو نظام من عندياته ، ولكنه يحكم بنظام الله وشرعه ، وهكذا كان يوسف عليه السلام .

إن الحاكم في دولة الإسلام يدرك أن الدعوة إلى الله واجبة ، وأن نصرة دين الله واجبة ، وهكذا كان يوسف عليه السلام ، الذى كرَّس حياته من أجل نشر دين الله عز وجل .

إن الحاكم في دولة الإسلام لابد وأن يكون إسلاما يتحرك على الأرض ، قدوة عملية لغيره من بني أمته ، لأن الناس لا يعتنقون هذا الدين ، ولا يصدقونه إلَّا أن يروه متمثلا بصدق في واقع الناس ، وهذا ما فعله يوسف عليه السلام .

إن الحاكم المسلم يتورع عن السطو على أعراض رعيته ، وهو حريص على طهارة

ذيله ، وهكذا كان يوسف عليه السلام : ﴿ **وقالت هيت لك قال معاذ الله إنه ربى أحسن مثواى إنه لا يفلح الظالمون** ﴾ .

إن الحاكم في دولة الإسلام لا يكون سليط اللسان ، بل يتعفف عن الكلمة البذيئة ، حتى ولو كان يعيش أشد اللحظات حرجاً وهكذا كان يوسف عليه السلام ، فرغم كونه سجينا مظلوما ، ففي رسالته إلى ملك مصر : ﴿ **ارجع فاسأله ما بال النسوة اللاتى قطعن أيديهن ، إن ربي بكيدهن عليم** ﴾[1] .

إن الحاكم في دولة الإسلام ، ليس طاغوتا ، ليس متسلطا ، ولكنه عبد لله ، رحيما برعيته ، ليس جبارا ولا غشوما .

إن الحاكم في دولة الإسلام ، يخضع حياته وحياة أمته لنظام الله وشرعه ، ويدرك أن واجبه بالدرجة الأولى : « أن يعلم الأمة كتاب الله ، ويعلمها الحلال والحرام ، ويزكيها أي يربيها على الخلق الفاضل والسلوك السوى » : ﴿ **ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم** ﴾ .

إن الحاكم في دولة الإسلام لابد وأن يكون مجاهدا ، عاملا على نصرة دين الله ونشره بكل الوسائل المتاحة له .

إن الحاكم في دولة الإسلام حريص على أن لا ينفرد بتصرف في أى شأن من شئون الدولة دون مشاورة أهل الحل والعقد ، وهم أهل الاختصاص .

إن الحاكم في دولة الإسلام يخضع في سياسته لأمور الأمة للمراقبة والمحاسبة من قبل جماهير الأمة .

هذه هي المعالم التي أرساها الله سبحانه وتعالى في حياة شعب مصر على يد يوسف عليه السلام ، وغيره من الأنبياء والرسل عليهم السلام .

ولكن بعد وفاة هذا النبي الكريم بفترة من الزمان ، وقبيل عصر الأسرة السابعة عشرة رزئت مصر بحكام ، حطموا هذه القواعد ، وداسوها بأقدامهم . إننا نلمح شعب مصر في

---

(١) يوسف : ٥٠ .

obeikandi.com

مواجهة حكام طواغيت ، أغرموا بحب الزعامة ، والرغبة في الوصول إلى الحكم بأى وسيلة ، وحب السيطرة ، ومد الحدود وغزو الشعوب الآمنة في عقر دارها . ودليل ذلك ما نشرته كتب التاريخ عن الملك كامس الذى حاول أن يستثير قومية وعصبية شعب مصر ضد حكم الملوك الرعاة قائلا : « أريد أن أعرف مدى سلطاني » « إذا كان هناك حاكم في أواريس وآخر في كوش وأجلس شريكا بين آسيوى ونوبي » . وهكذا تبدو العصبية على لسان فرعون مصر ، يريد أن يتخذها تكأة ومطية لإعلان الحرب على إخوانه من بني البشر ، وإنهاك موارد الدولة الاقتصادية والبشرية ، ولكن الرعية كانت على قدر كبير من النضج والوعي فردوا عليه ردًّا ينطوى على الحكمة : « ولكننا في طمأنينة ، ونحكم مصر ونعيش بخير وجميع البلاد حتى القوصية إلى جانبنا ، والرجال يحرثون لنا أراضينا ، وترعى ماشيتنا في الدلتا ، ويأتينا الشعير علفا ، ... لم يأخذ أحد ماشيتنا غصبا ، ولم يعتد علينا معتد »(١) .

وهذه شهادة من الأمة على حالة الأمن والاستقرار التي كان يعيشها شعب مصر في ظل حكم الإسلام ، الذى وطد أركانه يوسف عليه السلام على أرض مصر ، لكن يبدو أن كامس وإخوانه كانوا طواغيتا ، إذ سرعان ما أخفتوا صوت المعارضة ، وخرجوا يسقطون حكم الملوك الرعاة ، ويطمسون معالم الدولة الإسلامية التي أقام بنيانها يوسف عليه السلام .

لقد ضرب سقنرع وكامس وأحمس (آخر ملوك الأسرة السابعة عشرة) ومن جاء بعدهم بإرادة الأمة عرض الحائط ، وقادوا شعب مصر في حروب امتدت لتشمل بلاد الشام وأرض الرافدين وجنوب مصر ، والهدف منها ترويع الآمنين ، ومد الحدود ، وبسط لواء السيطرة والزعامة .

لقد رزئت مصر بحكام أشركوا بالله سبحانه وتعالى وكفروا به ، وادعوا لأنفسهم ما لله من صفات ، وأقاموا المعابد لأنفسهم ولأوثانهم . والدليل ما ذكرته كتب التاريخ من **أن الملكة أحمس نفرتارى التي تزوجت من أخيها كامس ثم من أخيها أحمس** ، كان المصريون ينظرون إليها نظرة عبادة واحترام ، وأقاموا لها معبدا في طيبة وجعلوا منها ومن ابنها أمنحتب

---

(١) مصر الفرعونية ، ص ٢١٣ ــ ٢١٤ .

الأول إلهين حاميين للجبانة ، كما أن الملك أحمس الأول قد ألهه المصريون »[1] .

كما أن هؤلاء الحكام الفراعنة قد أهدروا أموال الأمة في بناء القصور والمعابد ، والمقابر الضخمة ، وزخرفوها وزينوها بالنقوش الملونة ، وأقاموا بها التماثيل لأوثانهم ولأنفسهم ولأزواجهم وأبنائهم ، وصوروا على جدرانها مناظر الحياة اليومية والأخروية ، للفرعون وأعوانه ، تارة يستقبلون الوفود ، وتارة يشرفون على الحرث والزرع والحصاد ، وتارة يباشرون الصيد ، وتارة يشاهدون حفلات الصيد والقنص والرقص ، وتارة يتناولون الشراب ، وتارة يتقدمون بالقرابين إلى أوثانهم ، وتارة تصورهم بعد بعثهم . كما أن هؤلاء الفراعنة وأعوانهم قد زودوا مقابرهم ومعابدهم وقصورهم بكل ما يحتاجونه في حياتهم اليومية والأخروية في زعمهم ، وكل ذلك يعكس إهدارا لأموال الأمة وجهدها وقوتها ، ففي مقبرة توت عنخ آمون على سبيل المثال وهو الذى توفي في ريعان الشباب ولم يكن تجاوز العشرين من عمره ، ودفن في قبر أعد ، وملئت حجراته الأربعة بالأثاث ، وكل ما يحتاجه الملك في حياته اليومية ، ففيها نلمح تماثيل للملك بالحجم الطبيعي ، ونلمح الصناديق التي كانت تحوى ملابسه وأدواته ، ونلمح كرسيا صنع من خشب الأبنوس وغطى بصفائح من الذهب ، ونلمح العرش وقد صفح بصفائح الذهب ، وطعم بالأحجار الكريمة ، وقد صور عليه الملكة تضمخ زوجها بالعطور ، ونلمح الأسرة من الخشب ، وبعضها مغطى بصفائح الذهب ، بل إن جثة الملك الشاب عثر عليها في تابوت مصنوع من الذهب الخالص ، وزنه مائة وعشرة كيلو جراما .

ووضع هذا التابوت بدوره في تابوت آخر مصنوع من الخشب ومطعم بالأحجار الكريمة . والشيء الذى يثير العجب ، المصاغ والمجوهرات والحلي التي كان يرتديها الملك ، وهي معروضة في غرفة بأكملها في المتحف المصرى .

من أين لهؤلاء الملوك الفراعنة بهذه الأموال ، إنَّها أموال الأمة انتهبوها ووظفوها في التمتع بشهواتهم . فمما لا شك فيه أن هذا نموذج للمقابر ، فكيف كانت القصور والدور ؟ لقد كانت أفخم من ذلك بكثير !

والعجيب أن الفراعنة ـــ وهذا دليل على الاستهانة بأموال الأمة وثرواتها ـــ كانوا

---

(١) مصر الفرعونية ، ص ٢٢٠ ـــ ٢٢٢ .

يفتخرون بهذا الذى يقومون به ، فها هو أمنحتب الثالث يترك لنا نصا يقول فيه :

« وكان لا يسر قلب جلالتي شيء مثل إقامة المباني العظيمة ، والتي لم يبن مثلها منذ خلق العالم » وقد أقام جلالته لأبيه آمون معبدا فخما في الجهة الغربية من طيبة فجعل منه حصنا خالدا . بناه بأجود أنواع الحجر الجيرى من كتل ذات حجم كبير ، وزين جميع أجزائه بالذهب ، وحلى أرضيته بالفضة ، وكانت أبوابه مغطاة بصفائح من الذهب . لقد زاد جلالته من حجمه وأكثر من أبهائه وأتمه ليبقى إلى الأبد ، ووضع فيه الكثير من التماثيل الملكية من جرانيت أسوان ومن الحجر الرملي الصلد ومن جميع أنواع الأحجار الجيدة ، وكانت أحجامها الكبيرة تضيء الوجود أكثر من السماء ، وكان انعكاس أشعتها في وجوه الناس مثل الشمس عندما تضيء في مطلع النهار »[1] .

هذا نموذج من نماذج تفوق الحصر ، وكلها تقدم دليلا على البلاء الذى نزل بالأمة حينما تولى أمانة الحكم ملوك استهانوا بمسألة الحلال والحرام ، فضيعوا الأمة وأضاعوا أنفسهم .

وما يجرى في عالمنا المعاصر ، من الإقامة للمتاحف ، وإقامة للتماثيل في الميادين وغيرها ، هو إهدار لأموال الأمة ، وعودة مرة أخرى بها إلى عهود الوثنية ، لأن الإسلام يحرم صناعة التماثيل فضلا عن إقامتها في الميادين والشوارع .

وقد ألحق الفراعنة بقصورهم ومعابدهم ومقابرهم تلك التي منحوها لوزرائهم وأعوانهم أعدادا ضخمة من الكهنة والموظفين والعبيد ، كما أوقفوا على هذه القصور والمعابد والمقابر الأوقاف الضخمة للصرف عليها وعلى العاملين بها . والثروات التي كانت تذخر بها ، وكيف أن حكامها قد أهدروها ووظفوها في غير الوجوه المشروعة نذكر نموذجا ـــ على سبيل المثال لا الحصر ـــ الأوقاف التي أوقفها رمسيس الثالث أحد ملوك الأسرة العشرين على معبده في مدينة هابو ، الذى بنى أمامه مدخلا على شكل قلعة آسيوية ، وإلى جواره قصر لسكناه ، وأغدق عليه وعلى جميع معابد مصر الهبات من أرقاء وأراض ومال .

لقد كان للوثن آمون رع وحده ثروة طائلة ، إذ كان مجموع أراضيه نحو ١٠ ٪ من أراضي البلاد المزروعة . « كان لآمون ٨٦٫٥٠٠ من الأرقاء يعملون في أراضيه ، وكان له خمسة

(١) مصر الفرعونية ، ص ٢٥٣ .

قطعان من الماشية لا يقل مجموعها عن ٤٢١,٠٠٠ رأس ، كما كانت له حدائق في طول البلاد وعرضها ، وكثير منها في الواحات ، كما كان له مناجم الذهب في النوبة ، وكان له تسع مدن في سورية تأتيه محاصيل أراضيها وضرائبها بانتظام . وعدا ذلك من الموارد وأهمها ما يقدمه أفراد الشعب وما يقدمه الملوك »[١] .

وهذا يعكس لنا مدى الثراء الذى كان عليه كهنة المعابد وسلطانهم الذى أصبح لا حد له .. ، ولم يكن في وسع أحد من الفراعنة أن يسقط منها شيئا ، بل كان كل منهم يبذل جهده لإرضاء الكهنة فيزيد عليها حتى يضمن مؤازرتهم وعدم تآمرهم عليه .

أين الأمانة ؟ أين الحفظ ؟ لقد ضيعت وأهدرت ، ولا عجب أن يحدث ذلك إذا غاب الإيمان بالله الواحد القهار من القلوب .

وفي ظل هؤلاء الحكام تفشت المظالم التي تعرضت لها طبقات عريضة من شعب مصر ، وخير ما يعطينا فكرة عن حالة مصر وتدهورها في هذه الفترة ، وما كان يقع على الفلاح المسكين من ظلم وما تفشى بين الموظفين من الفساد والرشوة ، المرسوم بالقوانين التي أصدرها حور محب آخر ملوك الأسرة الثامنة عشرة [٢] .

فمنها يتضح أن المجتمع كان يعاني من موظفي الحكومة الذين كانوا يسخرون الناس لخدمتهم دون رضاهم ، كما أن الجنود المناط بهم حفظ الأمن يتنكبون الطريق ويذهبون إلى الفلاحين ، ويستولون على بعض أمتعتهم ومحاصيلهم قسرا ودون وجه حق ، وموظفي الضرائب الذين كانوا يتفننون في جمع أكبر قدر من الضرائب من الناس ، ويأخذون محاصيل الفلاحين دون وجه حق باسم الملك .

لقد رزئت مصر في ذلك العصر بحكام كانت السلطة غاية تستحق أن تراق من أجلها الدماء ، ومن هنا كان الصراع عليها شديدا ، ومثال ذلك ما كان بين حتشبسوت وتحوتمس الثالث .

وبعد : لقد كان حكام مصر يحسون بأن وصولهم إلى السلطة لم يكن له صفة

---

(١) ورد ذكر ذلك في بردية هاريس ، مصر الفرعونية ، ص ٣١٨ .

(٢) مصر الفرعونية ، ص ٢٨٩ ، ٢٩١ .

الشرعية ، لذلك نراهم ينسبون أنفسهم إلى آلهتهم ، ويقوم الكهنة ورجال الدين بتلفيق الحكايات والأساطير التي تصور الملكات والملوك بأنهم من صلب الآلهة ، وبالتالي فإن وصولهم إلى العرش ، إنّما هو مقدر منذ القدم . مثال ذلك ما ذكرته النصوص عن الملكة حتشبسوت .

فحتشبسوت « البذرة الممتازة التي خرجت من الآلهة » ، ونرى قصة حياتها منقوشة على جدران معبد الدير البحرى وفي نقوش معبد الكرنك التي تدعي فيها أنها ليست من صلب أبيها وإنما هي ابنة للإله آمون ر ع الذى اختار الملكة أحمس لتكون أما لابنة له تحكم مصر وقصت الملكة على جدار آخر قصة طويلة تتلخص في أن أباها تحوتمس الأول بايعها بالملك في حياته عندما كانت فتاة شابة وأن الكهنة وكبار رجال الدولة وافقوا على ذلك(١) « وحينما أراد تحوتمس الثاني ـــ أثناء حياته ـــ أن يعلن لابنه تحوتمس الثالث حق تولي العرش من بعده دبّر لذلك موضوع اختياره بواسطة الإله آمون ر ع في أحد أيام الأعياد »(٢) .

ولا ندرى مدى اقتناع أفراد الأمة بهذه الحملة الإعلامية الضخمة ، التي تقدم دليلا لا يقبل الشك على الاستخفاف بالأمة التي تسلط عليها مجموعة من الطواغيت لا هم لهم إلا تبرير وجودهم في موقع السلطة ، ودليل آخر على إحساس الحكام بأن وجودهم في موقع قيادة الأمة ليس له صفة الشرعية ، ومن هنا تم تلفيق هذه القصص والأكاذيب ، وهذا ما فعلته حتشبسوت في مكان آخر .

لقد كانت الملكة حتشبسوت تحس بأن ولاية أمر الأمة لا يجوز أن تكون في النساء ، وأن جلوسها على عرش البلاد كان غير شرعي ، ولذلك فإنا نراها مرسومة على جدران المعابد وهي ترتدى زى الرجال ، وتستخدم ضمير المذكر في النصوص(٣) ، وكان هذا كله قد حدث لكي توهم الناس أن التقاليد المتبعة لم يدخل عليها أى تغيير بوجود امرأة على العرش .

وكذلك فعل الملك تحوتمس الرابع الذى ترك لنا نصا منقوشا على لوحة يقص فيها على الناس أنه « كان يصطاد يوما من الأيام في صحراء الأهرام عندما كان أميرا وجلس في

---

(١) مصر الفرعونية ، ص ٢٢٩ ، ٢٣١ .
(٢) نفس المرجع ، ص ٢٣٠ .
(٣) مصر الفرعونية ، ص ٢٣١ .

ظل تمثال حورآخت (أى تمثال أبى الهول) وغلبه النعاس ، فرأى بوضوح أباه الإله يبشره بأنه سيصبح ملكا في المستقبل وسيضع التاج على جبينه »[1] .

وهكذا شاهدنا رجال الدين قد باعوا أنفسهم للشيطان ، وكُتَّاب التاريخ كانوا يروجون الحكايات والأساطير ليبرروا سرقة الزعماء والحكام للسلطة . وهكذا نشاهد بأن الطبقة المثقفة المفكرة في الأمة وقد جرت في ركاب حكامها وباعت أقلامها لأهل الباطل ، فدونت تاريخ الجاهلية وتاريخ الوثنية ، وجعلت من أصحابه عظماء وحكماء ..

لقد رزئت مصر بملوك فراعنة قادوا الأمة في حروب أنهكت موارد الأمة من أجل التوسع والسيطرة والزعامة ، وليست من أجل دفع ظلم وقع على مظلوم ، وليس من أجل تحقيق العدالة في حياة البشرية ، مثال ذلك الحروب التي خاضها تحوتمس الثالث في بلاد الشام وعلى أرض الرافدين[2] .

لقد رزئت مصر بحكام أغرم معظمهم بسفك الدماء ، دليل ذلك تصرف امنحتب الأول من أمراء المدن السورية الذين حاولوا التحرر من قبضة الحكم الفرعوني ، لقد كان انتقام أمنحتب من أعدائه شديدا ، لقد أحضر معه سبعة من أمراء المدن السورية إلى طيبة « وقد قتل منهم ستة أمام الإله آمون في طيبة » ، أما السابع فقد أرسله إلى نباتا ليشنق هناك أمام آمون سيد جَبَل برقل »[3]. وهكذا يكون الأمر إذا خلت القلوب من الإيمان بالله الواحد القهار .

لقد رزئت مصر بحكام كانوا يحيون حياة مترفة . مثال ذلك أمنحتب الثالث الذى ركن إلى حياة الاستمتاع بين زوجاته وجواريه وطلب من ملك ميتاني وكان اسمه سوتارنا وهو ابن خال أمنحتب أن يزوجه إحدى بناته فأرسل إليه كيلوجيبا لتأييد المودة بين البلدين[4] .

وكأن هذا أصبح تقليدا جديدا ، إذ بعد أن مات سوتارنا تولى الملك بعده ابنه

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢٤٨ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٣٣ وما بعدها .

(٣) المرجع السابق ، ص ٢٤٥ .

(٤) مصر الفرعونية ، ص ٢٥٤ ، وهذه صورة مصغرة لما يجرى في عالمنا المعاصر .

توشراتا فأرسل إليه أميرة صغيرة السن وهي تاوجيبا في الوقت الذى كان فيه أمنحتب مريضا طاعنا في السن .

ولم تقتصر مصاهرته على بنات مصر(١) وبنات ميتاني ، بل تزوج من أميرات بابليات وآشوريات ، وكان يرسل إليه حكام المدن السورية كل عام عشرات من الفتيات الجميلات اللاتي كن يرسلن إليه مع الجزية ، وكان يلح في طلبهن ، وهكذا انقلبت حياة هذا الملك(٢) إلى حفلات يقيمها في قصره ، وأغرق نفسه إغراقا في نوع من الحياة لم يعرفها أحد ممن سبقوه .

ولكن أين الأمة ، أين الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر ؟ أين نظام الإسلام وشرعه الذى يقيد سلطان الحاكم ؟ وينظم العلاقة بين الحاكم والأمة ؟

يبدو أن الأمة كانت منومة مخدّرة ، مقيدة ، لما ضعف سلطان العقيدة فى قلبها ، ونكص الناس عن القيام بواجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وعطلت شريعة الله ونظامه ، لهذا كان لابد وأن يجرى فيهم سنة ربانية : ﴿ **وكذلك نولى بعض الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون** ﴾ (٣)

---

(١) مصر الفرعونية ، ص ٢٥٤ ، ٢٥٥ .

(٢) « وكان أمنحبت الثالث في أواخر أيامه شخصا مهدما محطم الصحة ، بالرغم من أنه كان دون الخمسين ، لأنه أفرط في ملذاته ، وكانت السلطة مركزة في يد زوجته « تي » والقليل من الموظفين الذين كانوا طوع إرادتها » . مصر الفرعونية ، ص ٢٥٦ .

(٣) الأنعام : ١٢٩ .

obeikandl.com

الفصل الرابع

بعثة موسى عليه السلام إلى شعب مصر

الأسرة التاسعة عشرة

المبحث الأول

عصر بعثة موسى عليه السلام

الأسرة التاسعة عشرة

(١٣٢٠ ــ ١٢٠٥ ق . م ؟ ؟)

والمعلومات الواردة فى هذا المبحث مأخوذة من مراجع التاريخ القديم . ولا نملك تكذيبها أو تصديقها .

ومؤسس هذه الأسرة هو رمسيس الذى حكم مصر لمدة عامين . وأهم أعماله البدء فى إنشاء صالة الأعمدة الكبيرة بمعبد الكرنك . وقد خلفه على عرش البلاد ابنه سيتى الأول(١) .

سيتى الأول (١٣١٨ ــ ١٣٠١ ق . م) :

تنصب أعمال هذا الملك ، على إتمام الأعمال الإنشائية ، التى بدأها أبوه وخاصة صالة الأعمدة . وفى مجال النشاط العسكرى ، قام سيتى الأول بقيادة حملات حربية للقضاء على ثورة قامت ضد مصر فى فلسطين ، ولضمان بقاء مدن فينيقيا والجزء الجنوبى من سوريا داخل النفوذ المصرى . وقد جره هذا إلى الصدام ، ثم الصلح مع الحيثيين الذين قضوا على قوة الميتان فى أعالى الفرات ، وبدأوا يبذلون الجهود لتقويض نفوذ الحكم المصرى فى سوريا وفلسطين .

---

(١). مصر الفرعونية ، ص ٢٨٧ ــ ٢٩١

obeikandl.com

رمسيس الثانى :

تولى الحكم فى سن الخامسة والعشرين ، لمدة ٦٧ عاما [١] ، وكعادة من سبقوه اهتم بإتمام المنشآت المعمارية ، كما وجّه اهتمامه إلى استغلال مناجم الصحراء ، ويرتبط حكم هذا الملك بالنشاط المتزايد لمملكة الحيثيين التى ما فتئت تؤلب أمراء سوريا على الثورة والعصيان ضد الحكم المصرى لتقويض نفوذه فى آسيا ، ولذلك نرى رمسيس الثانى يخرج فى جيشه إلى آسيا ثلاث مرات ، الثانية فيها كانت لسحق جيوش الحيثيين التى تجمعت فى قادش ، وفى الطريق قبض جنود رمسيس على جاسوسين . أدليا بأقوال ملفقة لتضليل جيوش مصر : « إن جنود الحيثيين قد تركوا مدينة قادش وتقهقروا إلى حلب » ، والحقيقة أنهم كانوا مختبئين خلف تلال مدينة قادش ، وعبر الجيش المصرى نهر العاصى وعسكر شمال غرب مدينة قادش فى الوقت الذى قام الجيش بحركة التفاف منسحبا إلى ما وراء قادش ، ثم هاجم جيش رمسيس قبل أن تتجمع قواته كلها . فأذهلت المفاجأة رمسيس الثانى ، وانتهت المعركة فى اليوم الأول دون نتيجة حاسمة . واستؤنف القتال في اليوم التالى ، وانتهى إلى صلح بين الطرفين ، تعهد بمقتضاه كل طرف منهما أن يحترم حدود الآخر [٢] .

أما المرة الثالثة فقد خرج رمسيس فى جيشه للقضاء على ثورة قامت ضد الحكم المصرى فى فلسطين ، ويقال أنه قد نجح فى ذلك ، وأن هذه الحملة قد أعادت سيادة مصر على الشاطىء الفينيقى وربما بعض جزر البحر الأبيض .

وحينما بدأت قوة آشور تدخل مرحلة حاسمة فى تاريخها وأخذت تظهر كقوة يحسب حسابها ، آثر أحد أبناء [٣] الملك الحيثى بعد وفاة والده الارتباط برباط الصداقة مع مصر اتقاء لشر قوة آشور المتزايدة ولذلك نرى الملك رمسيس يرحب بذلك ووقعت معاهدة من الطرفين فى عام ١٢٨٠ ق . م لتؤكد هذه الصداقة [٤] .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢٩٢ ، ومابعدها ، وهكذا نلمح أن فراعنة مصر كانوا يهدرون أموال الأمة فى بناء معابد الأوثان وهي أطول مدة حكمها فرعون من الفراعنة بعد بيتى الثانى ، وهى فترة تكفى لولادة موسى وبعثته .

(٢) يقول الدكتور أحمد فخرى : إن رمسيس قد هزم فى المعركة مدللا على ذلك بأن مملكة أمورو والتى كانت تحت الحكم المصرى قد أصبحت موالية لحكم الحيثيين بعد تلك المعركة (المرجع السابق ، ص ٣٠٣) والعجيب ـ رغم هذا ـ فإن الملك رمسيس الثانى بعد رجوعه من هذه المعركة أقام الاحتفالات وأشاع فى الناس أنه انتصر وهو كاذب .

(٣) خاتوسيلى .

(٤) المرجع السابق ٢٩٧ ـ ٣٠٣ .

واستمرت هذه الصداقة وتوطدت أواصرها حينما جاء الملك « خاتوسيلى » إلى مصر ليزف ابنته إلى رمسيس الثانى فى العام الرابع والثلاثين من حكمه .

ولقد قام رمسيس الثانى بإنشاء سلسلة من الحصون على حدود مصر الغربية للتصدى لهجمات الشعوب **الهندوآرية** [1] التى بدأت تجتاح مناطق الشرق القديم عن طريق البر والبحر لتستقر فى آسيا الصغرى وفى جزر بحر إيجه وفى بلاد اليونان وفى شمال إفريقيا .

ومات رمسيس الثانى تاركا أسرة كبيرة قوامها ما يزيد على تسع وخمسين بنتا وما يزيد على تسعة وسبعين من الأبناء ، وذلك غير العديد من الزوجات وليخلفه على العرش ابنه مرنبتاح (هذا ما يقوله كتاب التاريخ القديم) .

مرنبتـاح :

لقد تولى هذا الملك حكم البلاد وقد ناهز الستين من عمره ، فى وقت كثرت فيه هجمات الشعوب الهندوارية ، ولذلك فإنه فى العام الثالث من حكمه وجه حملة عسكرية إلى آسيا لإخماد بعض الثورات هناك .

وقد ترك لنا أخبار هذه الحملة مسجلة على لوحته المعروفة باسم لوحة إسرائيل أما حملته المهمة الأخرى فقد وجهت ضد هجمات بعض الشعوب الهندوآرية بقيادة أحد رؤساء القبائل الذين هاجموا حدود مصر الغربية وقد هزمهم مرنبتاح وقتل وأسر منهم عدداً كبيراً عند مكان يسمى بريد غرب الدلتا [3] .

ومات مرنبتاح بعد ثمانية سنوات من جلوسه على عرش مصر ولم يخلفه ابن من صلبه بل خلفه إخوة تطاحنوا من أجل العرش وتفككت البلاد بعد أن استقل حكام الأقاليم بأقاليمهم ، وحارب بعضهم البعض ووصلت الأمور إلى حالة سيئة من الفوضى والاضطراب

---

(١) لقد كانت مملكة حيثيا بأسيا الصغرى أولى الممالك التى هوت واندثرت تحت ضغط هذه الهجمات التى بدأت تدق أبواب مصر من ناحية سورية وفلسطين .

(٢) مصر الفرعونية ، ص ٣٠٨ ـــ ٣١٠ .

(٣) ذكرت اللوحة أن إسرائيل أبيدت ولن يكون لها بذرة ، وأصبحت حورو (أى فلسطين وما جاورها) أرملة لمصر ، المرجع السابق ص ٣٩ .

(هذا ما ورد فى كتب التاريخ القديم) .

فى أثناء حكم هذه الأسرة ــ بعد أن خفت صوت التوحيد ، وتسلط الظلمة على دولاب الحياة التى أسنت ، تدخلت قدرة الله الفاعلة لإنقاذ الأمر ، فأذنت فى ميلاد وبعثة الرسول المسلم موسى عليه السلام إلى شعب مصر حُكّاما ومحكومين .

obeikandl.com

المبحث الثانى

رسول من أولى العزم يدعو شعب مصر إلى الإسلام

تمهيد :

بعثة موسى عليه السلام إلى شعب مصر ، خبر حفظه الله سبحانه وتعالى فى قرآن يتلى إلى يوم القيامة ، ليؤكد جملة حقائق يجب على البشرية أن تقف عندها وتتناولها بالدرس والتحليل ، عسى أن تدرك الغاية التى من أجلها خلقت ، فترجع إلى ربها وخالقها توحده ، وتعلن استسلامها لله رب العالمين .

وعلى أصحاب الدعوات أن يتناولوها بالدرس والتحليل ، والاستسلام لما ورد فيها من توجيهات من الله رب العالمين ويدركوا أن القضية الكبرى التى من أجلها خلق الله الكون ، واستخلف فيه الإنسان وأرسل الرسل — ومنهم موسى عليه السلام — مبشرين ومنذرين ، هى قضية لا إلـه إلا الله ﴿ **اعبدوا الله ما لكم من إلـه غيره** ﴾ .

وأن الدعوة إلى الله واجبة وهى أشرف الوظائف ، وأنها وظيفة الرسل عليهم السلام ، وأن المعروف الأكبر أن تكون شريعة الله حاكمة : ﴿ **إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه** ﴾ .

وأن الإسلام هو الدين الذى إليه دعا جميع الأنبياء والرسل ومنهم يوسف وموسى عليهما السلام ، وهو الدين الذى لايقبل الله من الأولين أو الآخرين غيره .

وأن الإسلام أصيل فى حياة شعب مصر قبل أن تولد اليهودية أو المسيحية وغيرها .

وأن الله سبحانه وتعالى قد أرسل الرسل لتحرير بنى آدم من ربقة الطاغوت وتعبيدهم لله الواحد القهار .

ويدركوا أيضاً : قد يأتى وقت يخفت فيه صوت التوحيد ، ويعجز المسلمون المستضعفون أن يقيموا دين الله فى حياة بنى آدم ، فضلاً عن أن يباشروه فى حياتهم ، ويتعرضون لشتى أنواع الاضطهاد التى تتمثل فى قتل الأطفال الذين لا ذنب لهم بلا جريرة ، ويتمثل فى استحياء النساء أو قتلهن كما حدث لامرأة فرعون ، وماشطة بنت فرعون ، ويطول ليل الظالمين ، لدرجة يمكن أن تصيب غير المؤمنين بالله ، باليأس والاستسلام للطاغوت وأعوانه ، فى هذه اللحظة التى يصاب فيها أهل الحق بالعجز تجاه طغيان الباطل وأهله تتدخل يد القدرة القاهرة ، الله رب العالمين ، لتدمير الطاغوت وأعوانه ، وتمكين الحق وأهله .

إنه قد يأتى وقت . يصبح الإسلام غريباً والمسلم غريباً فى أرض الله ، وقد يأتى وقت يوسد الأمر لغير أهله ، ويخوّن الأمين ، ويؤمن الخائن ويصبح الظلم سمتا غالبا فى حياة البشرية ، ولا يعنى ذلك أن الله قد ترك العباد يظلم بعضهم بعضا ولا يحاسبهم أو يعاقبهم ، حاشا لله أن يحدث ذلك ، إنما هو الإملاء للظالم على سبيل الاستدراج ﴿ **سنستدرجهم من حيث لا يعلمون . وأملى لهم إن كيدى متين** ﴾[1] « إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته » ، ﴿ **وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد** ﴾[2] .

موسى عليه السلام رسول كريم من أولى العزم يرجع نسبه إلى نبى كريم هو يعقوب (إسرائيل)[3] بن إسحاق النبى المسلم الكريم ، ابن إبراهيم النبى المسلم الكريم .

ولد موسى عليه السلام على أرض مصر فى ظل طغيان جارف كان يجتاح أرض مصر من أقصاها إلى أقصاها . ولد فى ظل حاكم طاغية فاسد (رمسيس الثانى) وظف جنده فى ذبح الأطفال واستحياء النساء ، ومزق الأمة وجعلها فرقا ، يتجسس بعضهم على البعض الآخر ، لحسابه ﴿ **وجعل أهلها شيعا ، يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم إنه كان من المفسدين** ﴾[4] .

---

(١) القلم : ٤٤ ــ ٤٥ .

(٢) هود : ١٠٢ .

(٣) لا علاقة مطلقا بين يعقوب (إسرائيل) عليه السلام النبى المسلم ، وبين القراصنة الذين اغتصبوا أرض فلسطين ، وأطلقوا عليها اسم إسرائيل ، لأن ذلك من باب التدليس من الغاصبين ليوهموا المجتمع الدولى بأنهم ورثة هذا النبى وإسرائيل عليه السلام النبىّ المسلم يبرأ إلى الله من الغاصبين اليهود فى الدنيا والآخرة . (ذرية إبراهيم والمسجد الأقصى ، للمؤلفين دار الوفاء للطباعة والنشر) .

(٤) القصص : ٤ .

ولكن كيف كان يسمح المجتمع ؟ كيف يسمح الرجال للنساء أن تستحيا ، وللأطفال أن تذبح ، وهم أحياء ، وهم وقوف ؟ أين الرجولة ، أين النخوة ، بل أين صراع الإنسان من أجل البقاء ، أين الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر ؟ أين بنو آدم ، أين الشياطين الخرس الذين قبلوا أن يحدث كل ذلك وهم وقوف متفرجون ، هل سلبيتهم أطالت أعمارهم أو أطالت ملكهم ، أو كثرت رزقهم ؟ ولكن لماذا نذهب بعيدا إلى عهد موسى عليه السلام ونترك الطغيان الذى لف المجتمعات المعاصرة ، ألم يقتل قياصرة الروس والشيوعيون الروس إخواننا فى بخارى وسمرقند والدويلات الإسلامية ، ألم يقتل ولا يزال يقتل الروس وأعوانهم من الخونة إخواننا أبناء المسلمين وإخواننا وأخواتنا فى أفغانستان ، ألم تقتل اليهود ويشرد معظم شعب فلسطين ولايزالون ، بعد أن اغتصبوا دياره وأرضه وأمواله ،

ألم تقتل أوربا خمسة وعشرين مليوناً من أبناء أفريقيا وهى تغتصب أبناء أفريقيا فى تجارة العبيد . ألم تبد أوربا شعوباً بأكملها فى القارة التى أطلق عليها اسم أمريكا [1] ، وتغتصب أرضها وديارها .

أليسَ القتل والإبادة مخطط البشرية المتمدينة ؟؟ وينفذ ضد المسلمين فى الفلبين وأريتريا والصومال .

لماذا إذن نذهب بعيداً ؟ إذن أين الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر هل ماتت فيهم النخوة والرجولة ؟ هل نسوا واجبهم ؟ هل نسوا أنهم سيقفون بين يدى الله ويسألون عن سلبيتهم ؟ هل يتصورون أن ذلك يمد فى آجالهم ويوسع عليهم فى أرزاقهم ؟

فى مثل هذه الظروف ولد موسى عليه السلام على أرض مصر وعين الله ترعاه وتربيه وتنشئه وتعده لحمل رسالة الإسلام إلى فرعون ، وهامان وجنودهما وشعب مصر .

ولد موسى ، وأمه وجلة عليه ، تخشى أن يقع وليدها فى يد الطاغية أو أعوانه فيحرمونه من نعمة الحياة ، فإذا بالوحى الإلـهى : ﴿ **وأوحينا** [2] **إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه فى اليم ولا تخافى ولا تحزنى ، إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين . فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزنا** ﴾ [3] .

---

(١) نسبة إلى أمريكوس فيسبونشى الإيطالى الجنسية .

(٢) يقول الإمام الحافظ : « وهو إلهام وإرشاد » (تفسير القرآن العظيم) .

(٣) القصص : ٧ ــ ٨ .

سبحان الحفيظ ، الذى حفظ الطفل الرضيع من الغرق ، سبحان الواحد القهار الذى يجرى كل شيء بقدر ، والذى علّم بنى آدم لا ينفع حذر من قدر ، ففرعون بنفسه هو الذى يربى موسى عليه السلام الذى سيكون على يديه بإذن الله هلاك فرعون الطاغية وجنوده .

أين حذره ماذا فعل إزهاق أرواح الأبرياء من الأطفال ، ماذا فعل حرمان الأمهات من فلذات الأكباد بمجرد ولادتهم ؟ هل حمى الفرعون ؟ هل مكّنه من الوقوف فى وجه قدر الله عز وجل ؟ بالطبع لا .

ولكى يتحقق قدر الله ، دفع سبحانه وتعالى بفرعون إلى رعاية موسى وأهله ..

لقد ألقى الله حب موسى فى قلب امرأة فرعون ، فوقفت حائلاً بين فرعون وقتل موسى بعد أن عرف أنه من بنى إسرائيل ، وهذا غاية التحدى من القدرة العلية قدرة الله ، فى مواجهة طغيان بنى البشر ومكرهم الذى تزول منه الجبال : ﴿ **وقالت امرأة فرعون قرة عين لى ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا وهم لا يشعرون** ﴾[1] . سبحان الله ، لقد قتل الله سبحانه وتعالى فى فرعون الخائف على ملكه ونفسه ، الفزع من شبح الرسول الكريم ، وأذهب عنه الشعور ، بدور موسى عليه السلام ﴿ **وهم لا يشعرون** ﴾ .

﴿ **فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزنا إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين** ﴾ [2] .

سبحان الله ، سبحانك يا قادر يا عظيم ، وهل كانت الأم تخاف إلا من وقوعه فى هذه اليد ، « يد آل فرعون » .

التقطته يد الطاغية ، تحـدٍّ من القادر العظيم ، لذلك الظالم ولكل الظلمة من بعده الذين يبطشون ويقتلون ، ويحسبون أنهم بذلك يحمون أنفسهم من كيد الله رب العالمين ...

وحينما عرفت أم موسى أن وليدها وفلذة كبدها قد وقع فى يد الطغاة فزعت : ﴿ **وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً ، إن كادت لتبدى به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين . وقالت لأخته قصيه فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون . وحرمنا عليه**

---

(١) القصص : ٩ .

(٢) القصص : ٨ .

المراضع من قبل فقالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون . فرددناه إلى أمه كى تقر عينها ، ولا تحزن ولتعلم أن وعد الله حق ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ [1] .

نموذج عملى للرحمة من الرحمن الرحيم ﴿ **لولا أن ربطنا على قلبها** ﴾ لم يتركها لحيرتها ، لم يسمح للفزع أن يسيطر عليها لفترة طويلة والهدف لتكون من المؤمنين ... ورغم أن أم موسى تعلم أن ابنها فى اليد التى تحميه اليد التى تحوطه ، يد الله رب العالمين ، إلا أنها أخذت بالأسباب ، لقد أرسلت أخته تتحسس خبره ، وردّ الله الطفل الرضيع إلى أمه ، إنها الرحمة إنه الحب من الله لعباده الصالحين ﴿ **وألقيت عليك محبة منّى ولتصنع على عينى** ﴾ [2] .

﴿ **ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حُكماً وعلما وكذلك نجزى المحسنين . ودخل المدينة على حين غفلة** [3] **من أهلها ، فوجد فيها رجلين يقتتلان ، هذا من شيعته** [4] **وهذا من عدوه فاستغاثه الذى من شيعته على الذى من عدوه** [5] **، فوكزه** [6] **موسى فقضى عليه ، قال هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين . قال رب إنى ظلمت نفسى فاغفر لى فغفر له إنه هو الغفور الرحيم . قال رب بما أنعمت علىّ فلن أكون ظهيراً للمجرمين** ﴾ [7] .

إن نفس موسى الأبية لم تطق أن ترى مظلوماً يستنجد به ، ولا يجيره ، مظلوماً يستغيث به ولا يغيثه ، فانطلق يعين أخاه المظلوم ، ودفع الظالم : ﴿ **فوكزه موسى فقضى عليه** ﴾ إنه لم يكن يفكر لحظة واحدة أن يقتله ، لأنه يدرك أن قتل جندى من جنود الطاغوت ، أو قتل رأس الطاغوت ، لن يحرر بنى يعقوب (إسرائيل عليه السلام) لن يحرر شعب مصر من تسلط الفراعنة ، لن يقيم دولة الإسلام التى تصبح الحاكمية فيها لله رب العالمين فيأمن الناس فيها على أموالهم وأعراضهم وأولادهم ، إن قتل جندى من جنود الطاغوت أو حتى قتل الطاغوت لن ينهى المظالم التى يتعرض لها بنو البشر ، لن ينهى الغربة

---

(١) القصص : ١٠ ــ ١٣ .
(٢) طه : ٣٩ .
(٣) نصف النهار .
(٤) من بنى يعقوب **النبى** المسلم .
(٥) وكان كافرا مشركا بالله العظيم (البداية والنهاية ، جـ ١ ، ص ٢٤١) .
(٦) طعنه بجمع كفه .
(٧) القصص : ١٤ ــ ١٧ .

التى يعيشها الإسلام والمسلمون .. وأدرك موسى ما وقع منه ، ولكن المحظور قد وقع ، فماذا يفعل ، توجه إلى الله يعترف بذنبه ويطلب المغفرة من الله الذى يغفر الذنوب « يا عبادى إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً ، فاستغفرونى أغفر لكم » .

وكان الاستغفار والعهد على النفس : ﴿ **قال رب بما أنعمت على فلن أكون ظهيراً للمجرمين** ﴾ [1] ورغم ذلك فقد كاد موسى أن ينسى مرة أخرى حينما استجار به المشاغب ﴿ **فإذا الذى استنصره بالأمس يستصرخه** ﴾ .

ووصل خبر القتيل إلى طواغيت مصر فتآمروا على قتل موسى عليه السلام : ﴿ **وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى قال يا موسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إنى لك من الناصحين** ﴾ [2] الحمد لله رب العالمين ، لقد قيض الله رجلاً ناصحاً ، يحمل إليه التحذير اخرج « لقد قرر الطاغوت التخلص منك » ... قبل التحقق من الخبر ، بدون عقد محاكمة عادلة ، وبدون معرفة الدافع إلى هذا الذى وقع ، وأن موسى عليه السلام لم يكن يقصد قتله ... ولكن الطاغوت المنتفش بقوته .. الذى لا يفكر بعقله ماذا فعل موسى ... ﴿ **فخرج منها خائفاً يترقب قال رب نجنى من القوم الظالمين** ﴾ [3] لقد توجه وقد أحيط به ، واتضحت أبعاد المؤامرة على حياته ، توجه إلى الجهة التى تملك حياته ، وتملك حفظه ونجاته إلى الله رب العالمين « قال رب نجنى » فكانت النجاة وكان الحفظ من الله الحفيظ العليم .

﴿ **ولما توجه تلقاء مدين قال عسى ربى أن يهدينى سواء السبيل** ﴾ [4] خرج مطارداً وهو لا يدرى أين يتوجه ولا إلى أين يذهب فعين الله تحميه وتحرسه ، وإذا بإرادة الله توجهه إلى سواء السبيل ، إلى مدين « حيث أنعم الله عليه بالأمن والأمان والطعام والشراب والسكن والزوجة الصالحة والصحبة الطيبة ﴿ **ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ، ووجد من دونهم امرأتين تذودان ، قال ما خطبكما قالتا لا نسقى حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير** [5] . **فسقى لهما ثم تولى إلى الظل فقال رب إنى لما أنزلت إلىّ من خير فقير . فجاءته إحداهما تمشى على استحياء قالت إن أبى يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا فلما جاءه وقص عليه القصص قال لا تخف نجوت من القوم**

---

(١) القصص : ١٧ .
(٢) القصص : ٢٠ .
(٣) القصص : ٢١ .
(٤) القصص : ٢٢ .
(٥) وعذرهما فى الخروج ، أن أباهم شيخ كبير .

الظالمين . قالت إحداهما يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوى الأمين . قال إنى أريد أن أنكحك إحدى ابنتى هاتين على أن تأجرنى ثمانى حجج فإن أتممت عشرا فمن عندك وما أريد أن أشق عليك ستجدنى إن شاء الله من الصالحين . قال ذلك بينى وبينك أيما الأجلين قضيت فلا عدوان على والله على ما نقول وكيل ﴾ (١) .

وفى هذا تطمين لقلوب المضطهدين لدينهم فى سائر الأوطان ، تطمين لقلوب الذين يستشهدون ، أو يبتلون بتمضية أعمارهم وراء قضبان السجون ، مُخلِّفين وراءهم أطفالهم ونساءهم ... ، إن الله يرعاهم ويرعاكم فهو الكفيل بأرزاقهم وبإيوائهم ، فهو الكفيل بتدبير الكساء والمسكن والسكن لهم . تماماً كما فعل الله بموسى عليه السلام : ﴿ **ومن يتق الله يجعل له مخرجا . ويرزقه من حيث لا يحتسب** ﴾ (٢) ﴿ **سيجعل الله بعد عسر يسرا** ﴾ (٣) .

وفى هذا بيان ، للمرأة التى تنكرت لدينها وإسلامها ، فخرجت من بيتها ، تزاحم الرجال ، وتكشف عن عورتها ، للمرأة التى تمثل دور الشيطان فى إغواء بنى آدم ، إن الأصل فى المرأة ﴿ **وقرن فى بيوتكن ولا تبرجن** ﴾(٤) .

إن الخروج لا يكون إلا لضرورة بالضوابط الشرعية ، أن لا يبدو منها شىء من عورتها .

وفى هذا بيان لمن عندهم فتيان وفتيات يبلغن سن الزواج ، إنه من الواجب الإحصان ، ولا بد من الاختيار ﴿ **ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم** ﴾(٥) ﴿ **ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم** ﴾(٦) .

وفى هذا بيان للرحمة التى تسود بكاملها المسلمين ﴿ **وما أريد أن أشق عليك** ﴾ وبيان لأهمية الوفاء بالعهود والعقود ﴿ **قال الله على ما نقول وكيل** ﴾(٧) .

ومضت السنون والأعوام وتم إعداد الرسول الكريم للمهمة العظمى ، إلى أعتى ملوك الأرض فى زمانه ، فرعون مصر الطاغية .

﴿ **فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من جانب الطور نارًا ، قال لأهله**

---

(١) القصص : ٢٣ ــ ٢٨ .
(٢) الطلاق : ٢ ــ ٣ .
(٣) الطلاق : ٧ .
(٤) الأحزاب : ٣٣ .
(٥ ، ٦) البقرة : ٢٢١ .
(٧) يوسف : ٦٦ .

امكثوا إنّى آنست ناراً لعلى آتيكم منها بخبرٍ أو جذوة من النار لعلكم تصطلون . فلمّا آتاها نودى من شاطىء الوادى الأيمن فى البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى إنى أنا الله رب العالمين . وأن ألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبراً ولم يعقب يا موسى أقبل ولا تخف إنك من الآمنين . اسلك يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء واضمم إليك جناحك من الرهب فذانك برهانان من ربك إلى فرعون وملأه إنهم كانوا قوماً فاسقين ﴾ (١) .

إنه التكريم العلوى الجليل لبنى آدم ، الله سبحانه وتعالى فى عليائه يلقن عبده ورسوله موسى عليه السلام الأصل الأول من الأصول التى ينبغى على العبد معرفتها ﴿ **إنى أنا الله رب العالمين** ﴾ مالك العالمين .. المتعهد للعالمين بالإصلاح والتربية ، صاحب الحق وواضع النظام والشريعة التى يسير عليها البشر ... ﴿ **إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى** ﴾ (٢) ... تعريف بالله وما ينبغى على العبد تجاه ربه من إفراده وحده بالعبادة رب العالمين الذى لا تصلح العبادة وإقامة الصلاة إلا له وإن هذه الدنيا ليست بدار قرار وإنما الدار الباقية هى يوم القيامة التى لابد من كونها ووجودها . ﴿ **إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى . فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى** ﴾ (٣) .

﴿ **وأن ألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب ، يا موسى أقبل ولا تخف إنك من الآمنين** ﴾ (٤) . ﴿ **اسلك يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء إلى فرعون وملأه إنهم كانوا قوما فاسقين** ﴾ (٥) .

إذن هى النبوة وهى الرسالة إلى قوم فرعون وملأه .. ولابد من مؤيدات ، فهذه المؤيدات : حية تسعى ، يد تخرج بيضاء من غير سوء ، ومع ذلك سبع (٦) آيات بينات . إلى من ؟ إلى أعتى ملوك الأرض فى زمانه وملأه الذين وصفهم القرآن بالفسق ، وهكذا يتضح أن مصر قد رزئت بحكام طغاة ، يعاونهم قوم فاسقون .

---

(١) القصص : ٢٩ ــ ٣٢ .
(٢) طه : ١٤ .
(٣) طه : ١٥ ــ ١٦ .
(٤) القصص : ٣١ .
(٥) القصص : ٣٢ .
(٦) وهى المبسوطة فى سورة الأعراف ...

وامتثل موسى لأمر الله ، ومع ذلك أبدى مخاوفه من بطش فرعون الطاغية : ﴿ **قال رب إنى قتلت منهم نفسا فأخاف أن يقتلون . وأخى هارون هو أفصح منى لساناً فأرسله معي ردءاً**[1] **يصدقنى إنى أخاف أن يكذبون** ﴾ [2] .

وكانت الاستجابة من رب الأرض والسماء تطميناً لقلب رسوله واستجابة لخلجات نفسه :

﴿ **سنشد عضدك بأخيك ، ونجعل لكما سلطاناً فلا يصلون إليكما بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون** ﴾ [3] .

هذا تطمين لأصحاب الدعوات ، أنهم فى حفظ الله ورعايته ﴿ **فلا يصلون إليكما** ﴾ ، وتطمين لأصحاب الدعوات ، لا يغرنكم قوة الطاغوت المنتفشة ، فإنها مقهورة ومغلوبة ، وأنتم الأعلون لأن الله معكم وناصركم .. وفيه توجيه لجند الحق يؤكد على أهمية الصحبة الطيبة ، السند ، العضد ، النصير فى الدعوة إلى الله .. وأن عصبة الخير ، عصبة الدعوة ، لابد وأن تحرص على أن تستمد العون فى مسيرتها وذلك لا يتأتى إلا إذا حسنت علاقتها بالله ، وعرفت الطريق لاستمطار رحماته ، والطريق هو الصلاة ، والذكر والتسبيح شكراً لله على آلائه .

وفى هذا بيان للبشرية أن الله سميع بصير ، وأنه مطلع على السرائر . إن المعركة بين أهل الحق وأهل الباطل هو الذى يديرها من فوق سبع سموات ، وهو الذى يوجه أحداثها ﴿ **فاذهبا بآياتنا إنا معكم مستمعون** ﴾ .

﴿ **فأتيا فرعون فقولا إنا رسول رب العالمين . أن أرسل معنا بنى إسرائيل** ﴾ [4] وهنا انتفض الطاغية كأنما لدغته أفعى ، لقد تجرأ عليه من كشف حقيقة أمره أمام الناس أمام الحاشية .

---

(١) أى اجعله معينا وردءا ووزيرا يساعدنى ويعيننى على أداء رسالتك إليهم فإنه أفصح منى لسانا وأبلغ بيانا .

(٢) القصص : ٣٣ ــ ٣٤ .

(٣) القصص : ٣٥ ، (سلطانا) أى برهاناً ، (فلا يصلون إليكما) أى فلا ينالون منكما مكروها بسبب قيامكما بآياتنا .

(٤) الشعراء : ١٦ ــ ١٧ .

وبدلاً من أن يستسلم فإذا به يوغل فى الجرأة على رب العالمين : ﴿ **قال فرعون وما رب العالمين** ﴾ (٢) ؟ تناسى الطاغية رب العالمين الذى خلقه وهداه ورزقه . والذى يميته ثم يحييه .. تجاهل كل ذلك .. وقال فى بجاحة ﴿ **وما رب العالمين** ﴾ فرد موسى يعرف الطاغية بربه رب العالمين وهى أول المسائل التى ينبغى على العبد معرفتها : ﴿ **رب السمٰوات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين** ﴾ (٢) يعنى رب العالمين خالق هذه السمٰوات والأرض المشاهدة وما بينهما من المخلوقات المتجددة من السحاب والرياح والمطر والنبات والحيوانات التى يعلم كل موقن أنها لم تحدث بأنفسها ولابد لها من موجد ومحدث وخالق وخالقها هو الله الذى لا إلٰه إلا هو رب العالمين .

ولم يرعوى الطاغية ، وقال لمن حوله على سبيل التهكم والتنقص لما قرره موسى عليه السلام : ﴿ **ألا تستمعون** ﴾ (٣) .

وكان من الواجب على بطانة السوء أن ترد ، وكان من الواجب على الشياطين الخرس أن يتكلموا ويقولوا نعم إنه يقول الحق ، فربنا هو رب العالمين ولست أنت يا فرعون .. ولكن ماتت فيهم المروءة وماتت فيهم النخوة والرجولة ...

واستمر موسى عليه السلام يعرف بربه : ﴿ **ربكم ورب آبائكم الأولين** ﴾ (٤) .

ولكن فرعون وهو دأب كل طاغية فى كل زمان ، ومكان ، لم يستفق من رقدته ولا نزع عن ضلالته بل استمر فى طغيانه وعناده وكفرانه ﴿ **قال إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون** ﴾ .

سبحان الله ، رسول يدعو بالحكمة والموعظة الحسنة ويقدم الدليل على صدق رسالته ، يقابل بهذه المقابلة السيئة ، اتهامه بالجنون(٥) .. هذا دأب الطاغوت ولكن لماذا ؟ لأنه حطم القاعدة التى يقوم عليها حكم الطاغوت .. لقد عرف الناس أن الذى يجب أن

---

(١) الشعراء : ٢٣ .
(٢) الشعراء : ٢٤ .
(٣) الشعراء : ٢٥ .
(٤) الشعراء : ٢٦ .
(٥) لقد أقام موسى وأخوه الحجة العقلية المعنوية والحسية على فرعون اللئيم وذلك أن فرعون قبحه الله أظهر جحد الصانع تبارك وتعالى وزعم أنه الإله ﴿ **فحشر فنادى . فقال أنا ربكم الأعلى** ﴾ ﴿ **وقال ياأيها الملأ ما علمت لكم من إله غيرى** ﴾ .. وهو فى هذه المقالة معاند يعلم أنه مربوب وأن الله هو الخالق البارىء المصور الإله الحق كما قال تعالى ﴿ **وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا فانظر كيف كان عاقبة المفسدين** ﴾ .

يعبد هو الله رب العالمين الخالق ﴿ **رب المشرق والمغرب وما بينهما** ﴾ . فالذى يخلق هو الذى يعبد .. وأن ملكهم وفرعونهم لا يملك خلقا ، ولا إحياء ولا إماتة .. ورغم إدراكهم لهذه الحقيقة فهم لا يتحركون ولا يقولون لفرعونهم ما جاء به موسى هو الحق لأنهم لا يستطيعون .

ولم تقف سفاهة الفرعون عند هذا الحد ، بل انطلق يهدد ويتوعد : ﴿ **قال لئن اتخذت إلها غيرى لأجعلنك من المسجونين . قال أولو جئتك بشيء مبين . قال فأت به إن كنت من الصادقين . فألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين . ونزع يده فإذا هى بيضاء للناظرين** ﴾ (١) .

وقدم موسى عليه السلام كل الآيات الصادقات الدالة على صدقه ، فلم يزدد الفرعون إلّا عتوّا وكفراً .

﴿ **ولقد أريناه آياتنا كلها فكذب وأبى . قال أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك ياموسى . فلنأتينك بسحر مثله فاجعل بيننا وبينك موعداً لا نخلفه نحن ولا أنت مكانا سوى . قال موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى** ﴾ (٢) .

إذن فرعون معاند مكابر فرغم أن الأدلة والبراهين التى عرضها موسى تؤكد أنه رسول من رب العالمين ، أصر فرعون على كفره ، ولم يقف عند هذا الحد بل اتهم موسى صاحب الرسالة بأنه ساحر وأنه يريد أن يقلب النظام الحاكم ويقضى على حكم الفراعنة (٣) ، ويقوم هو بحكم مصر وإيغالا فى التحدى زعم أنه سيفضح أمره وأنه سيأتى بسحر مماثل ويبطل به سحر موسى فى زعمه . وتحدد الموعد . يوم الزينة وهو يوم عيد من أعيادهم وتجمع لهم فى أول النهار .

واستطاع الطاغوت ـ وقد استخف بقومه ـ أن يحشد صفوفهم ﴿ **فأجمعوا كيدكم** ثم

---

(١) الشعراء : ٢٩ ـ ٣٣ .
(٢) طه : ٥٦ ـ ٥٩ .
(٣) وهكذا يتضح لنا أن الباطل حريص على الوقوف فى وجه دعوة الله بشتى الوسائل ، والتشكيك فيها وفى أصحابها وتوجيه التهم التى تخوّل للباطل قتلهم أو إبعادهم . مثلما ادعى فرعون أن موسى جاء ليقلب نظام الحكم : ﴿ **لتخرجنا من أرضنا بسحرك ياموسى** ﴾ وهذا دأب الطاغوت فى كل زمان ومكان .

ائتو صفا وقد أفلح اليوم من استعلى ﴾ [1] .. ولكن أنى يعارض البهتان والسحر والهذيان خوارق العادات التى أجراها الديان على يدى عبده الكليم ورسوله الكريم المؤيد بالبرهان الذى يبهر الأبصار وتحار فيه العقول والأذهان [2] .

﴿ **فتولى فرعون فجمع كيده ثم أتى** ﴾ [3] .

وصدق الله القائل : ﴿ **وقد مكروا مكرهم وعند الله مكرهم وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال** ﴾[4] ﴿ **قال لهم موسى ويلكم لا تفتروا على الله كذبا ، فيسحتكم بعذاب وقد خاب من افترى** ﴾ [5] تحذير من صاحب الدعوة ، تحذير من النبى الكريم لبطانة الفرعون من السحرة المستأجرين ﴿ **لا تفتروا على الله كذباً** ﴾ لقد وعظهم وزجرهم عن تعاطى السحر الباطل الذى فيه معارضة لآيات الله وكتبه ولكن المستضعفين الذين رضعوا الذلة والاستكانة لا يملكون إلا أن يطأطئوا رؤوسهم للطاغية وينفذوا أوامره .

﴿ **فتنازعوا أمرهم بينهم وأسروا النجوى . قالوا إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى . فأجمعوا كيدكم ثم ائتوا صفا وقد أفلح اليوم من استعلى** ﴾ [6] .

وهكذا شوه أهلُ الباطل ، صاحب الدعوة إلى الله ، وتناقل الناس هذا التشويه وهذه التهم ، لأن الباطل يمسك بناصية الأمور ، لأن الباطل يملك أجهزة الإعلام فسخرها لتشويه الإسلام وأهله ، وهذا دأب الباطل والجاهلية فى كل مكان . الدعاة إلى دين الله إلى الإسلام صورهم النظام الفرعونى الكافر أنهم سحرة ، صور موسى وأخاه بأنهما ساحران يتآمران على النظام الحاكم . ومرادهم أن يجتمع الناس عليهما ويصولا على الملك وحاشيته ويستأصلاكم عن آخركم ويستأمرا عليكم بهذه الصناعة » .

سبحان الله نفس التهمة التى وجهها فرعون منذ آلاف السنين إلى الدعاة إلى الإسلام هى نفسها التى يوجهها الطاغوت إلى حملة هذا الدين فى عالمنا المعاصر .

﴿ **قالوا ياموسى إما أن تلقى وإما أن نكون أول من ألقى . قال بل ألقوا فإذا**

---

(١) طه : ٦٤ (٢) البداية والنهاية جـ ١ ص ٢٥٥ . (٣) طه : ٦٠

(٤) إبراهيم : ٤٦ . (٥) طه : ٦١ . (٦) طه : ٦٢ — ٦٤ .

حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم [1] أنها تسعى . فأوجس فى نفسه خيفة موسى ﴾[2] فأمر الله تعالى ﴿ **لا تخف إنك أنت الأعلى . وألق مافى يمينك** [3] **تلقف ماصنعوا إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى** ﴾[4] .

ألقى موسى عصاه وهو يردد ﴿ **ما جئتم به السحر إن الله سيبطله إن الله لا يصلح عمل المفسدين** ﴾ لابد وأن يكشف أمر الجاهلية أمر الذين يدجلون على الشعب الذين خدعوا أمتهم وزيفوا الحقائق ، لابد وأن يأتى يوم يعرف الناس الحقيقة ويدركون هذا الدين الذى لا يقبل من الأولين أو الآخرين غيره . ماذا حدث بعد ذلك ؟

﴿ **فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين . وألقى السحرة ساجدين . قالوا آمنا برب العالمين . رب موسى وهارون** ﴾ [5] .

لقد كشف الله عن قلوب السحرة غشاوة الغفلة وأنارها بما خلق فيها من الهدى وأزاح عنها الغشاوة وأنابوا إلى ربهم وخروا له ساجدين وقالوا جهرة للحاضرين ، ولم يخشوا عقوبة ولا بلوى : ﴿ **آمنا برب موسى وهارون** ﴾[6] وأسقط فى يد الطاغية ، وأتى من حيث لا يدرى ، فإذا أمره قد انكشف وسقطت الغشاوة عن كثير من الأبصار التى أعماها الغش والطغيان عن رؤية الحق واتباعه ، وحينما أتيحت الفرصة وتجلى الحق ، إذا بالقلوب التى فطرها الله على الإيمان بالله رب العالمين ، فتعلن كفرها بالطاغوت ، بفرعون وتؤمن بالله رب العالمين .

أما فرعون الطاغوت فقد رفض الانصياع لأمر الله بعد أن ظهر الدليل والبرهان ، ليس هذا فحسب ، بل تهدَّد الذين آمنوا بالله رب العالمين بمجرد ما تجلى لهم الحق من عند ربهم ﴿ **قال آمنتم له قبل أن آذن لكم** ﴾ وكأن الإيمان بالله رب العالمين يحتاج إلى إذن من الطاغوت ، وأردف ذلك باتهام آخر ﴿ **إنه لكبيركم الذى علمكم السحر** ﴾ ثم أتبع ذلك بالتهديد إما أن يرتدّوا وإما القتل .

---

(١) ﴿ **فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم** ﴾ .

(٢) طه : ٦٥ ــ ٦٧ .

(٣) ﴿ **فألقى موسى عصاه ، فإذا هى تلقف ما يأفكون** ﴾ ﴿ **فوقع الحق وبطل ماكانوا يعملون** ﴾ .

(٤) طه : ٦٨ ــ ٦٩ .

(٥) الأعراف : ١١٩ ــ ١٢٢ .

(٦) البداية والنهاية ، جـ ١ ، ص ٢٥٦ .

﴿ **فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم فى جذوع النخل ولتعلمن أينا أشد عذابا وأبقى** ﴾ سبحان الله . لماذا ؟ لأنهم آمنوا بالله رب العالمين وهل الإيمان بالله رب العالمين الخالق الرازق المحيى والمميت جريمة ؟ ... نعم فى عرف الطاغوت جريمة لأن الناس بتحررهم من ربقة الطاغوت وإيمانهم بالله ، لن يجد الطاغوت من يستعبده ، من يرضى شهوته إلى الاستكبار والكبر ، لن يجد من يصفق له ، لن يجد من يجعله مطية لتحقيق رغباته وشهواته .

ومن هنا جاء التهديد بالقتل للمسلمين الذين استسلموا لله رب العالمين مع موسى عليه السلام وكفروا بالطاغوت .

ماذا فعل هؤلاء المسلمون لقد قالوهـا كلمـة سجلها لهم رب السماء وسجلتها لهم الدنيا كلها كنموذج يحتذى :

﴿ **قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذى فطرنا فاقض ما أنت قاض ، إنما تقضى هذه الحياة الدنيا . إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى . إنه من يأت ربه مجرما فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيا . ومن يأته مؤمنا قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلي . جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء من تزكى** ﴾ [1] .

لقد طلقوا تصورات الجاهلية بعد أن استبان لهم نور الحق ، واستهانوا بكل شيء من

---

(١) أورد الإمام الحافظ ابن كثير تعليقا على هذا الموقف :

« لما سجد السحرة رأوا منازلهم وقصورهم فى الجنة تهيأ لهم وتزخرف لقدومهم ولهذا لم يلتفتوا إلى تهويل فرعون وتهديده ووعيده وزلته لأن فرعون لمّا رأى هؤلاء السحرة قد أسلموا وشهدوا وذكروا موسى على هذه الصفة الجميلة أفزعه ذلك ورأى أمرا بهره وأعمى بصيرته وبصره وكان فيه كيد ومكر وخداع وصنعة بليغة فى الصد عن سبيل الله فقال مخاطبا للسحرة بحضرة الناس ﴿ **آمنتم له قبل أن آذن لكم** ﴾ أى هلا شاورتمونى فى هذا الأمر الفظيع بحضرة رعيتى . ثم تهدد وتوعد وأبرق وأرعد وكذب فأبعد قائلا ﴿ **إنه لكبيركم الذى علمكم السحر** ﴾ وقال فى الآية الأخرى ﴿ **إنَّ هذا لمكر مكرتموه فى المدينة لتخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون** ﴾ .

وهذا الذى قاله من البهتان يعلم كل فرد عاقل مافيه من الكفر والكذب والهزيان بل لا يروج مثله على الصبيان فإن الناس كلهم من أهل دولته وغيرهم يعلمون أن موسى لم ير هؤلاء يوما من الدهر فكيف يكون كبيرهم الذى علمهم السحر . ثم هو لم يجمعهم ولا علم باجتماعهم حتى كان الفرعون هو الذى استدعاهم واجتباهم من كل فج عميق وواد سحيق ومن هواجر بلاد مصر .

متاع الدنيا ، وحملوا رؤوسهم على أكفهم ابتغاء مرضات الله فى سبيل دينهم والهدف والغاية أصلا فى أن يغفر الله لهم ذنوبهم ، وما اقترفوه فى جاهليتهم ، أملاً فى أن يأخذ الله بأيديهم إلى الجنة التى جعل الله درجاتها العليا للمؤمنين الذين يعملون الصالحات . يقول الإمام الحافظ ابن كثير « والظاهر من هذه السياقات (الآيات القرآنية) أن فرعون لعنه الله صلبهم وعذبهم رضى الله عنهم ، قال عبد الله بن عباس وعبيد بن عمير : كانوا من أول النهار سحرة فصاروا فى آخره شهداء بررة . ويؤيد هذا قولهم ﴿ **ربنا أفرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين** ﴾ [1] .

وسقط الشهداء وهذا هو طبيعة طريق أصحاب الدعوات ، ﴿ **ألمّ أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون** ﴾ [2] ، ولكن ذلك لم يوقف دعوة الله ، ولم يطفىء نور الله ونور الإسلام ، فها هى المسيرة تستمر بقيادة موسى ومن تبقى معه من المؤمنين الموحدين ولكن الطاغوت وأعوانه لا يطيقون الحق متحركا أو ساكنا أمام عيونهم ﴿ **وقال فرعون ذرونى أقتل موسى** [3] **وليدع ربه إنى أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر فى الأرض الفساد** ﴾ [4] ولهذا يقول الناس على سبيل التهكم « صار فرعون مذكرا » .

وهذا هو دأب الطاغوت فى كل زمان حرص على قتل الرسل وأصحاب الدعوات والمؤمنين الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر أو إخراجهم من الديار ﴿ **وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن فى ملتنا** ﴾ .

---

(١) البداية والنهاية ، جـ ١ ، ص ٢٥٨ . الآية من سورة الأعراف : ١٢٦ .

(٢) العنكبوت : ١ ــ ٢ .

(٣) وتجاوب فرعون رأس الطاغوت مع صيحات الملأ الموتورة ﴿ **قال سنقتل أبناءهم ونستحيى نساءهم وإنا فوقهم قاهرون** ﴾ .

وهذا هو موقف أعداء الإسلام المنتفشين بقوتهم ، سنقتل ونعتقل ، نقتل الأبناء ونعتقل النساء ولا يهمنا شىء وإنا فوقهم قاهرون : هكذا بكل يسر وسهولة لقد نسى الطاغية وغيره من الطغاة قدرة الله الواحد القهار ، نسوا أن الله من ورائهم محيط .. ويقول الله تعالى : « من عادى لى وليّا فقد آذنته بالحرب » .

إنه موقف المشركين من دعوة نوح عليه السلام ﴿ **لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين** ﴾ وموقف الفسقة من دعوة إبراهيم عليه السلام ﴿ **فألقوه فى سواء الجحيم** ﴾ .

وموقف الكفرة من دعوة صالح عليه السلام : ﴿ **لنبيتنه وأهله** ﴾ وهو موقف أعداء الإسلام من محمد ﷺ ﴿ **وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك** ﴾ ...

(٤) غافر : ٢٦ .

ولابد وأن يقترن هذا التآمر على الصف المسلم ، بتبرير تحشد فيه الأكاذيب ، أن يبدل دينكم أو أن يظهر فى الأرض الفساد . الذى يريد أن يحرر البشرية ويخرجها من الظلمات إلى النور ويقيم حكم الله فى الأرض ليأمن الناس على أعراضهم وأموالهم . يريد أن يظهر فى الأرض الفساد !

ماذا يفعل صاحب الدعوة إزاء هذا التهديد والتشكيك والتشويه لصورته أمام الناس ليس أمامه إلا الاعتصام بالله ﴿ **وقال موسى إنى عذت بربى وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب** ﴾ [1] أى عذت بالله ولجأت إليه بجنابه من أن يسطو فرعون وغيره بسوء عذت بالله من كل جبار عنيد لا يَرْعَوى ولا ينتهى ولا يخاف عذاب الله وعقابه لأنه لايعتقد معاداً ولا جزاء .

ولم تكتف بطانة السوء بما أريق من دماء الشهداء ، فهاهم يؤيدون فرعون الطاغية : ﴿ **وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا فى الأرض ويذرك وآلهتك** ﴾ .

سبحان الله .. موسى عليه السلام وقومه الذين كانوا يدعون إلى الإسلام الذين أرسلهم الله لتحريرهم من ربقة الطاغوت ، الذين كلفهم الله مهمة إخراج الناس من الظلمات إلى النور ، مفسدون فى الأرض ! ! !

وتعاونت أقلام السلطة ، وتعانق المأجورون ، وتعاونت أجهزة إعلام الطاغوت فى تشويه صورة الدعوة وصاحبها وأتباعها وهذا هو نفس الموقف الذى تقفه جاهلية القرن الرابع عشر الهجرى من دعوة الإسلام والمسلمين ، إنهم مفسدون فى الأرض ، إنهم متطرفون ، إنهم يريدون أن يحرموا الأمة من كل شىء حتى الفن والرقص والغناء .

وهاهى بطانة السوء تنبرى لتكرر قول فرعون رأس الطاغوت : ﴿ **وقال الملأ من قوم فرعون إن هذا لساحر عليم . يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون** ﴾ نفس كلمة فرعون الطاغية ، يردّدُونها ليؤلبوا الناس على الدعاة .. على حملة هذا الدين . « فماذا تأمرون » .

وهذا دأب بطانة السوء فى كل زمان ومكان ، ولا غرابة فى هذا فهذه هى طباعهم وخلقهم الذى صوره الله أحسن تصوير ﴿ **إنهم كانوا قوما فاسقين** ﴾ ، ﴿ **فاستكبروا**

---

(١) غافر : ٢٧ .

وكانوا قوما مجرمين ﴾ ، ولماذا يقفون هذا الموقف ؟ لأنهم يخشون على مكاسبهم الحرام التى حققوها ، يخشون على المال الحرام الذى جمعوه ، يخشون أن يطبق شرع الله فيقتص من الظلمة وأعوان الظلمة فيشملهم القصاص ، وهذا ما تخشاه بطانة السوء فى كل زمان ومكان .. ومن هنا ينبع تكاتفهم مع رأس الطاغوت لمنع إقامة دين الله فى الأرض .

ولكن المجتمع لا يحرم وجود أقوام صالحين ، فها هو رجل مؤمن من آل فرعون يشهد المؤامرة على الرسول موسى عليه السلام فلم يستطع صبراً ولم يملك نفسه فانطلق يدعو :

﴿ **وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه ، أتقتلون رجلا أن يقول ربّى الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم وإن يك كاذبا فعليه كذبه وإن يك صادقا يصبكم بعض الذى يعدكم إن الله لا يهدى من هو مسرف كذاب . ياقوم لكم الملك اليوم ظاهرين فى الأرض فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا قال فرعون ما أريكم إلا ماأرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد** ﴾[1] .

واستمر مؤمن آل فرعون فى تنبيه قومه إلى خطورة ماهم مقدمين عليه منكرا بما حل بالأمم السابقة :

---

(١) غافر : ٢٨ ــ ٢٩ .

إن هذا الرجل كان يكتم إيمانه ، فلمّا همّ فرعون لعنه الله بقتل موسى عليه السلام ، وعزم على ذلك وشاور الملأ ، خاف هذا المؤمن على موسى ، فتلطف فى ردّ فرعون بكلام جمع فيه الترغيب والترهيب ، فقال على وجه المشورة والرأى وقد ثبت فى الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال : « أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر » ، وهذا من أعلى مراتب هذا المقام فإن فرعون لأشد جوراً منه ، وهذا الكلام لا أعدل منه لأن فيه عصمة نبى : وقال : ﴿ **أتقتلون رجلا أن يقول ربّى الله** ﴾ أى من أجل أنه قال ربى الله ، فمثل هذا لا يقابل بهذا بل بالإكرام والاحترام والموادعة وترك الانتقام يعنى كأنه ﴿ **قد جاءكم بالبينات من ربكم** ﴾ أى بالخوارق التى دلت على صدقه فيما جاء به عمن أرسله فهذا إن وادعتموه كنتم فى سلامة لأنه ﴿ **إن يك كاذبا فعليه كذبه** ﴾ ولا يضركم ذلك ﴿ **وإن يك صادقا** ﴾ وقد تعرضتم له ﴿ **يصبكم بعض الذى يعدكم** ﴾ أى وأنتم تشفقون أن ينالكم أيسر جزاء فيما يتوعدكم به فكيف بكم إن حلّ جميعه عليكم ؟

هذا الكلام فى هذا المقام من أعلى مقامات التلطف والاحتراز والعقل التام ، وقوله ﴿ **ياقوم لكم الملك اليوم ظاهرين فى الأرض** ﴾ يحذرهم أن يسلبوا هذا الملك العزيز فإنه ما تعرض الدول للدين إلا سلبوا ملكهم وذلّوا بعد عزهم وكذا وقع لآل فرعون . مازالوا فى شك وريب ومخالفة ومعاندة لما جاءهم موسى به حتى أخرجهم الله وما كانوا فيه من الملك والأملاك والدور والقصور والنعمة ثم حولوا إلى البحر مهانين ونقلت أرواحهم بعد العلو والرفعة إلى أسفل سافلين ﴿ **فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا** ﴾ .

﴿ وقال الذى آمن ياقوم إنى أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب . مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم وما الله يريد ظلما للعباد . ويا قوم إنى أخاف عليكم يوم التناد [١] . يوم تولون مدبرين مالكم من الله من عاصم ومن يضلل الله فما له من هاد . ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فمازلتم فى شك مما جاءكم به حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب . الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان آتاهم كبر مقتا عند الله وعند الذين آمنوا كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار ﴾[٢] .

﴿ وقال فرعون يا هامان ابن لى صرحاً لعلى أبلغ الأسباب [٣] . أسباب السموات فأطلع إلى إله موسى وإنى لأظنه كاذبا وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصدّ عن السبيل وما كيد فرعون إلا فى تباب ﴾[٤] .

﴿ وقال الذى آمن ياقوم اتبعون أهدكم سبل الرشاد . ياقوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة هى دار القرار . من عمل سيئة فلايجزى إلا مثلها ومن عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب . ويا قوم مالى أدعوكم إلى النجاة وتدعوننى إلى النار . تدعوننى لأكفر بالله وأشرك به ماليس لى به علم وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار . لا جرم أن ماتدعوننى إليه ليس له دعوة فى الدنيا ولا فى الآخرة وأن مردنا إلى الله وأن المسرفين هم أصحاب النار . فستذكرون ماأقول لكم وأفوض أمرى إلى الله إن الله بصير بالعباد . فوقاه الله سيئات ما مكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب . النار يعرضون عليها غدوا وعشيا ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب ﴾ [٥] .

---

(١) يوم التناد : بتشديد الدال أى يوم الفرار ويحتمل أن يكون يوم القيامة ويحتمل أن يكون يوم يحل فيه البأس فيودون الفرار ولات حين مناص ﴿ فلما أحسوا بأسنا إذا هم منها يركضون . لا تركضوا وارجعوا إلى ماأترفتم فيه ومساكنكم لعلكم تسألون ﴾ .

(٢) غافر : ٣٠ ــ ٣٥ .

(٣) طرقها ومسالكها . وإنما كان مقصود فرعون أن يبعد الناس عن تصديق موسى عليه السلام وأن يخثهم على تكذيبه .

(٤) غافر : ٣٦ ــ ٣٧ .

(٥) غافر : ٣٨ ــ ٤٦ .

المبحث الثالث

قيام حكم الإسلام على أرض مصر على عهد موسى عليه السلام ومن معه من المسلمين

إن القضية الكبرى التى من أجلها خلق الله السمٰوات والأرض ، والتي من أجلها أرسل الرسل عليهم السلام ، هي قضية لا إلٰه إلا الله ، قضية الإسلام ، أى الاستسلام الكامل لله رب العالمين . هذه القضية كانت موضوع رسالة موسى عليه السلام إلى شعب مصر : ﴿ **وقال موسى يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين** ﴾[1] .

وقد ورد في الحديث عن رسول الله محمد ﷺ : « انتسب رجلان على عهد موسى عليه السلام ، فقال أحدهما : أنا فلان بن فلان حتى عد تسعاً ، فمن أنت لا أم لك ؟ قال : أنا فلان بن فلان بن الإسلام . فأوحى الله لموسى أن قل لهذين المنتسبين : أما أنت أيها المنتسب إلى تسعة في النار فأنت عاشرهم ، وأما أنت أيها المنتسب إلى اثنين فى الجنة ، فأنت ثالثهما في الجنة »[2] .

ولقد بينا في الفصل السابق ، كيف كان استقبال فراعنة مصر لهذه الدعوة ، وكيف جرى الصراع ، وكيف حسمه الله سبحانه وتعالى ، فأغرق فرعون وهامان وجنودهما ، ومكن لموسى عليه السلام ومن معه من المسلمين : ﴿ **ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ، ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين . ونمكن لهم في الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون** ﴾ .

---

(١) يونس : ٨٤ .

(٢) القرآن العظيم ، جـ ٢ ، ص ٢٤٢ . غالبا بعد عصر الأسرة التاسعة عشر المصرية .

والدليل على ذلك التمكين الذى تحقق لموسى ومن معه من المسلمين قول الله تعالى :

أولاً : ﴿ **فانتقمنا منهم فأغرقناهم في اليم بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين . وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون** ﴾(١) .

ثانيا : ﴿ **ولقد فتنا قبلهم قوم فرعون وجاءهم رسول كريم . أن أدُّوا إلىَّ عباد الله إنّى لكم رسول أمين . وأن لا تعلوا على الله إنّى آتيكم بسلطان مبين . وإني عذت بربي وربكم أن ترجمون . وإن لم تؤمنوا لي فاعتزلون . فدعا ربه أن هؤلاء قوم مجرمون . فأسر بعبادى ليلا إنكم متبعون واترك البحر رهوا إنهم جند مغرقون . كم تركوا من جنات وعيون . وزروع ومقام كريم . ونعمة كانوا فيها فاكهين . كذلك وأورثناها قوماً آخرين . فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين . ولقد نجينا بني إسرائيل من العذاب المهين . من فرعون إنّه كان عاليا من المسرفين . ولقد اخترناهم على علم على العالمين . وآتيناهم من الآيات ما فيه بلاء مبين** ﴾(٢) .

وبالنص القرآنى إيحاءات :

ـــ إن قوم فرعون قد أرسل فيهم رسول كريم وهو موسى عليه السلام يدعوهم إلى الإسلام.

ـــ إن موسى عليه السلام قد قدم لهم بين يدى دعوته الآيات البينات والأدلة القاطعات .

ـــ إن الكبر هو الذى يمنع الفرد من الانقياد لأمر الله عز وجل ، وهو مرض يؤدى بصاحبه إلى النار : ﴿ **إنَّ الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين** ﴾(٣) .

ـــ الإجرام سمت من سمات الكافرين ، ومن هنا دعا عليهم موسى عليه السلام :

(١) الأعراف : ١٣٦ ـــ ١٣٧ . يقول الإمام القرطبى : « الأرض هي أرض الشام ومصر . ومشارقها ومغاربها جهات الشرق والغرب بها » . (الجامع لأحكام القرآن ، جـ ٧ ، ص ٢٧٢) .

(٢) الدخان : ١٧ ـــ ٣٣ . تفسير القرآن العظيم ، جـ ٤ ، ص ١٤٠ ـــ ١٤١ .

(٣) غافر : ٦٠ .

﴿ **وقال موسى ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالاً في الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم . قال قد أجيبت دعوتكما فاستقيما ...** ﴾[1] .

ـــ إن الكفر بالله يؤدى إلى سلب النعمة من الكافر ، بل ويدمر الله عليه ، كما أن الإيمان بالله يؤدى إلى فتح أبواب النعم على المؤمنين : ﴿ **فأخرجناهم من جنات وعيون . وزروع ومقام كريم . ونعمة كانوا فيها فاكهين** ﴾ أى عيشة كانوا يتفكهون فيها . فيأكلون ما شاءوا ويلبسون ما أحبوا مع الأموال والجاهات والحكم في البلاد ، فسلبوا ذلك جميعه في صبيحة واحدة ، وفارقوا الدنيا ، وصاروا إلى جهنم وبئس المصير . واستولى على البلاد المصرية وتلك الحواصل الفرعونية والممالك القبطية[2] بنو إسرائيل[3] كما قال تعالى : ﴿ **كذلك وأورثناها بني إسرائيل** ﴾[4] ، وقال في الآية الأخرى : ﴿ **وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون** ﴾ . وقال عز وجل هنا : ﴿ **كذلك وأورثناها قوماً آخرين** ﴾ وهم بنو إسرائيل المسلمون ، ولا علاقة مطلقا بينهم وبين مغتصبى فلسطين اليهود الذين انتحلوا اسم نبى كريم هو يعقوب عليه السلام .

ـــ إن المؤمن إذا مات ، بكت لفقده السمٰوات والأرض ، والكافر إذا نفق لا يحزن لفقده شيء ، فعندما غرق فرعون وملأه : ﴿ **فما بكت عليهم السماء والأرض** ﴾ أى لم تكن لهم أعمال صالحة تصعد في أبواب السماء فتبكي على فقدهم ، ولا لهم في الأرض بقاع عبدوا الله تعالى فيها ففقدتهم[5] ، فلهذا استحقوا أن لا ينظروا ولا يؤخروا لكفرهم

---

(١) تفسير القرآن العظيم ، جـ ٤ ، ص ١٤١ ، المهم استقامة المسلم على أمر الله امتثالا لأمره : ﴿ **فاستقم كما أمرت** ﴾ ثم امتثالا لأوامر رسول الله ﷺ : « قل آمنت بالله ثم استقم » .

(٢) وكلمة قبطى فى اللغة المصرية القديمة تعنى مصرى ، ولا تعنى مسيحى .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٤١ .

(٤) كما قلنا لا علاقة مطلقا بين إسرائيل (يعقوب) النبى المسلم ومغتصبى فلسطين من اليهود .

(٥) أورد الحافظ أبو يعلى الموصلي في مسنده من رواية أنس بن مالك أن النبى ﷺ قال : « ما من عبد إلّا ولّه في السماء بابان : باب يخرج منه رزقه ، وباب يدخل منه عمله ، وكلامه ، فإذا مات فقداه وبكيا عليه » وتلا هذه الآية : ﴿ **فما بكت عليهم السماء والأرض** ﴾ . ورواه ابن أبي حاتم .

وقد أورد ابن جرير حديثا برواية شرخ قال : قال رسول الله ﷺ : « إنّ الإسلام بدأ غريبا وسيعود غريبا كما=

وإجرامهم وعتوهم وعنادهم[1] .

ومما لا شك فيه ، أن موسى عليه السلام كان إماماً على أرض مصر ، وأرض الشام بعد انهيار رمسيس الثانى ، وأنه أقام حكم الله وشرعه على أساس التوراة التي أنزلت ألواحها عليه .

والملفت للنظر ، أنّ مراجع التاريخ القديم تتجاهل فترة بعثة موسى عليه السلام وإمامته على أرض مصر بعد هلاك فرعون مصر الطاغية ، كما تجاهلت من قبل رسالة يوسف عليه السلام .

ولقد سبق وقلنا : إن المستشرقين الذين وضعوا مناهج التاريخ القديم التى تتجاهل الرسالات السماوية ، ينطلق من الحرص على طمس خط توحيد الله رب العالمين ، ومن هنا وجب علينا أن ننبّه إلى ذلك ونعيد دراسة تاريخ هذه الأمة فى ضوء الرسالات السماوية ، وبهذا تصبح الدراسات التاريخية منطلقة من العقيدة الإسلامية .

بدأ . ألا لاغربة على مؤمن ، ما مات مؤمن في غربة غابت عنه فيها بواكيه إلا بكت عليه السماء والأرض » ثم قرأ رسول الله ﷺ : ﴿ **فما بكت عليهم السماء والأرض** ﴾ ، ثم قال : « إنهما لا يبكيان على كافر » .

كما أورد ابن جرير رواية عن سعيد بن جبير قال : «أتى ابن عباس رضي الله عنهما رجل فقال : يا أبا العباس أرأيت قول الله تعالى : ﴿ **فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين** ﴾ فهل تبكي السماء والأرض على أحد ؟ قال رضي الله عنه : نعم إنه ليس أحد من الخلائق إلا وله باب في السماء منه ينزل رزقه وفيه يصعد عمله ، فإذا مات المؤمن فأغلق بابه من السماء الذى كان يصعد فيه عمله وينزل منه رزقه ففقده بكى عليه ، وإذا فقده مصلاه من الأرض التي كان يصلي فيها ويذكر الله عز وجل فيها بكت عليه . وإن قوم فرعون لم تكن لهم في الأرض آثار صالحة ، ولم يكن يصعد إلى الله عز وجل منهم خير ، فلم تبك عليهم السماء والأرض » .

(١) تفسير القرآن العظيم ، جـ ٤ ، ص ١٤٢ .

المبحث الرابع

عصر إمامة موسى عليه السلام
وخروج موسى عليه السلام على رأس جيش
من المسلمين لتحرير بيت المقدس
فى الفترة ما بين الأسرة التاسعة عشرة والعشرين

هنالك حدث ضخم هَزّ منطقة الشرق القديم هزاً عنيفا ، وهو إهلاك قادة الدولة الفرعونية رمسيس الثانى وولى عهده مرنبتاح ووزراءه وجنده غرقا : ﴿ **فانتقمنا منهم فأغرقناهم فى اليم** ﴾ . وبعدها استخلف الله موسى عليه السلام ومن معه من المسلمين الموحدين ﴿ **وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها** ﴾ وهذا تحقيقا لوعد الله ﴿ **ونريد أن نمنّ على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين . ونمكن لهم فى الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون** ﴾[1] .

ولكن كتب التاريخ القديم تجاهلت هذا الحدث ، تجاهلاً تاماً ، مع أنه ورد فى القرآن الكريم ، ولكن القرآن ليس مصدراً موثقاً لدى المستشرقين ومن سار على نهجهم من أعداء الإسلام والمسلمين !!!

وهناك أيضاً حدث ضخم تجاهلته أيضاً كتب التاريخ القديم وهو تسلط قوم جبارين على بيت المقدس ، وإعلان النفير العام ، وخروج جيش مصر الإسلامية بقيادة موسى عليه السلام لتحرير بيت المقدس التى كتب الله على المسلمين تحريرها وإقامة حكم الله عليها

---

(١) القصص : ٥ ــ ٦ .

وسكناها ﴿ **ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم** ﴾[1] .

(١) ارجع إلى كتابنا : الطريق إلى بيت المقدس ؛ ذرية إبراهيم والمسجد الأقصى ، طبعة دار الوفاء للطباعة والنشر بالمنصورة.

obeikandl.com

الفصل الخامس

تاريخ الأسرات

(من العشرين إلى الثلاثين)

مع التعليق على بعض الأحداث الواردة فى هذا الفصل فى ضوء العقيدة الإسلامية[1]

بخروج موسى عليه السلام على رأس جيش مصر الإسلامية لتحرير القدس ، انتهز الفراعنة الفرصة ووثبوا على السلطة ، مؤسسين ما تسمى بالأسرة العشرين .

ولا يفوتنا هنا أن ننبه ، أن مراجع التاريخ القديم ، قد زيفت تاريخ هذا الرسول المسلم (موسى عليه السلام) وغيره من الأنبياء المسلمين أمثال إبراهيم وإسحاق ويعقوب وداود وسليمان عليهم السلام ، فزعمت أنهم كانوا يهودا ، وذلك لخدمة مخطط اليهود فى اغتصاب فلسطين وبقية بلاد العالم العربى ، على اعتبار أنها ـــ حسب زعمهم وهم كاذبون ـــ ميراثهم عن هؤلاء الأنبياء ، وهذا هو السبب الذى من أجله انتحل اليهود اسم إسرائيل وأطلقوه على فلسطين المغتصبة ، ولقد كشفنا عن هذا التزييف والتشويه لتاريخ الأنبياء والرسل المسلمين الذين يبرأون إلى الله فى الدنيا والآخرة من اليهود قتلة الأنبياء ، فى مؤلفاتنا[2]. وليدرك القارئ أن المسلمين هم أولى الناس بإبراهيم وإسحاق ويعقوب (إسرائيل) وموسى وداود وسليمان عليهم السلام . وفلسطين هى ميراث الأمة المسلمة بعد

---

(١) والمعلومات الواردة هنا مستقاة من مراجع التاريخ القديم ولا تصمد أمام الجرح والتعديل ولا ينبنى عليها عمل . والهدف من سردها هنا لكى ننبه الأمة إلى خطورة استمرار إهدار أوقات الأمة فى دراسة وتدريس هذه المقررات فى المدارس والجامعات ، ولأسباب أخرى ذكرناها سابقا ، فى الوقت الذى تتجاهل فيه مراجع التاريخ القديم الرسالات السماوية التى كانت فى هذه المقترحات فى تاريخ الأمة .

(٢) ليس لليهود حق فى فلسطين ، الطريق إلى بيت المقدس ، ذرية إبراهيم والمسجد الأقصى . طبعة دار الوفاء للطباعة والنشر .

وفاة هؤلاء الأنبياء المسلمين .

الأسرة العشرون (١٢٠٠ ــ ١٠٩٠ ق . م) :

أهم ملوك هذه الأسرة هو رمسيس الثالث الذى تولى الحكم بعد وفاة والده « سن نخت » ولقد كانت بداية سنوات حكمه فترة إصلاح شامل لعديد من جوانب الحياة المصرية . كما تصدت قواتُ الجيش فى عهده لهجوم مِّن الشعوب الهندوآرية وحلفائهم من الليبيين على حدود الدلتا الغربية عندما كانوا فى طريقهم إلى منف ، وقد هزمتهم القوات المصرية وأسرت منهم عددا كبيرا .

وفى وقت آخر صدت القوات البرية المصرية وأسطولها البحرى غزوا من شعوب البحر الهندوآرية ــ الذين كانوا فى طريقهم إلى مصر عن طريق الشرق ــ وأنزلت بهم خسائر فادحة بهم ، وأنقذت البلاد وغرب آسيا من خطر محقق .

ودراسة الأحوال الاعتقادية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية لمصر فى ظل حكام الأسرة العشرين وخاصة عهد رمسيس الثالث ، تبين لنا مجتمعا شارداً عن هدى الله سبحانه ، فسدت فيه أحوال الناس والمجتمع نتيجة تسلط الحكام الفراعنة عليه ، وإغداقهم من أموال الأمة على معابد الأوثان ، لضمان تأييد سدنة المعابد وكهنتها للنظام الحاكم وقد أثر ذلك على اقتصاد البلاد ، وخير شاهد على ما نقول : ما نشره الأستاذ الدكتور أحمد فخرى عن الهبات والأوقاف التى أوقفها رمسيس الثالث على معبده بمدينة هابو بالأقصر .

« ونحن إذ نقرأ تفاصيل هذه الهبات فى بردية هاريس[1] ونعرف مدى ثراء كهنة المعابد وسلطانهم وما كان لديهم من أرقاء يعملون فى الأراضى الخاصة بالمعابد فإننا لا نملك أنفسنا من التفكير عن مدى أثر هذا الثراء على نظام الدولة من ناحية ، وعلى الدخل القومى من ناحية أخرى . فقد كان للإله آمون ــ رع وحده ثروة طائلة . إذ كان مجموع أراضيه نحو ١٠ ٪ من أراضى البلاد المزروعة (جميع الآلهة الأخرى كانوا يمتلكون ٥ ٪ أخرى) وكان لآمون ٨٦,٥٠٠ من الأرقاء الذين يعملون فى أراضيه ، وكان له خمسة قطعان من الماشية لا

---

(١) حضارة مصر الفرعونية ، ٣١٨ وما بعدها .

ولما كان خروج موسى عليه السلام ومن معه من أبناء يعقوب باتجاه بلاد الشام لتحرير بيت المقدس وأرض الشام من قوم جبارين غلبوا عليه ، يواكب عصر رمسيس الثالث : فإن الاحتمال القائم ، أن القوم الجبارين هم من الشعوب الهندوآرية التى اجتاحت بلاد الشرق فى ذلك العصر .

يقل مجموعها عن ٤٢١,٠٠٠ رأس كما كانت له حدائق فى طول البلاد وعرضها وكثيرا منها فى الواحات ، كما كانت له مناجم الذهب فى النوبة ، وكانت له تسع مدن فى سوريا تأتيه محاصيل أراضيها وضرائبها بانتظام ، وغير ذلك من الموارد ، وأهمها ما يقدمه أفراد الشعب وما يقدمه الملوك . فلا عجب إذا أصبح كهنة آمون هم القوة المسيطرة على شئون البلاد . ولم يكن رمسيس الثالث وحده هو المسئول عن إغداق هذه الثروة على الكهنة ولكنها كانت فى الحقيقة ، ثروة تكدست على المعابد منذ أجيال ، ولم يكن فى وسع أحد من الفراعنة أن ينتقص شيئا منها بل كان كل منهم يبذل جهده لإرضاء الكهنة فيزيد عليها حتى يأمن مؤازرتهم وعدم تآمرهم عليه »[1] .

« لم تكن هذه المسألة هى الحالة الوحيدة الشاذة فى البلاد ، كانت هناك حالات أخرى لا تقل عنها أثرا ومنها ابتداء تولى الأجانب وظائف الدولة العامة وبخاصة فى البلاط . ونعرف على سبيل المثال أنه كان حول رمسيس الثالث فى قصره أمناء أجانب عديدون لهم السلطان الأكبر عليه ، كما ملأوا قصره فى آخر أيامه بالفتيات الجميلات سواء من أسرى شعوب البحر أو من الآسيويات أو المصريات . وكان يقضى أوقاته بينهن كما نرى ذلك فى الصرح الأمامى المشيد أمام معبد مدينة هابو ، إذ نرى على جدرانه فى الطابق العلوى رسوماً تمثل رمسيس الثالث وهو يداعب فتياته أو يلاعبهن لعبة الداما وغير ذلك من ألعاب التسلية »[2] .

« وهكذا انصرف رمسيس الثالث عن تقوية ملكه واستمع إلى نصيحة من أحاطوا به من الأجانب والمتملقين حتى صار من بين الأحد عشر أمينا فى القصر الملكى خمسة غير مصريين أحب الاستماع إلى نصيحتهم له فى الإكثار من الاستعانة بالجنود المرتزقة الأجانب ليكونوا عونا له ضد المصريين الذين أخذوا يئنون من الحالة ، وخاصة من الأزمة الاقتصادية التى سببت ارتفاعاً كبيرا فى أسعار الحبوب بصورة لم يكن للشعب عهد بها من قبل .

---

(١) هذه صورة من الثروات التى كانت موقوفة على معابد ، تعبد فيها أوثان .. تماثيل من دون الله .. ومما لا شك فيه أن ذلك دليل على غياب الوعى الإسلامى عن المجتمع المصرى فى هذه الفترة .. أو على الأقل لم يكن فى موقع السلطة التى تمكنه من تحطيم الوثنية وأعوانها .

(٢) كون الفرعون الحاكم لا يجد حرجا فى أن يمثل وهو يداعب فتياته ، أو يلاعبهن لعبة الداما وغير ذلك من ألعاب التسلية أمام الناس دليلا على فساد المجتمع من الناحية السلوكية وذلك دليل على غياب الإسلام عن حياة الحاكم والمحكوم (المرجع السابق ، ص ٣١٨ — ٣٢٠) .

ساءت الحالة الاقتصادية حتى اضطر عمال الجبانة فى طيبة إلى الإضراب عن العمل لأن مقرراتهم لم تصرف لهم لمدة شهرين فى العام التاسع والعشرين من حكم الملك . توقف العمال عن عملهم وحاولوا أن يلفتوا نظر رؤسائهم إلى حالتهم دون جدوى . وفى اليوم التالى تجمعوا وهاجموا مخازن الرمسيوم وهم يصيحون بأنهم جائعون وعند ذلك اضطر كبار الموظفين إلى محاولة تهدئتهم . وتكرر الإضراب بعد ذلك مرات حتى اضطر أن يتدخل لإعطائهم ما يستحقونه . وتعطينا هذه الوثيقة فكرة عما آلت إليه حالة البلاد من فوضى . كما تعطينا أيضا فكرة عن مدى رحمة كهنة المعابد بالفقراء من الناس الذين كانوا على وشك الموت جوعا بينما تكدست الحبوب وأكوام الذهب فى مخازن آمون . كان الكهنة أول من يسمع صياحهم دون أن تتحرك فيهم ذرة من العطف ، بل إننا نعرف من هذه الوثيقة نفسها أن رجال الدين كانوا سوط عذاب على الفقراء . ففى أحد أيام الإضراب تجمع المتظاهرون خلف معبد مرنبتاح وأخذوا يصيحون « نحن جائعون » وتصادف أن مر عمدة المدينة فوعدهم بالمساعدة وأرسل إليهم خمسين غرارة من الحبوب ليسعفوا بها أنفسهم حتى يأمر الملك بصرف استحقاقاتهم لهم . ولكن بعد أيام قليلة وصلت شكوى ضد هذا العمدة ، من كبير كهنة آمون بأنه قد أخذ دون وجه حق من ممتلكاتهم[1] معبد رمسيس الثانى ليطعم المضربين ، ووصف كبير الكهنة عمله : « إن ما فعله جريمة كبرى » ، وهكذا كانت تسير الأمور ، فالكهنة يكدسون الأموال ويظلمون الشعب ، والموظفون يستغلون كل موارد الدولة لمصلحتهم ، والملك سادر فى ملذاته ، والأجانب يتحكمون فى شأن الدولة[2] . ولهذا لا ندهش إذا قام أحد وزراء رمسيس الثالث بثورة ضده فى الدلتا كان مركزها فى « أتريب » ولكن الثورة لم تنجح . وبالرغم من أنها كانت إنذاراً له فإنه لم يتعظ ولكن أسرة الملك أحست أن وجوده فى مركز الحكم أصبح خطرا على البلاد فدبروا قتله » .

« وقد عرفنا تفاصيل هذه المؤامرة من بردية هاريس . لقد دبرتها إحدى زوجاته لأنها

(١) هذه أخلاقيات كهنة الأوثان .. مجردة من العطف ، مجردة من الإنسانية .. خزانتهم وبطونهم ممتلئة حتى فاقت حد التخمة فى الوقت الذى يبيت فيه إخوانهم فى الوطن ، وعُبّاد أوثانهم .. على الطوى .. وهكذا يكون الحال فى المجتمعات التى يغيب فيها الإسلام عن حياة الناس ، ولا يحكم شرع الله وحده فى حياتهم ، ويتحكم فى رقاب الناس طواغيت لا يدينون لله وحده بالعبودية .

(٢) الراعى سادر فى ملذاته ، والمسئولون عن الرعية يستغلون موارد الدولة لمصلحتهم ، والأجنبى يتحكم فى شئون الدولة والناس يتضورون جوعا .. أين مسئولية الحاكم ؟ ولكن الفراعنة ادعوا الربوبية ، واعتدوا على سلطان الله فى الأرض . أين الرعية التى يجب عليها التصدى لمن لا يخافون الله ، ويستحيون النساء ويذبحون الأبناء ويسومون الناس سوء العذاب .. ؟

أحست أنه لا يريد أن يجعل من ابنها « بنتاؤور » وليا للعهد ولهذا صممت على قتل الملك العجوز وإعلان ابنها ملكا ، وكان يعاونها فى تدبيرها اثنان من كبار موظفى القصر كانت مهمتهما جمع الأنصار فى البلاط وخارج القصر . ولسنا نعرف مدى نجاح المؤامرة فى الخارج ولكنا نعرف أنه بعد قتل الملك قبض على المتآمرين وكان مع الملكة « تتى » وبنتاؤور والموظفين الكبيرين فى البلاط عشرة آخرون من الموظفين وكذلك ست نساء كن واسطة بين الملكة وشركائها فى الخارج[1] .

ومن أوراق التحقيق فى هذه القضية نعرف كان من بين الأربعة عشر موظفاً الذين تكونت منهم المحكمة أربعة من الأجانب . وظهر أثناء نظر القضية أن ثلاثة من القضاة قضوا سهرة تناولوا فيها الخمر ومعهم ضابطان من الشرطة فى منزل أحد المتهمين حيث اجتمع نساء بعض المتآمرين ، كانت نتيجة هذه السهرة أن انتقل القضاة الثلاثة من كراسى القضاء إلى قفص الاتهام . أما الأحكام التى صدرت عليهم فإن الأمير بنتاؤور وثلاثة من المتآمرين حكم عليه بالإعدام ، وكانوا يتركون وحدهم فى غرفة المحاكمة لينهوا حياتهم بأيديهم . وبرئ أحد القضاة أما القاضيان الآخران وضابطا الشرطة فحكم عليهم بجدع الأنف وصلم الأذنين فانتحر أحد القضاة عندما سمع الحكم عليه أما المتآمرون الآخرون ومنهم الملكة « تتى » فلا نعرف العقاب الذى وقع عليهم » .

---

(١) هكذا يكون الأمر فى المجتمع الشارد عن هدى الله الذى رفض الإقرار بالألوهية والربوبية لله دون منازع ورفض الإسلام شرعة ومنهاجا ، وحينذاك يصبح الحكم غاية .. والسلطة هدفا أسمى ، تحاك من أجل الوصول إليها المؤامرات ، وتراق من أجلها الدماء .

بينما فى ظل النظام الإسلامى يصبح الحكم تبعة ، يفر منها المكلف بها .. « ياليت أمك لم تلدك ياعمر ، « إنّا لا نوليها من طلبها » .. ولكن كيف يدرك ذلك حكام الفراعنة ؟ .

إن الله سبحانه وتعالى حينما حكم على الفراعنة بالشرك والضلال والعصيان والخروج عن شرع الله ومنهاجه ، لم يصدره عفوا أو جزافا لأنه هو الحكم العدل العليم الحكيم .

فها نحن نرى أنفسنا أمام رجال العدالة .. القضاة يمثلون فى الحقيقة صورة الرجال الظالمين الذين لايعرفون الله ولا دينه .. القضاة يسكرون ويزنون ويصدرون أحكاما مجافية للعدالة . لقد اتضحت حقيقة هؤلاء القضاة لأن القضية كانت تتصل باغتيال ذات الفرعون رمسيس الثالث ، ولكنها لم تكن لتتضح فى حالة عامة الناس الذين يذبحون ويغيبون فى المقابر دون أن يحس بهم أحد .. وهذا شىء طبيعى فى المجتمع الذى لا يدين لله الواحد القهار ، ولا تسير حياته طبقا للإسلام كما أن هذه القضية تشير إلى شرود المجتمع عن الهدى الإلهى فى مجال السلوكيات أيضا فالمتهمون لم يحاكموا لأنهم شربوا الخمر أو زنوا ولكن فقط لأن الخمر والنساء كانتا الوسيلة إلى استصدار حكم جائر .. وهكذا يفسد القضاء والقضاة فى كل مجتمع لا تسير حياته طبقا لتعاليم الإسلام وشرع الله ومنهجه .

والعجيب أن الدكتور أحمد فخرى بعد أن قدم هذه الوثائق التى تدين حكم الفراعنة أصدر حكما عجيبا ، قال :

« ولكن إنصافاً للرجل يجب ألا ننسى أنه كان فى صدر أيامه آخر الملوك العظام الذين حاربوا ولم يفرطوا فى الإمبراطورية ، وكان أيضاً آخر البنائين الذين تركوا آثاراً خالدة على الدهر ، فإن معبد مدينة هابو من خير ما شيده ملوك الدولة الحديثة .

لقد أنقذ رمسيس الثالث البلاد من فوضى كانت غارقة فيها ، وكانت الخمسة والعشرون عاماً الأولى من حكمه أيام مجد نسبى فى حياة مصر . ولن ينسى له التاريخ أنه أنقذ بلاد الشرق القديم ، وليس مصر فقط ، من خطر داهم كان كفيلا بالقضاء على جميع المدنيات مثل ما حدث فى خيتا وفى الهند ولكنه انتصر ودون انتصاره فكانت مناظر حروبه ومناظر المعركة البحرية وهى أول معركة بحرية كبرى فى العالم وأول معركة بين مصر وأوربا .

مات رمسيس الثالث عام ١١٦٤ ق . م ونفسه مملوءة بالحسرة على جحود الناس وتلاه على عرش مصر ابنه رمسيس الرابع » (١) .

لقد رأينا مبادئ الانهيار فى الجزء الأخير من حكم رمسيس الثالث فلا عجب بعد ذلك أن تسير الأمور من سيء إلى أسوأ ، وأن يظل سلطان الملوك يتضاءل شيئاً فشيئاً حتى

---

(١) مصر الفرعونية ص ٣٢١ ، إن استعراضنا لأحوال المجتمع المصرى فى ظل حكم الفرعون رمسيس الثالث يؤكد أن المجتمع ـــ حاكم ومحكوم كان شاردا عن هدى الله ، ولذلك لا ندرى ماهو السبب الذى مكن المؤرخ ـــ رحمه الله ـ أن يقول « إن رمسيس الثالث كان آخر الملوك العظام » ؟ ما هى المقومات التي مكنته من الحكم لهذا الفرعون الطاغية بالعظمة ؟ إن العظمة صفة من صفات الله وليس لغيره سبحانه وتعالى أن يدَّعيها أو تسبغ عليه .. فالله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ **فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى** ﴾ ..

وعلى الجانب الآخر أن المعيار الذى يجب أن يقاس به الشخص .. هو مدى صلاحه أو تقواه ومدى خضوع حياته لشرع الله ومنهاجه .. ﴿ **إن أكرمكم عند الله أتقاكم** ﴾ .. وليس المعيار قطعة من الأرض تضاف إلى أملاك الدولة ، فقد تكون إضافتها قائمة على الظلم والطغيان وغصب حقوق الآخرين .

وبالإضافة إلى ما سبق يعتبر المؤرخ أن رمسيس ترك آثاراً خالدة ما هى هذه الآثار الخالدة ؟ إنها معد للوثنية وللطغاة إن هذه الآثار فى نظر المؤرخ المسلم يجب أن تكون شاهدا على طغيان الفرعون لا شاهدا له على عظمته فمن أين له ذلك الفرعون بتلك الأموال التى شيد بها تلك العمارات الضخمة ؟ إنها الأموال التى استخلفه الله فيها فأفسد وطغى فى الوقت الذى يتضور الناس جوعاً . ثم يختم الكاتب الحديث عن جحود الناس لفرعونهم الطاغية ماذا كان من المتصور أن يفعل الناس إذا مااستشرى الظالم والناس لا يكادون يجدون قوت يومهم ؟ .

أصبحوا ألعوبة فى يد الكهنة . وأخيراً حدث ما لابد من حدوثه وهو استيلاء الكهنة على العرش وتأسيسهم للأسرة الحادية والعشرين وإعلان كبير كهنة آمون وكان اسمه « حريحور » ، ملكاً على مصر .

« كان هؤلاء الملوك الرعامسة[1] متشابهين فى ضعفهم وفى خضوعهم لسلطان الكهنة وفى عجزهم عن مواجهة الأزمة الاقتصادية التى بدأت تطحن البلاد ، ومتشابهين أيضاً فى عدم استطاعتهم إيقاف الفوضى والانحلال فى جميع مرافق الدولة وظلم الموظفين للطبقات الفقيرة » .

« كان هؤلاء الملوك يعيشون فى قصورهم فى شرقى الدلتا تاركين إدارة شمال البلاد للوزير فى منف ، وكان هناك وزير آخر فى طيبة ولكن السلطة الحقيقية كانت فى يد كهنة آمون ، أما عن نفوذ مصر خارج حدودها فإننا نستطيع أن نقول إنه أخذ يقل تدريجياً فى آسيا حتى اقتصر على فلسطين ، ثم أخذ يتضاءل أيضاً حتى زالت هى الأخرى كبلد تابع لمصر ، ولكن ظل نفوذ مصر فى بلاد النوبة كما كان عليه من قبل ولم يتأثر بما كان حادثاً فى البلاد . ورغم إقامة الملوك فى الدلتا فإنهم ظلوا على عادتهم فى اتباع التقليد القديم وهو الدفن فى طيبة ، وظلت مدينة العمال فى دير المدينة على عمرانها ، وقد عثر فيها على كثير من الوثائق سواء من الملفات البردية أو الأوستراكا التى أمدتنا بالقبس الذى نعرفه عن هذا العصر المظلم » .

« ولم يكن الرعامسة الثمانية من رجال الحرب أو رجال الإصلاح ، ولهذا قلما نسمع عن أحد منهم خبرا اللهم إلا إشارات عابرة مثل ما تحدثت به بردية هاريس أو بردية مالت عن أعمال رمسيس الرابع وما قام به من إصلاحات وإنشاءات فى المعابد أو تصميم مقبرته فى إحدى برديات متحف تورين أو العمل فى محاجر الصحراء . ولكن أهم ما جاء من عهده هى البرديات التى تفيض بأنباء الفوضى والانحلال فى البلاد والسرقات والرشاوى فى إيرادات الدولة على السواء . وتلاه رمسيس الخامس فلم يكن خيراً من سابقه وأهم ما وصل إلينا من عصره بردية ولبور الشهيرة التى نعتبرها مصدراً هاماً لدراسة الضرائب وتقسيم الأراضى فى ذلك العهد بوجه خاص وفى عصر الدولة الحديثة بوجه عام » .

« وتلاه رمسيس السادس وأهم آثاره قبره فى وادى الملوك ومقبرة « بن نوت » فى

---

(١) مصر الفرعونية ، ص ٣٢٢ ومابعدها .

عنيبة ببلاد النوبة ، وقد حكم هذا الملك أربع سنوات فقط ولكنه ترك اسمه فى كثير من بلاد مصر وشمال السودان . وتلاه كل من رمسيس السابع ثم الثامن ثم التاسع وكانت أيامهم جميعاً أياماً سوداء فى تاريخ مصر وإن كان رمسيس التاسع قد اشتهر فى التاريخ فإن ذلك بسبب برديات سرقات مقابر الملوك فى عهده ، وكان ذلك نهاية ما يمكن أن يصل إلى اضطراب »[1] .

« لقد رأينا بدء الأزمة الاقتصادية فى السنين الأخيرة من حكم رمسيس الثالث وكيف كان ارتفاع أثمان الحاجيات ، وبخاصة القمح ، سببا فى إضراب العمال إذ أن السعر العادى لغرارة القمح كان يعادل « دبن » من النحاس ولكن الأسعار ارتفعت فى ذلك العهد قليلا فكان هذا دليلا على اضطراب الحالة الاقتصادية فى بلد زراعى . وظل ارتفاع السعر بتلك النسبة القليلة حتى منتصف أيام رمسيس السادس ولكن منذ هذا العهد أخذت الأسعار ترتفع ارتفاعاً جنونياً فأصبح ثمن غرارة القمح ٢ دبن بعد أن كان ثمنها ١٫٥ دبن ثم ارتفعت مع مرور الوقت إلى ٤ دبن وكذلك ارتفع ثمن الشعير فأصبح ثمن الغرارة الواحدة منه ٨ دبن فى عهد رمسيس السابع ولكن القمح عاد مرة ثانية إلى ٥ دبن فى عهد رمسيس التاسع ، أى أصبحت البلاد فى حالة إفلاس وأضحى صغار موظفى الحكومة وعمالها فى حالة ضنك شديد لايجدون ما يسد رمقهم ، فلم يبق أمامهم إلا السرقة والرشوة اللتين أصبحتا القاعدة فى كل شىء خصوصا وأن المحاكم أصبحت لا قيمة لها إذ كانت الكلمة العليا فى كل شكوى هى ما يحكم به الإلـه فإذا اتهم أحد الناس شخصاً بسرقة فإن المتشاكيين يذهبان إلى المعبد ويضعان ورقة أمام تمثال الإلـه ويطلب الكاهن من ذلك التمثال أن يحكم بينهما ويبلغ الكاهن المتقاضيين بعد ذلك بما حكم به الإلـه وهو حكم نهائى لا رجعة فيه ، ولا يعتمد إلا على شىء واحد وهو الحصول على إقناع كهنة المعبد قبل التقدم بالشكوى أو عند عرضها . وكانت وسيلة ذلك واحدة لا تتغير فالإلـه يحكم لمن يستطيع أن يثبت أنه شخص تقى وذلك بتقديم مايستطيع تقديمه للكهنة . ولم يقتصر الأمر على ذلك ، أى أن القضايا التى كان يفصل فيها الكهنة هى الشكايات أو المنازعات بين الأهالى[2] . بل

---

(١) هذه هى الأحوال فى المجتمع الفرعونى الذى ادعى حكامه الألوهية ، وطغوا وتجبروا : فوضى ، انحلال ، فساد ، سرقات ، رشاوى . وكذلك يكون الأمر فى كل مجتمع نحى شريعة الله عن حياته ، وأسلم نفسه لمجموعة من الطغاة يسيرونها طبقا لقوانينهم الوضعية .

(٢) ﴿ **فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوما فاسقين** ﴾ . العدالة يتلقاها الناس من وثن مصنوع من الحجر .. ماذا =

وصل الأمر بهم أن كان تعيين الموظفين فى وظائفهم ومحاكمة المذنبين منهم يرجع أخيرا إلى وحى آلهة المعابد وحكمهم ، وبعبارة أخرى لم يكن هناك ضمان للعدل فى وقت مضطرب كريه ، وكان فى استطاعة المرتشين السارقين أن يستمروا فى ذلك طالما كانوا مطمئنين إلى حسن صلتهم بكهنة المعبد أو المسيطرين عليه ، وكانوا يؤكدون صداقتهم من آن لآخر بما يقدمونه لهم من هدايا وغيرها » (١) .

« ولذلك لا يدهشنا أن نرى أثر هذا الانحلال يتسرب إلى جميع مرافق الدولة ، وكان من الصعب على العمال الجائعين الناقمين أن يناموا على الطوى بينما كان على مقربة منهم كنوز مكدسة من الذهب والفضة وغيرها من النفائس فى مقابر الأفراد ومقابر الملوك والملكات » .

« بدأت سرقات المقابر منذ عهد غير قصير ولكنها زادت جدا فى عهد الرعامسة وكانت فى البداية فى مقابر الأفراد ثم تعدتها إلى مقابر الملوك ولم يكن ما حدث فى البر الغربى سراً ، بل يحدث علنا لأن السارقين كانوا مطمئنين إلى أن المسئولين سيغمضون أعينهم طالما أنهم يأخذون ثمن إغضائهم وسكوتهم ، إلى أن لعب الحسد دوره بين حاكم شرقى طيبة وبين حاكم غربى طيبة الذى كان مسئولاً عن الأمن وصيانة المعابد والمقابر . كان كل من الرجلين يريد الحظوة لدى الوزير ولهذا لم يتردد « باسر » حاكم الشرق فى التقدم بتقرير للوزير ينبئه بالحالة السيئة التى وصلت إليها الجبانة التى يشرف عليها زميله « باورعا » . وكانت هناك تحقيقات أولية وعوينت المقابر فوجدت اللجنة أن ما قاله باسر غير حقيقى ، لأن تسعة مقابر من مقابر الملوك العشرة التى عاينها وجدت سليمة كما وجدت مقبرتان من مقابر الملكات الأربع سليمة . واعترف التقرير بأن محتويات مقابر الأشخاص كانت مبعثرة وملقاة على وجه الأرض . وتركزت نتيجة التحقيق فى أن باسر شخص كاذب ، واعتبر « باورعا » أن هذه النتيجة تبرئة له ولرجاله فاحتفلوا بذلك احتفالاً كبيرا وعبروا النيل إلى البر الشرقى وهتفوا هتافات عدائية أمام بيت باسر وحدثت مشادة كلامية قدم على أثرها « باورعا » تقريرا للوزير ضد « باسر » وفتح التحقيق من جديد فاكتشف المحققون هذه المرة أشياء

= دهى الناس لدرجة أنهم قبلوا على عقولهم أن تتقدم بشكاوى لتمثال ليحكم بينهم بالعدل .. إنه الفسق الذى ألم برجالات المجتمع الفرعونى .. الذين استمرأوا الذلة والاستكانة لفترة طويلة ولم يسعوا إلى تغيير الطغيان الحاكم الواقع عليهم بأية وسيلة .

(١) مصر الفرعونية .

خطيرة واعترف بعض المتهمين تحت تأثير تعذيبهم بالحقيقة ، كما ذكر الشهود ما سمعوه أو رأوه وقد دون كل ذلك فى تلك البردية . ومن هذه البردية المعروفة باسم بردية « أبوت » نقف على كثير من تدهور الحياة الاجتماعية فى ذلك العهد ونظام التحقيق والقضاء ولكن أهميتها الكبرى هى فيما يمكن أن نقف عليه من معلومات عن المقابر التى سرقها اللصوص وموقعها فى الجبانة بالنسبة إلى بعضها وإلى المعابد الكبيرة ، وهى معلومات ساعدت وستساعد رجال الآثار فى أبحاثهم وحفائرهم فى هذه الجبانة الهامة »(١) .

« وأهم شخصية فى تحقيقات سرقة المقابر كانت شخصية كبير كهنة آمون أمنحتب الذى كان له النفوذ الأكبر فى طيبة ، وهو كبير الكهنة الذى نرى اسمه ظاهراً واضحاً فى معبد الكرنك والذى بدأ بتقليد جديد إذ نرى كبير الكهنة مرسوما على قدم المساواة مع الملك ، ولم يكن فى ذلك ما ينافى الحق فى شىء بل إن الملك كان بكل تأكيد أقل نفوذاً وجاهاً ومالاً من كبير كهنة أمون ، ولكن التقاليد كانت حتى ذلك الحين تجعل الملك مقدماً على كل من يحيط به وإليه ينسب كل فضل وإذا رسم على معبد أو على حائط قبر فهو مارد يتسامى فى طوله ، وكل من حوله يرسمون فى حجم صغير .

ولكن « أمنحتب » الذى كان يجمع إلى عمله ككبير للكهنة فى جميع المعابد المصرية أعمالاً هامة أخرى مثل إشرافه على خزانة فرعون ووظيفة حامل خاتم الملك لم يكن فى حاجة إلى هذا التملق ، فحصل لنفسه من رمسيس التاسع على حق جباية أموال آمون وضرائبه بواسطة كتبة المعابد وليس بواسطة موظفى الدولة ، وكانت هذه الإيرادات تدخل رأسا إلى خزانة المعابد ولا تمر بخزانة الدولة وهكذا وضع « أمنحتب » الأساس للسياسة التى ستنتهى باستيلاء الكهنة على العرش .

وخلف رمسيس التاسع بعد حكم طال ثمانية عشر عاماً رمسيس آخر وهو رمسيس العاشر ثم تلاه رمسيس الحادى عشر الذى طالت مدة حكمه حتى وصلت إلى سبعة وعشرين عاماً .

وفى ختام ذلك الوقت نرى كبير الكهنة « حريحور »(٢) أصبح ملكا لمصر . لقد كان حريحور من رجال الجيش ومن المرجح أنه كان من نسل الكهنة وفى الوقت ذاته ممن كانوا يتصلون بنسبهم إلى البيت المالك القديم ، وكان حريحور فى وقت من الأوقات حاكما

(١) المرجع السابق ، ص ٣٢٥ وما بعدها .

(٢) المرجع السابق ، ص ٣٢٧ .

للسودان ، وأخيرا وصل إلى الملك ، وليس من المستغرب أن يكون الكهنة قد وصلوا إلى الملك ولكن الأمر المستغرب أن يظل الكهنة فترة طويلة منذ عهد رمسيس التاسع حتى نهاية عصر رمسيس الحادى عشر دون اتخاذ هذه الخطوة .

ظلت الأسرة العشرون نحو مائة سنة وعشرة على العرش فقدت فيها مصر أملاكها فى آسيا ولكن نفوذها فى بلاد النوبة ظل كما كان من قبل ، لأن مناجم الذهب كانت ملكا لآمون ، وكانت خيراتها تأتى إلى معابده . وكان كبار كهنته يحسنون اختيار الحكام ويمدونهم بكل ما يكفل لهم السلطة فى أقاليمهم واشتهر من بينهم فى هذه الفترة العصيبة أكثر من فرد واحد مثل بانحسى الذى استدعاه الملك مرة لإخماد فتنة فى الشمال ومثل حريحور الذى أصبح مؤسس أسرة الكهنة فيما بعد .

وفى معبد خونسو بالكرنك نستطيع أن نرى بوضوح كيف تطور الأمر . فمنذ تعيين حريحور كبيرا للكهنة جمع إلى سلطته كمدير الخزانة وقائد الجيش جميع عناصر القوة فى البلاد . فنراه فى مبدأ الأمر يذكر اسم الملك باحترام على النقوش ثم نراه يضع اسمه إلى جانب اسم مولاه وبعد ذلك نراه يقدم اسمه على اسم الملك نفسه وينتهى الأمر بأن نراه وحده يحمل تاج الوجهين القبلى والبحرى على جبينه ويتسمى بألقاب الفراعنة . وهكذا انتهت الدولة الحديثة بانتهاء الأسرة العشرين ودخلت مصر بحق فى فترة اضمحلال وهى الفترة التى بدأت فى الواقع منذ أواخر أيام رمسيس الثالث »[1] .

(١) مصر الفرعونية .

العصر المتأخر

الأسرة الحادية والعشرون (١٠٩٠) حتى نهاية الثلاثين [١] (٣٤١ ق . م)

وقد أطلق عليه الأستاذ الدكتور عبد العزيز صالح « عصر التخبط والتداخل فى عهود الأسرات »[٢] .

الأسرة الحادية والعشرون :

لم تكن أمور البلاد مستقرة ، وانهار نفوذ مصر فى آسيا ولم يقم الحكام من جانبهم بإنقاذ البلاد مما تردت فيه وعلى كل فإن أسماء ملوك هذه الأسرة لم يتفق على ترتيبها فى تولى حكم البلاد حتى الآن .

وعلى الرغم من اعتبار حريحور مؤسسا لهذه الأسرة فى طيبة فإننا نجد هناك ملكاً آخر يحكم فى تانيس يدعى سيمندس ، ويمتد نفوذه من شرق الدلتا ليشمل مصر الوسطى حتى أسيوط .

وبعد موت حريحور خلفه ابنه بعنخى الذى اقتصر جهده على الاحتفاظ بلقب كبير كهنة آمون فى طيبة ، وعلى ألا يدعى ملك مصر ، ثم قام بمبايعة الملك الحاكم فى تانيس . وقد تتابع ملوك آخرون بعد ذلك فى حكم مصر .

ومن أهم أعمال الأسرة الحادية والعشرين إعادة تجميع ودفن جثث الفراعنة الذين اعتدى على مقابرهم فى إحدى المقابر القديمة بالدير البحرى بالأقصر .

الأسرة الثانية والعشرون (٩٤٥ ــ ٧٥٤ ق . م) :

حينما توفى الملك سيمندس فى تانيس ، كان هناك شخص يسمى شاشانق[٣] يرنو ببصره إلى عرش مصر ، لم يتوان عن تنصيب نفسه ملكاً ، ولكن كهنة آمون فى طيبة ، اعتبروا ذلك عملاً غير شرعى ، ولذلك لم يبايعوه بالملك وترتب على ذلك حدوث صدام بينهم انتهى بفرار الكهنة جنوباً إلى السودان .

---

(١) مصر الفرعونية ، ص ٣٢٩ .

(٢) الشرق الأدنى القديم ، جـ ١ ، ص ٢٦٠ .

(٣) ينحدر من صلب أسرة ليبية مكثت وقتا طويلا فى الواحات البحرية (بصحراء مصر الغربية) ثم تركتها إلى أهناسيا حيث استقرت فيها على مدى ستة أجيال .

وقد تركزت أعمال هذا الملك على الحد من نفوذ الكهنة بالتحكم فيهم عن طريق تعيين ابنه فى وظيفة كبير كهنة آمون ، وقام بحملات عسكرية تركت آثارها فى فلسطين ولبنان وكان من آثارها أن بدأ ولاة المدن الفينيقية يخطبون ود الملك المصرى[١] .

الأسرة الثالثة والعشرون :

فى هذه الأسرة كان هنالك ملكان ادعى أحدهما الملك فى شرق الدلتا وثانيهما فى غربها ، وبعد صدام بينهما ، آثر كل منهما التسليم للآخر بصفته ملكا ، وإن كان سلطانهما لم يمتد إلى بلاد مصر ، وقد أتاح ذلك الفرصة لتقوية شوكة حكام الأقاليم الذين ادعوا الاستقلال بأقاليمهم وكان لكل منهم بلاطه وجيشه الخاص .

الأسرة الرابعة والعشرون : [٢]

يعتبر « تف نخت » حاكم إقليم صان الحجر بغرب الدلتا مؤسسا للأسرة الرابعة والعشرين ، إذ أنه ادعى الملك وحاول توحيد البلاد كلها تحت سلطانه ، ولتحقيق ذلك ، وحد أقاليم الدلتا ، ثم اتجه إلى مصر الوسطى ليخضعها لملكه ، وفى هذه الأثناء لم ترض أسرة الكهنة فى السودان بهذا التصرف من جانب نخت ، وأرسلت جيشا بقيادة ابن بعنخى نفسه لإيقاف تقدم نخت جنوبا . وكان لا بد من الصدام الذى انتهى بهزيمة تف نخت وانتصار جيوش الكهنة بقيادة بعنخى وتأسيس أسرة ملكية جديدة هى الأسرة الخامسة والعشرين .

والشيء الغريب الجدير بالملاحظة أنه فى أعقاب انتصار بعنخى ، ترك حكام الأقاليم ومنهم تف نخت يحكمون البلاد باسمه ورجع قافلا إلى نباتا (السودان) ولذلك لا غرابة أن نرى تف نخت يستمر فى اعتبار نفسه ملكا على مصر كلها لمدة عشر سنوات على الأقل ثم تلاه ابنه « باك ان رنف » [٣] بعد موته الذى حكم ست سنوات ، ويرتبط بعصر هذا الأخير ظهور خطر الآشوريين الذين بدأوا يسيطرون على سوريا وفلسطين ويدقون أبواب مصر .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٣٣٩ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٣٤٥ .

(٣) معروف عند اليونانيين باسم بخوريس .

الأسرة الخامسة والعشرون (٧٢٠ ــ ٦٦٣ ق.م) :

مصر فى قبضة آشور :

لقد بقى بعنخى فى طيبة بعد عودته إليها وقنع فى كون طيبة والصعيد تحت سيطرته وسيطرة أسرته بعد وفاته ، وقد خلفه ابنه شاباكو الذى آثر أن يعيد الأمور إلى نصابها فى الشمال ويوحد البلاد تحت حكمه بعد قضائه على « باك ان رنف » ثم بدأ يخطب ود ملك الأشوريين سرجون الثانى بإرسال الهدايا إليه مما جعل الأخير يتصور أنه أصبح سيد بلاد آسيا دون منازع .

ومن أهم الملوك الذين خلفوا شاباكو طهارقا ، الذى فضل الإقامة فى صان الحجر ليرقب الهجمات التى تتعرض لها حدود مصر الشرقية وسوريا وفلسطين من قبل الآشوريين ، وينظم الثورات والمقاومة ضدهم ، ولكن المسئولية كانت أكبر من أن يتحملها طهارقا ، فقد تمكن الملك الآشورى إسارهدون من غزو مصر حيث سقطت منف فى يده .

ولكن مصر لم تكن تطق صبرا على ذلك الاحتلال الآشورى للدلتا ، ونظمت المقاومة صفوفها بقيادة « نخاو » ابن « باك ان رنف » ــ فى صان الحجر ــ وأمير طيبة ، وعاد طهارقا مرة ثانية ليطرد الحامية الآشورية ويستعيد منف ولكن القوات الآشورية عاودت هجومها بقيادة آشور بانيبال ، ليعيد الاستيلاء على منف ويطارد طهارقا حتى طيبة جنوبا . وقد غادرها الأخير إلى نباتا حيث مات هناك[1] .

الأسرة السادسة والعشرون (٦٦٣ ــ ٥٢٥ ق . م) :

وجاءت الأسرة السادسة والعشرون بحفيد لـ « تف نخت » يسمى بسمتيك الذى تمكن بفضل مساعدة صديقه جيجس ملك ليديا من طرد الآشوريين وتوحيد الدلتا والوجه القبلى كلهما تحت حكمه واستمرت فترة حكمه حوالى ٥٠ عاما (٦٦٣ ــ ٦٠٩) ، كانت مسرحا لنشاط إصلاحى ضخم وأصبح لمصر أسطول ضخم وجيش كبير كان قوامه الجنود المرتزقة ومما يؤخذ على هذا الملك سماحه للجنود المرتزقة والتجار اليونان بالحلول محل

---

(١) المرجع السابق ، ص ٣٦٤ ، ٣٦٥ .

الجنود المصريين والتجار الوطنيين . وقد خلف هذا الملك « نيكاو الثانى » (٦٠٩ ــ ٥٩٤ ق . م) وفى هذه الأثناء بدأت تظهر قوة الميديين فى إيران التى تحالفت مع قوة بابل لتدمير عاصمة الآشوريين « نينوى » واحتلال ممتلكاتهم ، ويبدو أن نكاو أراد أن يحقق وجوده فأرسل جيشا لمعاونة الآشوريين ضد بابل ولكن جيش بابل هزمه ورده إلى الدلتا .

ومن أهم أعمال نكاو إنشاء أسطولين أحدهما فى البحر الأبيض والآخر فى البحر الأحمر ، ويقال إنه أرسل سفنا لاكتشاف ساحل إفريقيا وقد نجحت فى ذلك ، كما تقترن بحكمه فكرة حفر قناة ترتبط بالبحر الأبيض عن طريق النيل بالبحر الأحمر ويقال إنه قرر صرف النظر عن تنفيذ المشروع بعد البدء فيه .

وقد خلف هذا الملك شخص آخر (٥٩٤ ــ ٥٨٨ ق . م) ازدهرت فى عهده تجارة اليونانيين فى نوكراتيس ، وكثر عدد الجنود اليونانيين فى البلاد . وبعد وفاة هذا الملك جاء إلى عرش البلاد « واح ــ اب ــ رع » أثناء حكم نبو ختنصر فى بابل . وقد قام الأخير بتدمير القدس والاستيلاء على كثير من ثروتها ــ كما تقول كتب التاريخ التقليدية ــ وبذلك أصبحت فلسطين تحت رحمة بابل بينما كانت مدن الشاطىء تحت رحمة الأسطول المصرى . ويقترن حكم واح ــ اب ــ رع أيضا بتدفق اليونانيين على ليبيا بعد إنشائهم مستعمرة قيرينة هناك عام ٦٣١ ق . م [١] .

ولقد استنجد الليبيون بفرعون مصر لإنقاذهم من هؤلاء اليونانيين وقد أرسل الفرعون جيشا مصريا وقع فى كمين نصبه له الأعداء ، فازداد عداء المصريين لليونانيين مما أدى إلى ثورة ضد الملك وضد تسلط اليونانيين على البلاد . وكان يقود هذه الثورة أحمس الثانى [٢] (٥٦٨ ــ ٥٢٥ ق . م) الذى تمكن من الاستيلاء على العرش معلنا نفسه ملكا على البلاد كلها .

وقد استطاع أن يرضى مشاعر المواطنين ، وأن يقضى على مسببات ضجرهم من اليونانيين ــ إلى حد ما ــ كما أن هذا الملك قام بتحصين حدود مصر الغربية والشرقية ، ولكن الخطر بدأ يظهر من قبل دولة بابل الكلدانية ، ولذلك فقد استعد له باحتلال أسطوله لجزيرة قبرص ، كما تحالف مع ملك ليديا بآسيا الصغرى ، وأنهى صراعه مع

---

(١) المرجع السابق ، ص ٣٦٨ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٣٧١ .

مستعمرة قيرينة اليونانية بشمال إفريقية . مات هذا الملك ليخلفه بسمتيك الثالث .

بدأت الأحداث فى غرب آسيا تأخذ مظهرا آخر ، إذ اختفت قوة بابل (عام ٥٣٩ ق .م) تحت مطارق الغزاة الفرس بقيادة كيروش الحاكم المطلق فى إيران ، والذى قام بالاستيلاء على ليديا وأصبح سيدا على غرب آسيا دون منازع . وبعد وفاته خلفه ابنه قمبيز الذى جهز جيشا لغزو مصر وقد نجح فى احتلالها عام ٥٢٥ ق . م رغم استبسال المصريين فى الدفاع عن بلدهم [١] .

الأسرة السابعة والعشرون (٥٢٥ ـ ٤١٠ ق . م) :

لقد أساء الفرس معاملة المصريين ، وخربوا الكثير من منشآتها المعمارية ، وحينما رحل القائد الفارسى عن مصر ترك نائبا من قبله ، وبعد ذلك جاء ابنه داريوس إلى مصر عام ٥١٨ ق .م ليتم حفر القناة التى بدأها نكاو الثانى .

ولكن مصر لم تكن لتصبر على هذا الاحتلال . وكانت تنتظر اليوم الذى تتخلص فيه من ظلم الفرس ، ولذلك كانت تؤيد من كل قلبها نضال اليونانيين فى حروبهم ضد غزوة الفرس التى بدأت تأخذ شكلا خطيرا . وقد هزم الفرس أمام اليونان فى موقعة ماراثون عام ٤٩٠ ق . م مما دفعهم إلى سحب بعض قواتهم من مصر . ولقد انتهز المصريون هذه الفرصة وقاموا بثورة فى شرق الدلتا سببت خسائر فادحة بين ماتبقى من قوات الاحتلال الفارسى .

ومات داريوس وخلفه اكسركسيس ، الذى سار إلى مصر ، وقضى على الثورة ونكل بأهلها ، وبعده جاء ابنه ارتاكسركسيس الذى تفجرت فى عهده الثورة المصرية بقيادة أميرين من أبناء مصر . فأرسل ملك الفرس قوة من ٣٠٠ ألف جندى لإخماد هذه الثورة ولكن المصريين حاصروها فى منف وأخذوا يقاتلونها لفترة طويلة .

وفى عام ٤٤٩ حينما تصالحت أثينا مع فارس ، حاول ابن الملك الفارسى أن يحسن العلاقات مع المصريين ، ولكن المصريين رفضوا أى شكل من أشكال المصالحة وأصبحت الثورة شاملة وعاتية عام ٤١٠ ق . م وانتهت بتحرير مصر من قبضة الاحتلال الفارسى [٢] .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٣٧٣ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٣٧٤ ومابعدها .

الأسرة الثامنة والعشرون (٤١٠ ــ ٣٩٨ ق . م) :

يقترن تاريخ هذه الأسرة بالثورة المصرية التى اتخذت حرب التحرير ضد الاحتلال الفارسى منذ عام ٤١٠ حتى ٤٠٤ ق . م وهو تاريخ استقلال مصر .

وقد كان يقود هذه الثورة « أمون ــ حر » الذى أصبح بعد طرد الفرس ملكا على البلاد كلها ومؤسسا للأسرة الثامنة والعشرين (١) .

الأسرة التاسعة والعشرون (٣٩٨ ــ ٣٧٨ ق . م) :

أثناءها انتقل العرش إلى أسرة من مدينة « مندس » بالدلتا ، ربما كان مؤسس هذه الأسرة من زعماء المصريين فى حرب التحرير ، وقد اعتلى العرش لمدة ست سنوات . وأهم ما قام به هو مساعدته لإسبرطة ضد الفرس . ومات هذا الملك ليخلفه « هكر » (٣٩٢ ــ ٣٨٠ ق . م) . الذى لم يأل جهدا فى معاونة أثينا فى نضالها ضد الفرس .

وقد أعقب هذا الملك آخرون ، إلى أن شاءت الأقدار أن يتولى بعدهما حكم مصر أمير قوى يسمى « نخت نبف » الأول مؤسس الأسرة الثلاثين (٢) .

الأسرة الثلاثون (٣٧٨ ــ ٣٤١ ق . م) :

مؤسس هذه الأسرة هو « نخت نبف » . وهى الفترة التى ظهرت فيها نوايا الإغريق السيئة تجاه مصر ، إذ أن الجيش الفارسى حاول غزو مصر فى عصر نخت نبف وكان بذلك الجيش حوالى ٢٠٫٠٠٠ جندى يونانى ، وإن كان هذا الجيش قد اضطر للتقهقر بسبب خطر الفيضان .

وخلف نخت نبف ابنه الذى كان غير رأى أبيه فى الإغريق رغم ما تكشف من سوء نيتهم ومعاونتهم للفرس ضد مصر ، ولذلك نراه يكون جيشا من ٩١٫٠٠٠ مقاتل مصرى ويستعين فيه بالأثينيين والإسبرطيين وذلك لسحق قوة الفرس فى آسيا ، وكاد أن ينجح هذا الملك فى مهمته لولا خيانة أخيه .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٣٧٩ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٣٨١ .

وأعقب هذا الملك ابنه نختبو الثانى (٣٥٩ ــ ٣٤١ ق . م) ، الذى ترك الشمال وفر إلى الجنوب أمام جحافل الغزو الفارسى . وبهذا دخلت مصر مرة أخرى تحت سيطرة الاحتلال الفارسى الذى استمر منذ عام ٣٤١ إلى ٣٣ ق . م .

ولم تتخلص مصر من سيطرة الفرس إلا على يد الإسكندر الأكبر الذى هزم الملك دارا الثالث الفارسى فى معركة إسوس (١) .

وبذلك دخلت مصر مرحلة جديدة من تاريخها ، ترزح فيها تحت نير الاحتلال اليونانى المقدونى ثم البطلمى .

* * *

(١) المرجع السابق ، ص ٣٨٢ ومابعدها .

obeikandl.com

حالة مصر وبلاد الشرق الأدنى السياسية فى العصر المتأخر

(الأسرات ٢١ ــ ٣٠)

بعد خروج موسى عليه السلام وبني يعقوب عليه السلام من مصر

فى ضوء العقيدة الإسلامية

لله في حياة الأمم والشعوب سنن لا تتغير ولا تتبدل ، منها :

أولا : التمكين في الأرض للمؤمنين الموحدين ، الذين يعبدون الله ولا يشركون به شيئا : ﴿ **وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيئا** ﴾ (١) .

ثانيا : تعذيب وتدمير الأمم التي تمرق من دين الله مع تنحيتها عن موقع القيادة : ﴿ **وكأين من قرية عتت عن أمر ربها ورسله فحاسبناها حسابا شديدا وعذبناها عذابا نكرا . فذاقت وبال أمرها وكان عاقبة أمرها خسرا** ﴾ (٢) .

﴿ **فكأين من قرية أهلكناها وهي ظالمة فهي خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد** ﴾ (٣) .

وهنا قد تبدو شبهة ، وهي أن هنالك أمما كافرة ممكن لها في الأرض ، مثال ذلك « روسيا » و « الصين » وعباد البقر في الهند ، وأمم ممن يسمون أهل الكتاب أيضا مثل

---

(١) النور : ٥٥ .　　(٢) الطلاق : ٨ ــ ٩ .　　(٣) الحج : ٤٥ .

أوروبا وأمريكا ، ولم يدمر عليها ، والرد على ذلك نلمحه في قول الله تعالى :

﴿ ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم وزين لهم الشيطان ماكانوا يعملون . فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون . فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين ... ﴾ (١) .

فالتمكين هنا من باب الاستدراج ، لأن الله « يملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته » **﴿ سنستدرجهم من حيث لا يعلمون . وأملي لهم إن كيدي متين ﴾** (٢) .

وهذه سنة ربانية أخرى ، لا تتعارض مع السنن الأخرى ، وذلك يعني أن الأمم التي تشرك بالله ، وتحاد الله بالمعصية ، إن لم تسرع بالعودة إلى الله ، سيدمر الله عليها . متى ؟ علم ذلك عند رب العالمين .

ثالثا : تولية الظالمين على الظالمين : **﴿ وكذلك نولي بعض الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون .... ﴾** (٣) .

فالظالم سيف الله في الأرض ، يؤدب به الظلمة ، ثم يقتص منه .

وإذا نظرنا إلى منطقة الشرق الأدنى منذ القرن الحادى عشر قبل الميلاد ، نجد حركة عارمة ، ممثلة في جيوش تتحرك من مصر إلى أرض الشام ، ومن أرض الرافدين إلى أرض الشام ومصر ، ومن أرض آسيا الصغرى صوب بلاد الشام ، ومن إيران إلى أرض الرافدين ومنها إلى بلاد الشام ومنها إلى مصر ... هذه الجيوش يقاتل بعضها بعضا ، ويريق بعضها دماء البعض ، من أجل الزعامة ، ومن أجل الاستحواذ على الأرض ، وغصب الثروات ، وكما قلنا : من باب تسليط الظالمين على الظالمين .

كما نلمح أيضا داخل كل بقعة من هذه البقاع صراع على السلطة بين أبناء الوطن الواحد ، مثلما حدث بين أبناء مصر في عهد الأسرات الحادية والعشرين والرابعة

---

(١) الأنعام : ٤٢ ــ ٤٥ . (٢) القلم : ٤٤ ــ ٤٥ . (٣) الأنعام : ١٢٩ .

والعشرين .

ولذلك سلط الله عليهم عدوا خارجيا ، هم الآشوريون ، الذين غزوا مصر واحتلوها على عهد ملكهم أسارهدون ، وعلى عهد آشور بانيبال ، وحينما حاولت مصر على عهد بُستميك أحد ملوك الأسرة السادسة والعشرين التحرر من قبضة العدوان الآشورى ، نلمح ظهور قوة أخرى هي قوة الميديين في إيران التي تحالفت مع قوة بابل ، لتسقط حكم الآشوريين وتدمِّر عاصمتهم نينوى في أرض الرافدين ، وفى نفس الوقت نلمح جيوش بابل الكلدانية ، على عهد ملكها نبوختنصر تتحرك صوب بلاد الشام لتغتصب مدينة القدس عام ٥٣٥ ق . م .

واستمرت الأحداث تتوالى على مسرح الشرق الأدنى ، فإذا قوة غاشمة تظهر على أرض إيران هي قوة فارس بقيادة مليكها قورش ، تقوم باغتصاب أرض الرافدين وتسقط البابليين عام ٥٣٩ ق . م ، ثم تتوجه إلى آسيا الصغرى فتقوض حكم مملكة ليديا ... ولما تولى مُلْكَ الفرس « قمبيز » قاد حملة احتل بها مصر عام ٥٢٥ ق . م .

ولقد أساء الفرس معاملة المصريين وخربوا الكثير من منشآتهم المعمارية ، وكما قلت : لعل هذا من باب تسليط الظالمين على الظالمين .

وظلت مصر فى قبضة الاحتلال الفارسي ، ولم تتخلص منه إلا لتقع في يد مغتصب آخر هو الإسكندر المقدوني عام ٣٣٢ ، ق . م ، وظلت بعد وفاة الإسكندر في قبضة الملوك البطالمة حتى قدّر لها أن تقع مرة أخرى في يد أسوأ أنواع الاحتلال وهو الاحتلال الأوروبي (الرومي) عام ٦٤ ق . م ، وظلت هكذا واقعة في قبضة المغتصب الأوروبي إلى أن قدر الله سبحانه وتعالى لها أن تتحرر على يد محمد ﷺ وصحبه رضوان الله عليهم بعد سبعة قرون ، من الاحتلال الرومى لها .

obeikandl.com

الفصل السادس

شبهات حول الإسلام
أثارها كتاب ما يسمى بالتاريخ القديم من المستشرقين
ومن نهج نهجهم عن وادى النيل (مصر)

المبحث الأول

الله ــ الدين ــ الرسل ــ الإيمان بالبعث وبالحساب والعقاب والجنة والنار
فى وادى النيل (مصر)
من خلال ما كتبه المستشرقون ومن نهج نهجهم
مع دحض الشبهات التى أثاروها والرد عليها
فى ضوء العقيدة الإسلامية
ثم فى ضوء النصوص المصرية القديمة

تمهيـــد :

أثبتنا أن كُتَّاب مايسمى بالتاريخ القديم من المستشرقين ومن نهج نهجهم ، ينطلقون فى كتاباتهم لتاريخ الأمة الواحدة من منطلقات فكرية معادية للدين على وجه العموم ، وللعقيدة الإسلامية على وجه الخصوص ، من هذه المنطلقات الحرص على هدم الدين ، وطمس خط توحيد الله رب العالمين فى حياة بنى آدم . ولذلك فإنهم يتبنون مفاهيم فاسدة لخدمة مخططاتهم منها :

(أ) **حيوانية الإنسانية** ، فمعظم الذين كتبوا ويكتبون تاريخ البشرية من كتاب التاريخ القديم ينظرون إلى البشر على أنهم من نسل قردة مذنين ، وبمعنى آخر أن تاريخ

obeikandi.com

البشرية لا يبدأ عند كتاب التاريخ القديم بآدم عليه السلام . وقد بينا فساد هذه النظرة وأثبتنا أن تاريخ البشرية يبدأ بخلق آدم عليه السلام الإنسان المخلوق المكرم بنفخة من روح الله سبحانه وتعالى .

(ب) **التجاهل والتجهيل** بالبداية الحقيقية لتاريخ الأمة المسلمة فكتاب التاريخ عموما ، والتاريخ القديم على وجه الخصوص يعتبرون تاريخ الأمة المسلمة **يبدأ فقط ببعثة** محمد ﷺ متجاهلين بضعة آلاف الأعوام من تاريخ الأمة المسلمة مطلقين عليها اسم التاريخ القديم ، وقد بينا فساد تصور كتاب التاريخ القديم وقدمنا عرضا لتاريخ الأمة المسلمة منذ أقدم عصورها بداية بآدم وزوجه وبنيه الذين شكلوا المجتمع المسلم الأول .

(جـ) **تبنى مايسمى بمنهج مقارنة الأديان** ، وجعلوه علماً ، وهذا المنهج يزعم أصحابه أن الدين من اختراع العقل البشرى وأنه قد تطور من الوثنية والتعدد إلى التثنية ثم التوحيد . وأن اخناتون هو أول موحد فى التاريخ ، وعنه أخذ **إبراهيم عليه السلام وأقام** دينه ، وذلك لكى يضللوا البشرية ويوهموها بأنه لا إله ولا دين ولا نبوة ولا وحى ولا رسالات سماوية وإنما الأنبياء رجال إصلاح اخترعوا ما جاءوا به من أديان وأن اللاحق كان يستعين بالسابق ويأخذ عنه ، وأصحاب هذا المنهج يصورون محمدا ﷺ على أنه مؤسس دين .

(د) **إنكار أو تجاهل أية رواية** تاريخية تعتمد على مصدرى القرآن والسنة ، فمثلا الخبر التاريخى الذى يروى سيرة آدم ونوح والعشرة الأجيال التى كانت على الإسلام وسيرة يوسف وموسى عليهما السلام وبعثتهما إلى شعب مصر اعتماداً على المصدرين السابقين (القرآن والسنة) ـ ليس خبراً موثقاً طالما لم تعضده أدلة أثرية ...

(هـ) **الحرص على التجاهل والتجهيل بتاريخ** الأنبياء والرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، بل ذهب الأمر إلى حد اعتبار وجودهم أسطورة .

(و) **تقويم أحداث التاريخ من وجهة النظر القومية** ، التى تحرص على إحياء النعرة العصبية بهدف تفتيت وحدة المسلمين وتفكيك آصرة العقيدة التى تجمعهم .

(ح) **الحرص على طمس خط** توحيد الله فى حياة البشرية ، فكلّما أسفرت الأبحاث

الأثرية والتاريخية عن قرائن جديدة تؤكد أن البشرية من أقدم عصورها ، والله يتعهدها بالرسل يعرفونها بربها ودينها الحق ، نجد حرصا على طمس هذه القرائن من قبل المشتغلين بهذه الأبحاث .

والدليل على ذلك ، النتائج التى أسفرت عنها كتابات التاريخ القديم التى كتبها المستشرقون ومن نهج نهجهم فيما يتصل بالله والدين والرسل عليهم السلام ، فها هو أدولف أرمان[1] يزعم بأن دراسة الديانة المصرية القديمة ، تتيح له تتبع « حلقات التطور الدينى المتصلة » ، وأن هذه الديانة فى نشأتها تتمثل فى تخيل الإنسان الإله ماردا أو كائنا رهيبا ، وكيف تصور الشعب آلهته البدائية وجعل منها كائنات حية قدسها بطريقة ساذجة ثم كيف بنى المعابد الضخمة لآلهته .

وذهب الأستاذ أرمان إلى أن الشعور الغريزى بالخوف والفزع عند الحيوان من كل ما هو مجهول سببا دفع الإنسان إلى احترام كل القوى التى تؤثر فى حياته دون أن يتعرف كنهها ومن هذا الشعور بعينه نشأت الديانة التى لم تكن إلا الاعتقاد المسيطر على ذهن الإنسان من أن هناك قوى تحيط بالإنسان وتؤثر فيه[2] . وهكذا نلمح المستشرق يزعم أن الإنسان قد خلق ولم يكن يعرف له رباً فاختار له آلهة على قدر نضوجه الفكرى ، وأن الإنسان قد تأثر بالحيوان فى اختراعه للدين .

وزعم الكاتب أيضا أنه ليست للأخلاق صلة بالدين فى أساسها ، وزعم أن اخناتون هو ابن الإله ، وأنه كان موحدا ، ويتبنى نفس المنهج جمس هنرى برستد [3] حيث يذكر فى كتابه :

«الطبيعة تهيئ أقدم الآلهة ، الإمبراطورية ومذهب سياسة عالمية يؤثران على الدين حتى تبرز فكرة العالمية وتتيح مذهب التوحيد (يقصد مذهب اخناتون) ولأول مرة فى التاريخ انبثق فجر مذهب التوحيد ولم يكن البحر المتوسط قد نضج بعد لتقبل دين عالمى » ثم يضيف : « هذا هو مشهد تطور الدين والفكر فى مصر » ويصل فى نهاية كتابه :

---

(١) ديانة مصر القديمة ترجمة د . محمد عبد المنعم أبو بكر ، ود . محمد أنور شكرى .

(٢) نفس المرجع ، ص ١ ــ ٤ .

(٣) تطور الفكر والدين فى مصر القديمة ، تأليف برستد وترجمة زكى سوس ، صفحة ٢٥ ، ٢٦ .

« إن الدين من اختراع العقل البشرى وأنه تطور من التعدد إلى التوحيد ، وأن ما أسماه الأديان السماوية ما هو إلا امتداد للديانة المصرية القديمة ، والإيمان بالبعث عرفه المصريون من تلقاء أنفسهم ، والإيمان بالآخرة والحساب والجنة والنار هو من تصور الإنسان » .

ويتبنى نفس المنهج جون ولسون فى كتابه انتصار الحضارة [1] .

ويتبنّى نفس المنهج أساتذة التاريخ القديم من أبناء العرب والمسلمين ، وليس شرطا أن يكونوا يهدفون إلى ما يهدف إليه المستشرقون ، بل إننى أجزم بيقين مثلا أن سعادة الأستاذ الدكتور عبد العزيز صالح بارك الله فى عمره ونفع به لا يهدف إلى ذلك .

ونختار هنا بعض النماذج لمعالجة قضايا الدين والعقيدة فى كتابات التاريخ التى قام بها أساتذة التاريخ القديم من أبناء العرب والمسلمين لنبين أن منهجهم فى الكتابة هو منهج المستشرقين ، علّهم يراجعون ما كتبوا ويصححونه فى ضوء عقيدة الإسلام ولهم الأجر والثواب من الله سبحانه وتعالى .

١ ـ رأى الأستاذ الدكتور عبد العزيز صالح :

« عقائد الدين والآخرة » :

أولا : عقائد التأليه ـ نشأتها :

أخذت الديانة المصرية حين نشأتها وفى مراحل طويلة من تاريخها بتعدد المعبودات شأنها فى ذلك شأن مثيلاتها من الديانات الوضعية القديمة . ولكنها ظلت أغنى من غيرها فى وفرة نصوصها ، ووضوح قضاياها ، وثباتها على مبادئها ، ورقى تصوراتها التى انتقلت فيها من عقائد التعدد إلى صور مختلفة من أفكار التوحيد ولو أن شيئا من ذلك لن يصرفنا عن حقيقة واقعة ، لنكون صادقين مع منطق التاريخ فيها ، ألا وهى أن البحث فى ظروف نشأتها يعتمد فى أغلب أمره على الحدس والاستنتاج ، أكثر مما يعتمد على نصوص مبكرة محدودة . ومن هذا القبيل ما نأخذ به من تفسير جوهر العقيدة فى هذه الديانة بحرص أهلها على أن يردوا كل ظاهرة حسية تأثرت دنياهم بها إلى قدرة علوية أو علة خفية تحركها

(١) ترجمة د . أحمد فخرى .

وتتحكم فيها وتستحق التقديس من أجلها ، الأمر الذى أفضى إلى تعدد ما قدسوه من العلل والقوى الربانية المتكفلة بالرياح والأمطار وظواهر السماء ، وبجريان النيل وتعاقب الفيضان ، وتجدد خصوبة الأرض ونمو النبات ، وخصائص الخصب النوعى فى الإنسان والحيوان ، بل والمتسببة فيما اتصفت به كل بيئة محلية فى أرضهم من صفات ، والمقدرة لما تميزت به حضارتهم فى مجملها من خصائص سمت بها عن بقية الحضارات ، خصائص التبكير بالكتابة والحساب والحكمة والفنون وما يشبهها من آيات أكبروها فردوا خلقها ورعايتها إلى قدرات علوية سامية فاقت قدرات البشر .

وبشىء من خشية الإسراف فى التعبير يمكن أن نترجم عن ذلك كله بصورة قريبة إلى تعبيراتنا الحديثة ، ألا وهى أن مفكريهم حين رأوا المعانى المجردة وآيات الربوبية المعجزة مجسدة فيما حولهم من مظاهر الطبيعة وكائناتها ، أكبروها واعتبروا كل واحدة منها أهلا للتقدير والتقديس فى حد ذاتها . بيد أنه سواء ظهرت هذه الفكرة فعلا مع نشأة الديانة أم تأخرت عنها ، فالذى لا شك فيه هو أن جمهرة المصريين قد ربطوا بين تصوراتهم العقائدية الذهنية وبين علامات كثيرة من عالم الواقع والمحسوسات ، فرمزوا إلى قوة عليا وعلة خفية تخيلوها ، برمز يعبر عن سر من أسرارها ويحمل صفة من صفاتها ، والتمسوا أغلب رموزهم هذه فيما عمر بيئتهم من حيوانات وطيور وأشجار وزواحف ، لاحظوا أنه يتأتى عن بعضها كثير من الخير ويتأتى عن بعضها كثير من الشر ، ويظهر أثر البعض منها فى جهات بعينها وفى ظروف بعينها أكثر مما يظهر أثر بعضها الآخر ، وهو الأمر الذى لم يكن يخلو من إعجاز كبير فى نطاق تصوراتهم القديمة التى كانت فى عصورها الأولى لا تزال قليلة التجارب محدودة الآفاق . وبوحى هذه التصورات رمزوا بحيوية الكبش الطلوق إلى أرباب الإخصاب الطبيعى والنوعى ، ورمزوا بقوة الفحل إلى شىء من ذلك وإلى قوة البأس فى مجملها ، ورمزوا بنفع البقرة ووداعتها إلى حنو السماء وأمومتها ، ورمزوا بقسوة السباع واللبؤات إلى أرباب الحرب ورباتها ، ورمزوا بفراسة القرد واتزان طائر أبى منجل إلى إله الحكمة ، ورمزوا بالحيات والضفادع إلى أرباب الأزل ، ورمزوا بخصائص الصقر إلى رب الضياء وحامى الملكة ، وهلم جرا .

والواقع أن أمثال هذه الرموز المبنية على أسس من التشبيهات المادية والمعنوية ومن الملاحظة والتدبر ، لم تكن الموجهة وحدها إلى الربط هكذا بين قوى الإبداع والفاعلية فى دنيا المصريين ، وبين الأليف ، والوحشى من صنوف الكائنات التى عرفتها بيئتهم ، وإنما

شاركها وربما سبقتها من حيث الزمن ومن حيث الغرض أيضا ، عوامل أخرى ارتبطت فى أذهان طوائفهم البدائية الأولى بصورة فطرية من الرغبة والرهبة والخيال . كالرغبة فى استمرار النفع والاستزادة من الخير من أجناس معينة من الحيوان والطير عن طريق تقديس القوى الخلقية التى تخيلوها تتولى أمرها وتوجهها لغاياتها . ثم صور الرهبة المختلفة : رهبة الخوف ورهبة العجب ، ورهبة الاستعظام ، التى كانوا يستشعرونها أمام أجناس معينة من الحيوان والطير ، وبالتالى المتمثل فى إيمان عامة الناس بالمعجزات والكرامات وحرفية الأساطير . (ص ٢٩٨ — ٢٩٩) .

« منطقها : ترتب على تعدد مبررات التأليه وأسبابه بين المصريين ، أن تنوعت قضايا الدين عندهم واختلفت مفاهيمها باختلاف المستويات الفكرية بين طوائفهم واختلاف المستويات الحضارية بين عصورهم ، فبينما نشأت عقائد الدين فى عصورها المبكرة نشأت محلية ضيقة ، وبناء على ظواهر مادية وتصورات جزئية فطرية تخيلتها جماعات متفرقة من أهالى القرى والمدن عن : السماء وما يصدر عنها أو يعيش فيها ، والأرض وما يجرى عليها أو يقوم فيها ، اتسع مدى هذه العقائد فى ظل وحدة الحكم والحضارة النامية فى العصور التاريخية واتجهت بقضاياها شيئا فشيئا إلى العموميات والمعنويات .

ومرة أخرى بينما اعتمد أهل الفكر المتنورون على تبرير وجهات نظرهم فى الديانة بالمنطق والتشبيه ، اكتفى عامة شعبهم فى ممارسة أمور دينهم بالخضوع لحكم العادة والتقليد وإيحاء الملابسات والإيمان بالكرامات والأساطير . (ص ٣٠١) .

« فى سبيل الترابط : افترض المصريون أواصر القربى والتشابه بين بعض معبوداتهم وبعض آخر ، بناء على دوافع عدة وهذه يمكن تخمين أقدمها زمنا بما مر به مجتمعهم القديم من ظروف الاتصال المكانى والترابط المعيشى ، وإيحاءات السياسة ، ثم اتساع آفاق التفكير . وعلى هذا يمكن أن نفترض أن أولى خطواتهم للربط بين معبوداتهم قد بدأت عندهم منذ أدت دوافع السلم والحرب بقراهم وبلدانهم القديمة المتفرقة إلى الالتحام مع بعضها البعض على هيئة أقاليم عدة خلال فترات متقاربة من فجر تاريخهم القديم ، الأمر الذى شجع الفريق الأقوى فى كل إقليم على أن يسود معبوده ، كما يسود حاكمه ، على بقية الجماعات المشتركة معه فى نطاق إقليمه ، وعلى أن يجعل هذا المعبود ممثلا لإقليمه ورأسا لمعبودات قومه فى آن واحد . وعندما أدت الظروف مرة أخرى إلى ترابط مجموعات الأقاليم

على هيئة ممالك صغيرة تحت تأثير تقارب المصالح حينا وتحت ضغط القوة والغلبة حينا آخر ، تكررت العملية السابقة بصورة تلقائية ، فكفل الفريق الحاكم فى كل مملكة نوعا من الهيمنة لمعبوده على من سواه من معبودات الأقاليم الخاضعة للواء مملكته ، ولما أفضت الحوادث إلى انتظام هذه الممالك المتفرقة فى ظل مملكة واحدة ، لفترات متقطعة فيما قبل الأسرات ، ثم للمرة الأخيرة منذ بداية العصور التاريخية ، أصبح لمعبود الملك فى المملكة المتحدة سيادته الواسعة على بقية معبودات دولته » . (ص ٣٠٣ — ٣٠٤) .

« فى سبيل التوحيد : جنبا إلى جنب مع التطورات البطيئة السابقة ظلت فكرة الوحدانية تراود أذهان المفكرين المصريين من حين إلى حين . وقد بدأت معهم على صورة الإيمان بوحدة الخالق . ثم انتقلوا بها إلى الاعتقاد بوحدة الربوبية وأرهصوا بعدها بما يشبه عقائد الحلول والتشبيه ثم انتهوا أخيرا إلى الإيمان بوحدة المعبود[1] » (ص ٣٠٥) .

ثانيا : عقائد البعث والخلود :

طمعت أغلب شعوب العالم القديم فى الخلود واستئناف الحياة بعد الممات ، كما طمع المصريون سواء بسواء . ولكن بينما رتبت هذه الشعوب طمعها فى الخلود على الأمل وحده ووقفت عنده ، رتب المصريون طمعهم فيه على المنطق والعمل والأمل والعقيدة فى آن واحد ، وكانوا أول أمة آمنت بالبعث والخلود من تلقاء نفسها وأصرت عليها[2] .

« ومرة أخرى ، نعترف بأن البحث فى المسببات الأولى لإيمان المصريين بعقائد البعث والخلود وتمسكهم بها يعتمد على الحدس ومنطقية الاستنتاج أكثر من غيرهما ، شأنه فى ذلك شأن البحث فى مسببات نشأة عقائد الألوهية ونستطيع أن نفترض أنهم حينما رتبوا أملهم فى الخلود على مبررات مقنعة ، وجدوا فى خصائص بيئتهم ما يوحى لهم بمنطقية فكرته ويشجعهم على طلبه . فقد اعتادت أغلب أجيالهم منذ فجر تاريخهم على أن يدفنوا موتاهم

---

(١) أى أن يكون توحيد الربوبية من اختراع العقل البشرى ، وهذا يتعارض مع المعتقد الإسلامى كما سنرى فيما بعد إن شاء الله .

(٢) وهذا القول يتعارض والعقيدة الإسلامية ، لأن الإيمان بالآخرة والبعث ، هو بيقين تلقته البشرية عن رسل الله الكرام عن الله عن طريق الوحى منذ بداية تاريخها ، منذ خلق جدها الأول آدم عليه لاسلام وجدها الثانى نوح عليه السلام .

فى الحواف الصحراوية (والغربية منها بخاصة) ، لينأوا بمقابرهم عن رطوبة الأرض الطينية ، ويتركوا الأرض الطمية للزراعة ، ويوفروا أراضى القرى لأحيائها . وشيئا فشيئا تبينوا أن مقابرهم الصحراوية تحفظ جثث موتاهم بحالة لا بأس بها لفترات غير قصيرة . وعندما اختلطت هذه الظاهرة بأحاسيسهم الدينية لم يردوها إلى جفاف الصحراء وحده ولا إلى دور الرمال فى امتصاص رطوبة الجسد وحده ، وإنما ردوها أساسا إلى قدرة ربانية حانية ، وقدروا أنهم إذا استرضوا صاحب هذه القدرة وقدسوه زاد من رعايته لجثثهم » (ص ٣١٤ ــ ٣١٥) .

الخلاصة :

يرى الدكتور عبد العزيز صالح :

١ ــ أنه فى ذلك العصر القديم من تاريخ مصر ، نشأت لدى المصريين رغبة فى التدين ، ولما لم يجدوا من يرشدهم إلى حقيقة الله سبحانه وتعالى ، فإنهم تصوروا إلههم ومعبودهم على قدر نضوجهم العقلى .. وأن هذا التصور ظل يترقى ويتطور من عقائد التعدد إلى صور مختلفة من أفكار التوحيد حتى وصلوا إلى التوحيد . وهو الوقت الذى قال فيه مفكرو المصريين بوحدة المعبود وهذا الاستنتاج قد جانبه الصواب :

٢ ــ أن المصريين أول أمة آمنت بالبعث وبالخلود من تلقاء نفسها وهذا أيضا قد جانبه الصواب .

٢ ــ رأى الدكتور سليم حسن فى كتاب تاريخ الحضارة المصرية[١] :

« الحياة الدينية وأثرها على المجتمع . الديانة المصرية القديمة وأصولها . البيئة المصرية وأثرها فى الدين .

« سبب نشأة الدين » :

أظن أن العقيدة السائدة لدى علماء الأديان أن الأسرة كانت الركن الأول فى نشأة الدين ، فوالد الأسرة كان يُحب لأنه كان حاميها ، وكان يرهب لأنه صاحب القوة والبأس عليها ، وعلى مر الأزمان تطرف الأقدمون الذين نشأوا على الفطرة إلى عبادة قوى الطبيعة

---

(١) الجزء الأول ، ٢٦ وما بعدها .

من حيوان ونبات وجماد وما هو جدير بالعبادة كأجدادهم لقوته أو للخوف منه . والواقع أن الأقوام الأولى كانوا يمجدون آلهتهم لأحد أسباب ثلاثة ، إما لفائدة ترجى أو لخوف من شيء يراد اتقاؤه أو الإعجاب بعظمة فيهم لا يمكن إدراكها ، ولا شك أن حب المعبود لذاته لم يأت إلا بعد تطورات كبيرة حدثت فى بنى البشر . وفى اعتقادى أن العوامل التى ذكرناها هنا هى التى بنيت عليها كل أركان الديانات فى أول نشأتها وفى تمام نضجها »[1] .

والديانة المصرية القديمة كانت بلا ريب تخضع لهذه العوامل ولا غرابة فى ذلك ، فإن المصرى الفطرى كان يرى هذه الصفات المعنوية فيما حوله من قوى المخلوقات الطبيعية ، فكان مثلا يعبد الثعبان اتقاء لدغته المميتة ، كما أنه كان يرى حاجته إلى الأشجار المثمرة الوارفة الظلال فيسجد أمامها إجلالا لما تغدقه عليه من ثمر وما تضفيه عليه من ظل وارف فى بلاد حرها لافح .. إلخ ..

« الحياة الآخرة والشعائر الدينية » :

هذا وقد شجع المصرى على الاعتقاد فى الحياة بعد الموت رؤيا الأموات فى الأحلام ومحادثتهم له[2] .

« المعتقدات الدينية فى الدولة الحديثة » :

« ولكن من الوجهة الخلقية نجد أن الفصل ١٢٥ يعد أهم وثيقة وصلت إلينا من العالم القديم عن مقدار ما كان عليه الإنسان من رقى من الوجهة الخلقية ولا نبالغ فى أن هذا الفصل كان الأساس الذى بنيت عليه كل ديانات العالم التى أتت بعده ، إذ نجد فى كلمات هذا المتن أن المصرى أخذ يشعر فيه بالآخرة بصورة تدل على نموه العقلى وانبثاق فجر الضمير فى صدره » .

---

(١) نفس المرجع السابق ٢٢٩ ــ ٢٣٠ ، وهكذا يتبنى أحد أبناء المسلمين منهج أن الدين هو اختراع العقل البشرى ، ويجزم (وهذا أمر يتعارض وعقيدة الإسلام) بأن هذه العوامل هى التى بنيت عليها كل أركان الديانات (ومنها الإسلام بطبيعة الحال) فى أول نشأتها وفى تمام نضجها .

(٢) وقد قدمنا دراسة لهذه الافتراءات فى دراستنا التى بين يديك . والخطورة أن هذا الفكر غير الصحيح يتربى عليه أبناؤنا فى المدارس والجامعات ويترتب عليه بلا شك تربية أجيال لا تعرف لها ربا ولا ترتضى لها دينا .

الخلاصـــة :

١ ــ فى وقت ما من تاريخ مصر ، كان الناس حيارى لا علم لهم بدين ، ولا معرفة لهم بإله لعدم وجود من يرشدهم إلى الدين الذى يجب أن يعتنقوه وربهم الذى يجب أن يعبدوه .

ولذلك فقد تصوروا لهم أربابا وآلهة ، أوحت إليهم بها أوضاعهم الأسرية ، والرغبة فى النفع ، واتقاء الضرر .

٢ ــ نشأة الاعتقاد بالبعث عند المصرى نتيجة لرؤيا الأموات فى الأحلام .

٣ ــ إن الأخلاق انبثق فجر ضميرها لدى المصرى نتيجة تطوره ورقيه الطويل ، وأنها هى الأساس التى ربنت عليها كل ديانات العالم التى أتت بعده وكلها استنتاجات فاسدة .

٣ ــ رأى الدكتور عبد الحميد زايد فى كتابه الشرق الخالد[١] :

« لم يكن التوحيد الذى ظهر فى الشرق هو من أسمى العبادات المفضلة فقط ، بل هو طريق الحياة الصحيحة . آمن المصريون بالإله الواحد ، ولم تكن تلك الدعوة رسالة من السماء[٢] ، وربما ظهرت فى وقت لم يكن قد استعد فيه الإنسان بعد لنبذ تعدد الآلهة»[٣].

« ومما لا جدال فيه أن تعدد الآلهة قد سرى من مصر إلى أقطار الشرق الأدنى أو العكس ، ومما لا جدال فيه أن عقيدة التوحيد قد نبتت فى مصر ، وانتقل ظهورها من وادى النيل فى صورة من الصور إلى بلاد الشرق ، حيث ظهرت دعوة إبراهيم للوحدانية وجاء من ورائه نبوات أخرى (ص أ ــ ب) » .

---

(١) دار النهضة المصرية ، القاهرة ص أ ــ ب .

(٢) لست أدرى ماذا يقصد الكاتب بالسماء ، إن السماء ليست اسما من أسماء الله ، لأن الله له أسماء عددها تسع وتسعون من أحصاها دخل الجنة وليس من بينها السماء ، وبالإضافة إلى ذلك أن هذه الفرية لا يجوز للمسلم أن يقول بها ، لأن الله منذ أن خلق الإنسان وقد أخذ عليه العهد أنه ربه ومالكه وسيده . وفى هذا يقول المولى عز وجل : ﴿ **وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا** ﴾ وشعب مصر جزء من ذرية آدم من ذرية الناجين من الطوفان أى المسلمين **الموحدين** ، فإذا عثر على قرائن تؤكد إيمان المصريين منذ أقدم عصورهم بالله الواحد الأحد ، فهذا دليل على أنهم من ذرية قوم مسلمين وأمة لله قد تعهدهم بالأنبياء والرسل يعرفونهم بربهم ودينهم .

(٣) إن إرسال الرسل لايرتبط باستعداد الإنسان أو عدمه لنبذ عبادة الطاغوت ، وإنما الله أرسلهم طبقا لسننه .

« ولكننى سأتعرض فى كثير من الأحيان إلى ما جاء فى كتب السماء ، ذلك لأن طبيعة دراسة بعض فترات تاريخ الشرق الأدنى القديم تحتم علينا النظر فيما نزل من السماء من كتب مصدقة » .

« وفى مصر الفرعونية قدست بعض الأشجار وظهرت بعض الآلهة تخرج من شجرة . ولا زال بعض أهالى القرى فى مصر الحديثة يتبركون ببعض الأشجار ويربطون فيها بعض قطع من ثياب تبركا ، كل ذلك رواسب من الماضى البعيد ظلت عالقة بأذهان الناس . فورثوها عن أجدادهم دون أن يدركوا معناها .

كل هذه العبادات خاصة بالمياه والشجر ، كان الأصل فيها أن الناس قد عبدوها وقدسوها لما تدره عليهم من خير ، وجاء فى كتاب الله الكريم أن الله جعل من الماء كل شىء حى ، كما جاء كذلك أن عرشه على الماء ، أما الأشجار فإنها ترمز لكل شىء من الفواكه والحبوب والنباتات الطبيعية » . (ص ٢٩٦ — ٢٩٧) .

« ولكن ما هى الأسباب التى دعت الناس فى العصور القديمة أن يتخذوا من الجبل متعبدا ومقرا ومقاما لهذه الآلهة ، وكانت هذه الصخور تتخذ شكلا مخروطيا مهذبة جوانبها قليلا وسميت الواحدة منها فى اللغة السامية بيتيل ومعناها بيت الإله وأشهرها فى فينيقية ما وجد فى معبد بيبلوس . وقد ظهر على أحد العملة الرومانية وكان عبارة عن صخور مخروطية الشكل بها تمثيل طفيف للرأس والذراعين وأحيانا على هيئة أقماع السكر إذن ما هو السر فى هذه العبادة التى نجدها فى بلاد كنعان قديما وعلى سبيل المثال فى بلدة (جزر) بين يافا والقدس ، وكذلك وجدت فى مكة فى الحجر الأسود قديما . ذكر بعض المؤرخين أن لها أصلا قديما سماويا » . (ص ٢٩٧) .

« أما من ناحية الحجر الأسود الذى لم يهذب فقد كان الحجر معروفا من قبل رسالة محمد ﷺ ، وقد قام عليه الصلاة والسلام بوضعه فى مكانه الحالى وقبله ، وسار المسلمون من ورائه على ذلك وأصبح من مناسك الحج . وكذلك فى رمى الجمرات فى (منى) إذ يلقى المسلمون بحصى معدودة على نصب من صخر لم يهذب ترمز إلى الشيطان . كل ذلك من مناسك الحج التى فعلها الرسول وأمر المسلمين باتباعها . وكما نرى فقد كان لها جذورها فى الماضى البعيد .

أما عن تقديس ينابيع المياه وانتشار عبادتها فى غير أمة الفينيقيين ، فنجد

الإسرائيليين يقدسون ينابيع المياه ، فقد قدسوا بئر سبع ، وغيرها ولا زال المسلمون حتى اليوم يقدسون بئر زمزم فهو جزء من مناسك الحج والارتواء بمائه من سنن الإسلام »[1] (ص ٢٩٨) .

« **رعاية دور العبادة** » :

« والوظائف الكهنوتية شرفية خاصة ببعض الأسر ، ولا زال ذلك موجودا عند الإسرائيليين وعند الصوفية فى مصر الإسلامية ، وكان موجودا فى قرطاج ، كذلك كان هناك الرقيق المقدس ذكورا وإناثا وكانوا يقومون بالبغاء المقدس »[2] (ص ٣٠٠) .

« وكان المصريون القدماء يقولون عن الميت : عندما رحل إلى الرفيق الأعلى . وإنى أرى أن هذه المعتقدات التى ظهرت عند الآراميين عن الحياة بعد الموت واتصال الملك فى الحياة الأخروية بالإله لم يكن له تأثير جثيا وأنا أرى فيه تأثيرا حثيا فرعونيا »[3] (ص ٣٧١) .

---

(١) إن الكاتب هنا يقول قولا يتعارض مع المعتقد الإسلامى . إنه يبرز الوثنية والشرك واتخاذ أرباب من دون الله ، من خلال مناسك الحج بما فيه رمى الجمرات والطواف وتقبيل الحجر الأسود .. الخ — فما رأى علماء المسلمين ؟ لقد كان من الواجب أن يبين الكاتب ، حكم الله فى عبادة وتقديس المياه والحجر والشجر ، وأن ذلك شرك بالله رب العالمين .

كما كان من الواجب عليه أن لا يقوم بتبرير هذه الوثنية بالمقارنة ببعض مناسك الإسلام كالحج .

والمسلمون لايقدسون ولا يعبدون الحجر الأسود أو ماء زمزم إنما هم يستقبلون الحجر الأسود اقتداء بفعل رسول الله ولعلنا نذكر قولة عمر رضى الله عنه : « إنك حجر لا تنفع ولا تضر ولولا أنى رأيت رسول الله يقبلك ماقبلتك » .

والمسلمون يشربون من زمزم ويعلمون ويؤمنون يقينا أن الله هو الشافى ﴿ **وإذا مرضت فهو يشفين** ﴾ والشرب من زمزم ليس من أركان الحج أو واجباته .

أما فيما يتصل برمى الجمرات فهى من الواجبات التى ترجع إلى عهد إبراهيم عليه السلام حينما عرض له إبليس وهو فى طريقه لإنفاذ أمر الله ﴿ **إنى أرى فى المنام أنى أذبحك** ﴾ فى محاولة لصرفه عن تنفيذ أمر الله فضربه بالجمرات ، فهى إنفاذ لأمر الله ثم اقتداء بإبراهيم عليه السلام ، إذن جذور هذه المناسك جذور إسلامية وليست جذور وثنية وليست من اختراع العقل البشرى ، ثم جاء الإسلام وجعلها من العبادات .

(٢) هل فى شريعة الإسلام شىء اسمه البغاء المقدس ، هنالك بغاء « زنا » وهو جريمة ، من الذى قدسه ؟ وكيف يسوغ للكاتب من أبناء المسلمين أن يضفى على البغاء صفة القدسية . إن الله يقول : ﴿ **ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا** ﴾ وحد الزنا الرجم .

(٣) ولماذ لا يكون ذلك نتيجة معرفة على أيدى رسل الله الكرام ، من رواسب خط التوحيد ، ولكن الكاتب يصدر فى ذلك عن منهج أن الدين من اختراع العقل البشرى وأنه تطور وأن المصرى سبق رسالات السماء إلى التوحيد .

الخلاصة :

يرى الدكتور عبد الحميد زايد أن دعوة إبراهيم والأنبياء عليهم صلوات الله وسلامه إلى عبادة الله وحده دون شريك ، قد أخذها عن التوحيد الذى وصل إليه الفكر المصرى من تلقاء نفسه . أى أنها من نتاج الفكر البشرى وليست وحيا من عند الله ، وهذا غير صحيح .

خلاصة آراء المؤرخين عن الجانب الاعتقادى فى حياة المصريين منذ القدم :

نخلص من العرض السابق إلى أن الذين كتبوا عن الجانب الاعتقادى فى حياة المجتمع الفرعونى ، من المستشرقين ، ومن سار على نهجهم من أبناء الأمة المسلمة دأبوا على تصوير هذه القضية على النحو التالى :

أولا : أن الله سبحانه وتعالى ، خلق الإنسان ، وتركه حائرا ، لا يرتضى له دينا ، ولا يعرف ربا ، وبسبب ذلك الإهمال من جانب الله تعالى للبشرية ، بدأ الإنسان يتصور له معبودا وربا يتقدم إليه بالشعائر التعبدية ... أى أن الإنسان اخترع لنفسه دينا ... وأن هذا الدين قد تطور من الوثنية والتعدد إلى صور قريبة من التوحيد ثم إلى التوحيد .

ثانيا : أن المصرى قد توصل إلى الإيمان بالبعث من تلقاء نفسه [1] .

ثالثا : أن إبراهيم أبو الأنبياء ، والأنبياء الذين أتوا من بعده وأنبياء بنى إسرائيل قد استقوا معرفتهم عن توحيد الألوهية أثناء تواجدهم وتعرفهم على فكر اخناتون التوحيدى فى مصر أو من فكر الوحدانية الذى عرفه المصريون من تلقاء أنفسهم وانتقل منهم إلى بلاد الشرق . وذلك للوصول إلى نتيجة نهائية وهى أن الدين من اختراع العقل البشرى ، وليس وحيا من عند اللّه ، أرسل به رسله الكرام . وهذه الاستنتاجات التى يعتبرها كتاب التاريخ من المستشرقين ومن سار على نهجهم بديهيات ، كلها استنتاجات غير صحيحة كما سنرى فى ضوء الكتاب والسنة .

---

(١) إن الإيمان باليوم الآخر والإيمان بالبعث جزء من عقيدة الإسلام التى بلّغها الرسل جميعا على مدار تاريخ البشرية بداية بآدم عليه السلام ونهاية ببعثة محمد ﷺ ،وإيمان شعب مصر بالبعث جاء نتيجة الرسالات السماوية فى شعب مصر كرسالة يوسف وموسى عليهما السلام ، ونتيجة كون شعب مصر من سلالة آدم عليه السلام النبى المسلم ونوح عليه السلام ومن ذرية المسلمين الناجين من الطوفان . إذن الإيمان بالبعث ليس من اختراع العقل المصرى .

رواسب خط توحيد الله رب العالمين فى حياة شعب مصر

إن النصوص المصرية القديمة ، تؤكد لنا أن الله سبحانه وتعالى قد تعهد شعب مصر منذ القدم بالرسل يعرفونه بربه الحق ، وبدينه الحق (الإسلام) ، وبالحلال والحرام ، وبالقيم والمبادئ والخلق والسلوك الحسن ، وأن الموت حق ، والبعث حق ، وأن هنالك يوم حساب ، سيقف الإنسان فيه بين يدى الله عز وجل ، ثم يصير الإنسان إمَّا إلى الجنة وإما إلى النَّار ، وهذا ما أثبتته المصادر الإسلامية كما بينا .

فالأدب المصرى القديم يذكر أن المصريين كانوا يعتبرون كل ما يقع من تقدير الله عز وجل « ما يحدث هو أمر الله » ، وأنَّ الله هو الذى يوفق الإنسان أو لا يوفقه « صائد الطيور يسعى ويكافح ، ولكن الله لا يجعل النجاح نصيبه » ، وأن الزارع هو الله « ما تزرعه وما ينبت فى الحقل هو عطية من عند الله » ، وأن حب الله يعنى طاعة أوامره « من أحبه الله وجبت عليه الطاعة » ، وأن الله عليم بما تخفى النفوس الشريرة « الله يعرف أهل السوء » ، والشكر على النعمة حق الله على عباده « إذا جاءتكم السعادة ، حق عليكم شكر الله »[1] ...

كما ورد فى النصوص المصرية القديمة ما يؤكد أن الجنة وقف على الصالحين الذين لا يقتلون ولا يحرضون على القتل ولا يسرقون ولا يغشون ولا يزورون ولا يزنون « أن مملكة الإله

---

(١) هذه الكلمات أوردها أدولف ايرمان فى كتابه ديانة مصر القديمة ، ص ٧٠ ثم يعلق عليها : « هؤلاء القوم الذين كان هذا هو شعورهم وحديثهم لم يكونوا بمنأى عن العقيدة الحقة ولو أنهم فى واقع الأمر تعلقوا أيضا بدينهم الموروث وبقوا عبادا أمناء لآلهتهم » .

وكان بودنا لو أضاف الكاتب إضافة بسيطة كالتالى : لم يكونوا بمنأى عن العقيدة الحقة « وهى الإسلام الذى دعا إليه الرسل جميعا من لدن نوح عليه السلام إلى عصر محمد ﷺ . وأن تصورهم عن هذا الإله العظيم ، لم يصلوا إليه من تلقاء أنفسهم . ولكنه من بقايا الرسالات السماوية التى كانت فى شعب مصر » .

لا يدخلها إلَّا المطهرون ، وعلى كل واحد أن يثبت أمام القضاة أنه لم يرتكب جريمة قط .

وقد ورد فى الفصل الرابع عشر من كتاب الموتى ، بيان تفصيلى بأنواع الجرائم التى يحرم أصحابها من دخول الجنة . ففى مقدمتها : القتل والتحريض عليه والسرقة والغش والتزوير والفسق والزنا ...

ثم يضاف إلى ذلك واجبات أسمى ، حتى يؤهل لدخول الجنة ، فعلى الإنسان ألا يكذب ، وألا يغتاب ، وألا يتجسس من وراء الأبواب ، وألَّا يأكل قلبه — أى لا يهلك نفسه فيما لا يجدى من أسى ، وألا يأخذ اللبن من فم الرَّضع حتى لا يجوعوا ولا يبكوا »[1] .

ومن نقوش المقابر القديمة وآداب الدولة الوسطى : « المرء يفخر قبل كل شىء بعمل الخير ، يعطى الخبز للجائع ، والماء للظامىء ، والملبس للعارى »[2] .

« الرجل الطيب هو ابن للمسنين ، وأخ للمطلقة وزوج للأرملة ، وأب لليتيم . هو كساء لمن يقرصه الصقيع ، ملجأ من الريح ، هو للمريضُ مرضع أو مُمَرِّضٌ »...

« ويفخر أحد العظماء بأنه لم يغبن الأرملة أبدا ، ولم يستغل ابنة رجل من العوام ، ولم يسبب الضيق لمزارع أو راع . وفي أيام الفاقة ساعد الشعب ولم يفرق بين صغير وكبير وقد حاول بصفته قاضيا أن يجعل المتخاصمين يخرجان مسرورين من المحكمة »[3] .

« ويذكر الوزير بتاح حتب وزير الملك أسسى (حوالى ٢٥٠٠ ق . م) كيف يجب على الرجل الشريف والموظف الصالح أن يعيش ، وعليه أن يكون دائما متواضعا وكتوما ، وأن يجتنب ذكر الألفاظ النابية ، وألا يتكبر بسبب علمه ، وألا يحتقر الوضيع »[4] .

« وقد وصلنا من الدولة الحديثة كتاب يعتبر من أمتع ما خلفه لنا الأدب المصرى القديم ، وقد كتبه رجل يدعى « آني » ولنكتف بتقديم مقتطفات منه » .

كن كريما ، ولا تأكل خبزا حين يكون هناك آخر يتضور جوعا . احترس من المرأة الأجنبية الغير معروفة فى بلدها ، لاتبادلها النظرات ولاتظهر أنك تعرفها فإن هذه خطيئة

---

(١) ديانة مصر القديمة ، ص ١٧٩ .

(٢) نفس المصدر السابق ، ص ١٧٩ . وهو يعتمد على Sinouhe , 96.

(٣) ديانة مصر القديمة ، ص ١٧٩ .

(٤) وهو يعتمد على Hatnoub , 829.

عظمى حتى إذا لم تتحدث هي بذلك ... من الخير أن يبكر فى الزواج وأن يكون للشخص أطفال كثيرون ، عامل زوجتك برعاية إذا كنت تعرف عنها أنها ممتازة ، ولا تقل لها : أين هذا ؟ هاته ، إن كانت وضعته فى مكانه الصحيح » .

« أعِدّ لأمك كل ما فعلته من أجلك ، أعطها المزيد من الخبز واحملها كما حملتك . إنَّها حملتك ثقلا وحين ولدت بعد تمام شهورك حملتك على عنقها ، وظل ثديها في فمك ثلاث سنوات » .

« لا تكثر الكلام وكن حذرا حين تتكلم ، لأن اللسان يسبب للناس النكبات ، الفضيلة الرئيسية للمرء هي الحشمة والحياء » [1] .

« وفيما خلفه ناظر القمح والأملاك « آمون أم أوبى » (٩٠٠ ق . م) يوجه لابنه ثلاثين حكمة للسلوك الطيب في الحياة » نجد إشارة إلى أن الله هو الذى خلق الإنسان من طين :

« قضية أن الإنسان من تراب وقش ... وأن الإله هو الذى صنعه » ...

« لا تغمس قلمك فى المحبرة حتى تؤذى شخصا آخر ، ولا تغش فى المقاييس والأوزان ، ولاترتشى ، اقض بعدل ، لا تظلم الضعيف لصالح الغنى .... لا تغش فى جباية الضرائب ، ولا تكن قاسيا كذلك » .

« إن جميع ما تفعله فى غير عدالة لن يجلب لك بركة ، إذ أن مكيالا واحدا يعطيه الإله خير من خمسة آلاف مكيال بغير حق » [2] ..

الفصل ١٢٥ مما يسمى بكتاب الموتى :

يعكس لنا إيمانا بالله سبحانه وتعالى .

« لك الحمد أيها الإله العظيم ، يارب الحقيقتين ...

---

(١) ديانة مصر القديمة ، ص ١٨٠ ــ ١٨١ .

(٢) ديانة مصر القديمة ، ص ١٨٣ .

هأنذا أجيء إليك ، أجلب الحقيقة وأطرد الإثم .. » .

ويحاول المتوفى أن يبدو أمام الإله بصورة المبرأ من الإثم « إنى لم أقترف إثما ضد البشر .. ولم أفعل شيئا يمقته الله .. ولم أسع بأحد عند رئيسه ، ولم أجوع أحدا ، ولم أدع أحدا يبكى ، ولم أقتل ، ولم أدع إلى قتل ، ولم أسبب لأحد ألما ، ولم أُقَلِّل في المعابد الطعام ، ولم أسلب طعام المجدين ، ولم أفسق فى المكان الطاهر لإله مدينتى ، ولم أطفف مكيال الحب ، ولم أنقص مقياس الزراع ، ولم أزيف في مقياس الحقل ، ولم أثقل فى مثاقيل الميزان ، ولم أسلب اللبن من فم الطفل ، ولم أسرق الماشية من مرعاها .. ولم أسد على الماء الجارى ، ولم أعترض الإله فى شيء من إرادته » (١) .

ومن هذا يذكر لنا كتاب الموتى ، أن المبرّأين ، يدخلون جنات تنمو فيها الزروع والفواكه والثمار ، ويتطلعون كما يشاءون فى ملكوت السموات والأرض فهو يتمنى : « أن آكل الثمر ، وأن أصعد إلى السماء ... وأهبط إلى الأرض ، لا يعترض عائق فى الطريق ، ولا تُحبَس روحى ، وأن أكون بين أهل الثناء الموقرين » .

ومن النصوص المصرية القديمة ما يعكس أنهم كانوا على يقين بأن لكل أجل كتاب :

« ولا يعلم أحد متى يأتيه مثل هذا الرسول » ، وذلك على نحو ما قال أحد حكماء الدولة الحديثة : « فكر فى الموت لأن رسولك يأتى إليك ... لا تقل لا أزال شابا ، ذلك لأنك لا تعرف موتك ، إن الموت يحضر ويقود الطفل ، الذى لا يزال فى حجر أمه ، كما يقود الرجل الذى أسن » (٢) .

---

(١) ديانة مصر القديمة ، ص ٢٥٧ .

(٢) ديانة مصر القديمة ، ص ٢٦٩ .

obeikandl.com

الفصل السابع

الشبهات التى أثارتها مراجع التاريخ القديم
مع الردّ عليها ودحضها
فى ضوء العقيدة الإسلامية

اللّه رب العالمين تعهَّد آدم وذريته ومنهم شعب مصر منذ بداية الخلق بالرسل ، يعرفونهم بربهم رب العالمين وبدين الإسلام الذى لا يقبل الله من الأولين أو الآخرين غيره .

ويعرفونه بالغاية التى من أجلها خلقوا والوسيلة لتحقيق هذه الغاية ويؤكدون أن الموت والبعث حق ، والحساب حق والجنة حق والنار حق .

رسالتان سماويتان ـ على الأقل ـ فى شعب مصر تدعوان إلى الإسلام :

الأولى : رسالة الرسول المسلم يوسف عليه السلام .

والثانية : رسالة موسى عليه السلام .

كان يكفينا لإهدار الآراء التى رددتها كتابات التاريخ القديم فيما يتصل بالدين والرسل والإيمان بالبعث ، والتى أوردنا نماذج منها ، قول كتابها « إنها تقوم على الحدس والاستنتاج وكلاهما لا يكفيان لإعطاء أحكام قاطعة فى قضية من أخطر القضايا وهى قضية الكفر والإيمان »! ولكننا آثرنا أن نكرر ما سبق وأوردناه فى كتابنا هذا من قرائن وبراهين يقينية مستقاة من كتاب الله القرآن الكريم وحديث رسول الله محمد ﷺ وهى تؤكد :

أن الله سبحانه قد خلق الإنسان وهو آدم عليه السلام ، وارتضى له الإسلام دينا ، وعرفه بربه وخالقه وسيده وعرّفه بأنه قد خلق للعبادة بمفهومها الشامل ، وأنه سيكون خليفة فى الأرض مؤسسا لأول مجتمع على سطح الأرض يرضى بالله ربا وبالإسلام دينا وبآدم نبيا ورسولا ، وعلم الله آدم كل ما يعينه على أداء واجب العبادة ، ويعمر الأرض بمقتضى المنهج الربانى ، وعلّمه كل ما يتعلق بمسائل العقيدة ، وأنه لابد من الموت ، ولابد من البعث

النشور والحساب ، والإنسان إما إلى جنة وإما إلى نار . وهذه هى عقيدة الإنسان الأول كما يؤكدها كتاب الله وسنة رسوله محمد ﷺ .

ومسح الله على ظهر آدم فخرج من ظهره كل نسمة قدر الله أن تكون إلى يوم القيامة ، وأخذ عليها العهد :

﴿ وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين . أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل ، وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون ﴾ .

وقامت على سطح الأرض عشرة قرون ، عشرة أجيال على الإسلام ، وفى أعقابها حدث الانحراف ، وبدأ الشرك يتسلل إلى حياة البشرية ، وعبدت الأوثان فى الأرض ولذلك فقد تعهد الله بنى آدم بالرسل يعرفونهم بربهم الحق ودينهم الحق ، وباليوم الآخر والبعث والنشور والحساب والعقاب .

يقول ربنا رب العالمين **﴿ ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ﴾** .

﴿ وإن من أمة إلا خلا فيها نذير ﴾ .

ومن هؤلاء نوح وإبراهيم ويونس الرسل المسلمين الذين بعثوا فى أرض الرافدين يدعون فيها ، ومن هؤلاء يوسف وموسى اللذين بعثا فى شعب مصر يدعوان إلى الإسلام ، ومن هؤلاء هود وصالح وشعيب وإسماعيل الذين بعثوا فى جزيرة العرب يدعون أهلها إلى الإسلام ، ومن هؤلاء إبراهيم ولوط وداود وسليمان الذين بعثوا فى بلاد الشام يدعون إلى الإسلام .

إذن شعب مصر وغيره من الشعوب المجاورة فى الأصل هو من سلالة الناجين من الطوفان مع نوح عليه السلام ، أى من ذرية قوم مسلمين ، وتوحيد رب العالمين الذى عُرفوا به وإيمانهم باليوم الآخر والبعث ، والجنة والنار ، الذى دونوه وسجلوه فى نصوصهم وعلى جدران مقابرهم ومعابدهم ، هو نتيجة الرسالات السماوية التى كانت فيهم وليست من اختراع عقولهم ، وذلك يعنى أن تسابيح التوحيد التى تركها اخناتون فى ثنايا نشيده الذى

يوجهه إلى قرص الشمس آتون ، إنما هو من رواسب خط توحيد اللّه فى ختام خطاب الأمة نتيجة الرسالات السماوية السابقة عليه ، ومنها رسوله يوسف عليه السلام والتى عرضناها فى كتابنا هذا أيضا .

obeikandl.com

نشيد أخناتون يثبت أنه لم يكن موحدا لله رب العالمين ـــ عقيدة توحيد الله رب العالمين مفطور عليها الكون والإنسان وبها كان يشهد ـــ الأنبياء والرسل قبل أخناتون بزمن طويل وإليها يدعون

وفيما يتصل بأخناتون فقد أورد كتاب التاريخ مزاعم على جانب كبير من الخطورة ، والتسليم بصحة هذه المزاعم تقوض بنيان العقيدة الصحيحة فى قلب المسلم ، فقد زعم دى بورج أن أخناتون كان يسعى لإقامة عبادة إله واحد . وزعم جيمس هنرى برستد (١) :

« للمرة الأولى فى تاريخ الدنيا ظهرت فكرة إله واحد للعالم كله له سلطان إمبراطورى وتلك هى أقدم صورة فى التاريخ لفكرة التوحيد كما وصلت إليها خبرة الشرق » ويستمر فى قوله : « لم نر أحداً قبل أخناتون عرف الصورة الصحيحة للإله الواحد الرحيم »(٢). ويقول بنفس الرأى أدولف أرمان (٣) . وذهب الدكتور محمد أنور شكرى إلى أبعد من ذلك فاعتبر دعوة أخناتون إلى عبادة قرص الشمس آتون الحقيقة والدين الصحيح(٤) .

وذهب الدكتور(٥) أحمد فخرى إلى أن عبادة أخناتون كانت الصيحة الأولى المعروفة فى تاريخ البشرية التى تقترب من التوحيد الذى جاءت به الكتب السماوية فيما بعد . وزعم الدكتور عبد الحميد زايد(٦) أن دعوة أخناتون كانت دعوة إلى الوحدانية ، وأن دعوة التوحيد نبتت على أرض مصر وانتقلت إلى بلاد المشرق حيث ظهرت دعوة إبراهيم للوحدانية .

وأخناتون لم يكن موحداً لله رب العالمين ، والدليل على أنه لم يكن موحداً هو كلمات من تسابيحه أو نشيده الذى اتخذه كتاب التاريخ دليلا على زعمهم ، نوردها بعد الكلمة التالية .

---

(١) فى كتاب تطور الفكر والدين فى مصر القديمة ص ٤٥٧ ـــ ٤٥٩ .
(٢) انتصار الحضارة ترجمة د . أحمد فخرى ، ص ٩٤ ، ٩٥ ، ١١٩ ، ١٣٧ .
(٣) كتاب ديانة مصر القديمة ، ص ١٤٠ ـــ ١٤١ .
(٤) مصر والشرق القديم ، ص ٢٠٧ .
(٥) حضارة مصر الفرعونية ، ص ٢٨١ ، ٢٨٣ ، ٣٩٠ ، ٣٩٦ .
(٦) الشرق الخالد ، ص ب .

وأخناتون هو أحد ملوك الأسرة الثامنة عشرة المصرية ، وقد جلس على عرش مصر عام ١٢٦٧ قبل ميلاد المسيح عليه السلام . وأخناتون من ذرية آدم عليه السلام ، وقد سبقه أنبياء ورسل كثيرون بعثهم الله سبحانه وتعالى إلى بنى آدم يدعونهم إلى توحيد الله الواحد القهار : ﴿ **وماأرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون** ﴾ . ﴿ **ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت** ﴾ ﴿ **وإن من أمة إلا خلا فيها نذير** ﴾ .

وآدم عليه السلام جد البشرية ، ونوح عليه السلام أبو البشر الثانى والذين سبقوا أخناتون بآلاف السنين كانوا موحدين لله رب العالمين ، يفردونه وحده بالعبادة وإليه كانوا يدعون الناس . بل إن دعوة أخناتون قد سبقها دعوات أخرى جاء بها الرسل عن الله عز وجل ، تدعو إلى توحيد الله الواحد القهار وإفراده بالعبادة ومنها دعوة هود وصالح وشعيب وإبراهيم ويوسف وغيرهم من الأنبياء والرسل عليهم السلام . فلو سلمنا جدلا ـــ وهذا غير صحيح ـــ أن أخناتون كان موحداً ، فبالتأكيد هو ليس أول الموحدين .

وأخناتون كما قلنا جلس على عرش مصر عام ١٢٦٧ بينما إبراهيم عليه السلام ولد على أرض الرافدين وهاجر إلى بلاد الشام ومصر والحجاز أول عام ١٨٩٢ قبل ميلاد المسيح عليه السلام أى قبل مولد أخناتون بسبعة قرون على الأقل ، فكيف يزعم الزاعمون أن إبراهيم عليه السلام [١] قد تأثر بدعوة أخناتون ؟ ؟ ؟ .

إذن فكيف نفسر وجود بعض صفات الله سبحانه وتعالى فى نشيد أخناتون ؟ .

أخناتون جاء بعد عصر يوسف عليه السلام ، الذى بعث فى عصر الفترة الثانية أى قبل مولد أخناتون بمئات السنين ، ويوسف عليه السلام هو ابن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام ، وقد ابتعثه الله إلى شعب مصر يدعوهم إلى الإسلام وتوحيد الله رب العالمين ﴿ **رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض أنت وليّى فى الدنيا والآخرة توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين** ﴾ [٢] .

وهذا هو السبب فى وجود بعض ملامح التوحيد فى نشيد أخناتون ، أى أنه تأثر

---

(١) معاصرة الأسرة الثانية عشرة المصرية .

(٢) يوسف : ١٠١ .

بعقيدة الدعوة إلى توحيد الله رب العالمين التى خلَّفها يوسف عليه السلام على أرض مصر وكان يدين بها كثير من الناس وبدعوات الرسل من قبله .

دليل من كلام أخناتون يؤكد أنه لم يكن موحداً بل مشركا :

« أنت تطلع ببهاء فىَ أفق السماء يا آتون الحى (يا) بداية الحياة .
عندما تبزغ فى الأفق الشرقى تملأ كل البلاد بجمالك .
أنت جميل ، عظيم ، متلألىء ، وعلى فوق كل بلد .
وتحيط أشعتك بالأراضى كلها التى خلقتها .
لأنك أنت « رع » وتصل إلى نهايتها ، وتخضعها لابنك المحبوب .
وبالرغم من أنك بعيد فإن أشعتك على الأرض ،
وبالرغم من أنك أمام أعينهم فلا يعرف أحد خطوات سيرك .
وعندما تغرب فى الأفق الغربى ، تسود الأرض كما لو كان حل بها الموت » [1] .

وهكذا يتضح لنا أن أخناتون لم يكن موحِّداً ، بل إن هذه الكلمات تعكس لنا شركا بالله سبحانه وتعالى ، لأنها تقول بأن لله ولداً ، كما أنها تصرف بعض صفات الله إلى قرص الشمس (آتون) ، كما أنها تتحدث عن هذا الإله بأنه يغرب فى الأفق ، وهذا يخالف عقيدة الإسلام فالله حى قيوم لا تأخذه سنة ولا نوم .

إذن أخناتون كما يبدو من تسابيحه ـــ لم يكن موحدا لله رب العالمين .

---

(١) حضارة مصر الفرعونية ، ص ٢٦٣ ـــ ٢٦٤ .

obeikandi.com

وثائق خلق آدم عليه السلام وزوجه من القرآن الكريم وكتب التفسير ، ومن حديث رسول الله محمد ﷺ وما كتبه علماء السلف

أورد الإمام الحافظ ابن كثير الآيات القرآنية الخاصة بخلق آدم [1] :

قال الله تعالى : ﴿ **وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ، قال إني أعلم مالا تعلمون . وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين . قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ماعلمتنا إنك أنت العليم الحكيم . قال ياآدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ماتبدون وماكنتم تكتمون . وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين . وقلنا ياآدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين . فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو . ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين . فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم . قلنا اهبطوا منها جميعا فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون** ﴾ [2] . وقال تعالى : ﴿ **إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم**

---

(١) البداية والنهاية ، جـ ١ ، ص ٦٨ ، باب خلق آدم عليه السلام ص ٦٩ ، ٧٠ .

(٢) البقرة : ٣٠ ــ ٣٩ .

قال له كن فيكون ﴾ [1] وقال تعالى : ﴿ ياأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا ﴾ [2] كما قال : ﴿ ياأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير ﴾ [3] . وقال تعالى : ﴿ هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها ﴾ [4] الآية . وقال تعالى : ﴿ ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين . قال مامنعك ألا تسجد إذ أمرتك قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين . قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج إنك من الصاغرين . قال أنظرنى إلى يوم يبعثون . قال إنك من المنظرين . قال فبما أغويتنى لأقعدن لهم صراطك المستقيم . ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين . قال اخرج منها مذءوما مدحورا لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين . ويآدم اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين . فوسوس لهما الشيطان ليبدى لهما ماووري عنهما من سوآتهما وقال مانهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين . وقاسمهما إنى لكما لمن الناصحين . فدلاهما بغرور فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين . قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين . قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين . قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون ﴾ [5] . كما قال فى الآية الأخرى : ﴿ منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى ﴾ [6] . وقال تعالى : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون . والجآن خلقناه من قبل من نار السموم . وإذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشرا من صلصال من حمأ مسنون . فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين . فسجد الملائكة كلهم أجمعون . إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين . قال ياإبليس مالك ألا تكون مع الساجدين . قال لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ

---

(١) آل عمران : ٥٩ .
(٢) النساء : ١ .
(٣) الحجرات : ١٣
(٤) الأعراف : ١٨٩ .
(٥) الأعراف : ١١ ــ ٢٥ .
(٦) طه : ٥٥ .

مسنون . قال فاخرج منها فإنك رجيم . وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين . قال رب فأنظرنى إلى يوم يبعثون . قال فإنك من المنظرين . إلى يوم الوقت المعلوم . قال رب بما أغويتنى لأزينن لهم فى الأرض ولأغوينهم أجمعين . إلا عبادك منهم المخلصين . قال هذا صراط علىَّ مستقيم . إن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين . وإن جهنم لموعدهم أجمعين . لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم ﴾ [1] وقال تعالى : ﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس قال أأسجد لمن خلقت طينا . قال أرأيتك هذا الذى كرمت علىَّ لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلا . قال اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفورا . واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم فى الأموال والأولاد وعدهم ومايعدهم الشيطان إلا غرورا . إن عبادى ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلا ﴾ [2] وقال تعالى : ﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا ﴾ [2] وقال تعالى : ﴿ ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزما . وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى . فقلنا ياآدم إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى . إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى . وأنك لا تظمأ فيها ولاتضحى . فوسوس إليه الشيطان قال ياآدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى . فأكلا منها فبدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وعصى آدم ربه فغوى . ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى . قال اهبطا منها جميعا بعضكم لبعض عدو فإما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى . ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى . قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا . قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى ﴾ [4] . وقال تعالى : ﴿ قل هو نبأ عظيم . أنتم عنه معرضون . ماكان لى من علم بالملأ الأعلى إذ يختصمون . إن يوحى إلى إلا أنما أنا نذير مبين . إذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشرا من طين . فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين . فسجد الملائكة كلهم أجمعون . إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين . قال

---

(١) الحجر : ٢٦ ــ ٤٤ .
(٢) الإسراء : ٦١ ــ ٦٨ .
(٣) الكهف : ٥٠ .
(٤) طه : ١١٦ ــ ١٢٦ .

ياإبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدى أستكبرت أم كنت من العالين . قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين . قال فاخرج منها فإنك رجيم . وإن عليك لعنتى إلى يوم الدين . قال رب فأنظرنى إلى يوم يبعثون . قال فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم . قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين . إلا عبادك منهم المخلصين . قال فالحق والحق أقول . لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين . قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين . إن هو إلا ذكر للعالمين . ولتعلمن نبأه بعد حين ﴾ (١) .

ولنذكر ههنا مضمون ما دلت عليه هذه الآيات الكريمات وما يتعلق بها من الأحاديث الواردة فى ذلك عن رسول الله ﷺ . والله المستعان .

فأخبر تعالى أنه خاطب الملائكة قائلا لهم ﴿ **إنى جاعل فى الأرض خليفة** ﴾ أعلم بما يريد أن يخلق من آدم وذريته الذين يخلف بعضهم بعضا كما قال ﴿ **وهو الذى جعلكم خلائف الأرض** ﴾ فأخبرهم بذلك على سبيل التنويه بخلق آدم وذريته كما يخبر بالأمر العظيم قبل كونه فقالت الملائكة سائلين على وجه الاستكشاف والاستعلام عن وجه الحكمة لا على وجه الاعتراض والتنقص لبنى آدم والحسد لهم كما قد يتوهمه البعض ... ؟

صفة خلق آدم عليه السلام :

أورد الإمام ابن حجر العسقلاني في كتابه أحاديث عن صفة خلق آدم عليه السلام منها (٢) :

« حدثنا عبد الله بن محمد حدثنا عبد الرزاق عن معمر عن همام عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : « خلق الله آدم وطوله ستون ذراعا ثم قال : اذهب فسلم على أولئك من الملائكة ، فاستمع ما يُحَيُّونَك ، تحيتك وتحية ذريتك ! فقال : السلام عليكم . فقالوا : السلام عليكم ورحمة الله ، فزادوه : ورحمة الله ، فكل من يدخل الجنة على صورة آدم ، فلم يزل الخلق ينقص حتى الآن »(٣) .

---

(١) ص : ٦٧ — ٨٨ .

(٢) فتح البارى ، جـ ٦ ، ص ٣٦٢ (كتاب أحاديث الأنبياء) ، وفي حديث آخر عن أهل الجنة : « وأزواجهم الحور العين على خلق رجل واحد على صورة أبيهم آدم ستون ذراعا في السماء » . المصدر السابق ، ص ٣٦٢ .

(٣) (فلم يزل الخلق ينقص حتى الآن) أى أن كل قرن يكون نشأته في الطول أقصر من القرن الذى قبله ، فانتهى تناقص الطول إلى هذه الأمة واستقر الأمر على ذلك ، وقال ابن التين : قوله (فلم يزل الخلق ينقص) أى كما يزيد =

وقد ذكر المصنف ما رواه الترمذى والنسائي والبزار وصححه ابن حبان عن طريق سعيد المقبرى غيره عن أبي هريرة مرفوعا : « إن الله خلق آدم من تراب فجعله طينا ثم تركه ، حتى إذا كان حمأ مسنونا خلقه وصوره ثم تركه ، حتى إذا كان صلصالا كالفخار كان إبليس يمر به فيقول : لقد خلقت لأمر عظيم ، ثم نفخ الله فيه من روحه . وكان أول ما جرى فيه الروح بصره وخياشيمه ، فعطس فقال : الحمد لله . فقال الله : يرحمك الله » . الحديث .

وفي الباب عدة أحاديث : منها حديث أبي موسى مرفوعا : « إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض ، فجاء بنو آدم على قدر الأرض » . الحديث أخرجه أبو داود والترمذى وصححه ابن حبان .

ومنها حديث أنس رفعه : « لما خلق الله آدم تركه ما شاء أن يدعه ، فجعل إبليس يطيف به ، فلما رآه أجوف عرف أنه لا يتمالك » . رواه مسلم وأحمد[1] .

« والمعنى أن الله تعالى أوجد آدم على الهيئة التي خلقه عليها[2] ، لم ينتقل في المنشأة أحْوالا ولا تردد في الأرحام أطوارا كذريته ، بل خلقه الله رجلا كاملا سويا من أول ما نفخ فيه الروح » .

وروى ابن أبي حاتم بإسناد حسن عن أبي بن كعب مرفوعا : « أن الله خلق آدم رجلا طوالا كثير شعر الرأس كأنه نخلة سحوق »[3] .

وقال بعض العلماء في قول رسول الله محمد ﷺ : « فمررت بيوسف وإذا هو قد أعطي شطر الحسن » . قالوا : معناه أنه كان على النصف من حسن آدم عليه السلام . وهذا مناسب ، فإن الله خلق آدم وصوره بيده الكريمة ، ونفخ فيه من روحه ، فما كان ليخلق إلا أحسن الأشياء .

وقد ورد الحديث المروى في الصحيحين وغيرهما من طرق أن رسول الله ﷺ قال :

= الشخص شيئا فشيئا ، ولا ينقص ذلك فيما بين الساعتين ولا اليومين حتى إذا كثرت الأيام تبين ، فكذلك هذا الحكم في النقص ، المصدر السابق ، ص ٣٦٧ .

(١) المصدر السابق ، ص ٣٦٤ .

(٢) أى لم يشاركه في خلقه أحد (المصدر السابق ، ص ٣٦٦) .

(٣) فتح البارى ، جـ ٦ ، ص ٣٦٧ .

« إن الله خلق آدم على صورته »[1] .

الله سبحانه وتعالى يعلم آدم أسماء كل شيء :

يقول الله عز وجل : ﴿ **وعلم آدم الأسماء كلها** ﴾ [2] .

ويقول سبحانه وتعالى :

﴿ **اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم . علم الإنسان مالم يعلم** ﴾[3] .

يقول الإمام الحافظ ابن كثير : « وفيها التنبيه على ابتدائه خلق الإنسان من علقة ، وأن من كرمه تعالى أن علم الإنسان ما لم يعلم ، فشرفه وكرمه بالعلم ، وهو القدر الذى امتاز به أبو البرية آدم على الملائكة ، والعلم تارة يكون في الأذهان ، وتارة يكون في اللسان ، وتارة يكون في الكتابة بالبنان : ذهني ولفظي ورسمي . والرسمي يستلزمهما من غير عكس ، فلهذا قال : ﴿ **اقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم** ﴾ . وفى الأثر : « قيدوا العلم بالكتابة » وفيه أيضا : « من عمل بما علم ، ورثه الله علم ما لم يكن يعلم » [4] .

---

(١) البداية والنهاية ، جـ ١ ، ص ٩٧ ــ ٩٨ .

(٢) قال البخارى فى تفسير هذه الآية فى كتاب التفسير فى صحيحه : حدثنا مسلم بن إبراهيم حدثنا هشام عن قتادة عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال ــ وقال لى خليفة : حدثنا يزيد بن ذريع حدثنا سعيد عن قتادة عن أنس ابن مالك أن رسول الله ﷺ قال ــ : « يجتمع الناس يوم القيامة فيقولون : لو استشفعنا إلى ربنا فيأتون آدم فيقولون : أنت أبو الناس خلقك الله بيده وأسجد لك ملائكته وعلمك أسماء كل شيء فاشفع لنا إلى ربك حتى يريحنا من مكاننا هذا ، فيقول : لست هناكم ويذكر ذنبه ، فيستحى ، ائتوا نوحا فإنه أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض . فيأتونه فيقول : لست هناكم ، ويذكر سؤال ربه ماليس له به علم فيستحى . فيقول : ائتوا خليل الرحمن فيأتونه فيقول : لست هناكم فيقول : ائتوا موسى عبداً كلمه الله وأعطاه التوراة فيأتونه فيقول : لست هناكم ويذكر قتل النفس بغير نفس فيستحى من ربّه فيقول : ائتوا عيسى عبد الله ورسوله وكلمة الله وروحه فيأتونه فيقول : لست هناكم ائتوا محمداً عبداً غفر له ماتقدم من ذنبه وماتأخر ، فيأتونى فأنطلق حتى استأذن ربّى فيأذن لى فإذا رأيت ربّى وقعت ساجدا فيدعنى ما شاء الله ثم يقال : ارفع رأسك وسل تُعْطه وقُلْ يُسمَع واشْفَع تُشفَّع ، فأرفع رأسى فأحمده بتحميد يعلمنيه ثم أشفع فيحد لى حدّا فأدخلهم الجنة ثم أعود إليه فإذا رأيت ربى مثله ثم أشفع فيحد لى حدّا فأدخلهم الجنة ثم أعود الثالثة ثم أعود الرابعة فأقول : مابقى فى النار إلا من حبسه القرآن ووجب عليه الخلود » . فدل هذا على أن علّمه أسماء جميع المخلوقات ، ولهذا قال : ﴿ **ثم عرضهم على الملائكة** ﴾ يعنى المسميات (تفسير القرآن العظيم ، جـ ١ ، صـ ٧٣) .

(٣) العلق : ١ ــ ٥ (٤) تفسير القرآن العظيم ، جـ ٤ ، ص ٢٥٧ ــ ٥٢٨ .

الله سبحانه وتعالى خلق حواء :

أورد الإمام ابن حجر أحاديث عن خلق حواء منها :

حدثنا أبو كريب وموسى بن حزام قالا : حدثنا حسين بن علي عن زائدة عن ميسرة عن الأشجعي عن أبي حازم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « استوصوا بالنساء ، فإن المرأة خُلِقَتْ من ضِلْعٍ ، وإن أعوج شيء من الضلع أعلاه ، فإن ذهبت تقيمه كسرته ، وإن تركته لم يزل أعوج ، فاستوصوا بالنساء » (١) .

وفي الحديث إشارة إلى تسلية الرجال فيما يقع لهم من نسائهم بما وقع من أمهن الكبرى ، وأن ذلك من طبعهن فلا يفرط في لوم من وقع مِنْها شيء من غير قصد إليه أو على سبيل الندور ، وينبغي لهن أن لا يتمكن بهذا في الاسترسال في هذا النوع ، بل يضبطن أنفسهن ويجاهدن هواهن والله المستعان (٢) .

الله سبحانه وتعالى ينزل آدم الجنة ، ثم ينزله إلى الأرض بعد أن خالف أمر الله وأكل من الشجرة :

« يقول الله تعالى إخبارا عما ألزم به آدم ــ بعد أن أمر الملائكة بالسجود له فسجدوا ، إلاَّ إبليس ــ : أنه أباحه الجنة يسكن منها حيث يشاء ، ويأكل منها ما شاء رغدا ، أى هنيئا واسعا طيبا (٣) .

وقد نهى الله ــ عز وجل ثناؤه ــ آدم وزوجته عن أكل شجرة بعينها من أشجار الجنة دون سائر أشجارها فأكلا منها ، ولا علم عندنا بأى شجرة كانت على التعيين لأن الله لم يضع دليلا على ذلك في القرآن ولا من السنة الصحيحة (٤) .

ولما أكل آدم وزوجه من الجنة ، أخرجهما الله مما كانا فيه ، أى من اللباس والمنزل

---

(١) فتح الباري ، جـ ٦ ، ص ٣٦٣ حديث رقم ٣٣٣١ ، وفيه إشارة إلى أن حواء قد خلقت من ضلع آدم الأيسر وقيل : من ضلعه القصير ، (نفس المصدر ، ص ٣٦٨) .

(٢) المصدر السابق ، ص ٣٦٨ .

(٣) روى الحافظ أبو بكر بن مردويه من حديث محمد بن عيسى الدامغاني حدثنا مسلمة بن الفضل عن ميكائيل عن ليث عن إبراهيم التيمي عن أبيه عن أبي ذر قال : قلت : يارسول الله ، أرأيت آدم أنبيا كان : قال : « نعم نبيا رسولا يكلمه الله قبيلا » . يعني عيانا ــ فقال : ﴿ **اسكن أنت وزوجك الجنة** ﴾ . وقد اختلف في الجنة التي أسكنها آدم ، أهي في السماء أم في الأرض ، فالأكثرون على الأول ، تفسير القرآن العظيم ، جـ ١ ، ص ٧٨ .

(٤) تفسير القرآن العظيم ، جـ ١ ، ص ٧٩ .

الرحب والرزق الهنيء والراحة ، وأمرهما بالنزول إلى الأرض لتكون لها قرار وأرزاق وآجال إلى حين ـــ أى إلى وقت ومقدار معين ثم تقوم القيامة [١] .

الله سبحانه وتعالى يقبل توبة آدم عليه السلام ، ويبين له طريق الهداية وعاقبته وطريق الضلال ونهايته :

﴿ فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنَّه هو التواب الرحيم . قلنا اهبطوا منها جميعا فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ [٢] .

« يقول الله تعالى مخبرا عما أنذر به آدم وزوجته وإبليس حيث أهبطهم من الجنة ، والمراد الذرية ، أنه سينزل الكتب ويبعث الأنبياء والرسل ، فمن أقبل على ما أنزلت به الكتب وأرسلت به الرسل ﴿ **فلا خوف عليهم** ﴾ أى فيما يستقبلونه من أمر الآخرة ﴿ **ولا هم يحزنون** ﴾ على ما فاتهم من أمور الدنيا ، والذين كفروا منهم فهم مخلدون في النار لا محيد لهم عنها ولا محيص) [٣] .

كم من الوقت أمضى آدم وزوجه في الجنة ؟ :

« يقول ابن عباس رضي الله عنهما : « ما أسكن آدم الجنة إلا مابين صلاة العصر إلى غروب الشمس » [٤] .

خلق آدم يوم الجمعة :

قال رسول الله ﷺ : « خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة ، فيه خلق آدم ،

---

(١) المصدر السابق ، ص ٨٠ .

(٢) « وقال السدى عمن حدثه عن ابن عباس : (فتلقى آدم من ربه كلمات) قال : « قال آدم عليه السلام : يارب ألم تخلقنى بيدك ؟ قيل له : بلى . ونفخت فى من روحك ؟ قيل له : بلى . وعطست فقلت : يرحمك الله وسبقت رحمتك غضبك ؟ قيل له : بلى . وكتبت عليّ أن أعمل هذا ؟ قيل له : بلى . قال : أرأيت إن تبت هل أنت راجعي إلى الجنة ؟ قال : نعم » . وهكذا رواه العوفي وسعيد بن جبير وسعيد بن معبد عن ابن عباس بنحوه ، ورواه الحاكم في مستدركه من حديث ابن جبير عن ابن عباس ، وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، تفسير القرآن العظيم ، جـ ١ ، ص ٨١ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٨٢ .

(٤) رواه الحاكم ثم قال صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه .

وفيه أدخل الجنة ، وفيه أخرج منها » [1] .

آدم عليه السلام يعمرّ ألف سنة على الأرض وكان نبياً مرسلا :

ما رواه ابن حبان فى صحيحه عن أبى ذر قال : قلت : يارسول الله ، كم الأنبياء ؟ قال : « مائة ألف وأربعة وعشرون » . قلت : يارسول الله كم الرسل ؟ قال : « ثلاثمائة وثلاثة عشر جم غفير » . قلت : يارسول الله ، من كان أولهم ؟ قال : « آدم » . قلت : يارسول الله نبى مرسل ؟ قال : « نعم خلقه الله بيده ونفخ فيه من روحه ثم سواه قبَلا » .

وآدم عليه السلام فى السماء الدنيا لما ورد فى حديث الإسراء الذى فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ لمّا مرّ بآدم وهو فى السماء الدنيا قال له : مرحبا بالابن الصالح والنبى الصالح قال : وإذا عن يمينه أسودة وعن يساره أسودة . فإذا نظر عن يمينه ضحك وإذا نظر عن شماله بكى . فقلت : ياجبريل ما هذا ؟ قال : هذا آدم وهؤلاء نسم بنيه فإذا نظر قبل أهل اليمن وهم أهل الجنة ضحك وإذا نظر قبل أهل الشمال وهم أهل النار بكى [2] .

وفاة آدم عليه السلام :

وقد توفى آدم يوم الجمعة وجاءت الملائكة بحنوط وكفن من عند الله عز وجل من الجنة ، وعزوا فيه ابنه ووصيه شيثاً عليه السلام . وقيل : إن آدم لما حضره الموت قال لبنيه : أى بنى إنى أشتهىَ من ثمار الجنة قال : فذهبوا يطلبون له فاستقبلتهم الملائكة ومعهم أكفانه وحنوطه ومعهم الفوس والمساحى والمكاتل فقالوا لهم : يابنى آدم ماتريدون وماتطلبون أو ماتريدون وأين تطلبون ؟ قالوا : أبونا مريض واشتهى من ثمار الجنة . فقال لهم : ارجعوا فقد قضى أبوكم فجاءوا فلمّا رأتهم حواء عرفتهم فلاذت بآدم فقال : إليك عنى فإنى ما أتيت من قبلك فخلى بينى وبين ملائكة ربى عز وجل فقبضوه وغسلوه وكفنوه وحنطوه وحفروا له ولحدوه وصلوا عليه . ثم أدخلوه قبره ووضعوه فيه . ثم حثوا عليه . ثم قالوا : يابنى آدم هذه سنتكم [3] .

---

(١) رواه مسلم والنسائي ، تفسير القرآن العظيم ، جـ ١ ص ٨٠ .

(٢) فتح البارى جـ ٦ ص ٣٧٤ ؛ البداية والنهاية ، جـ ١ ، ص ٩٩ .

(٣) البداية والنهاية ، جـ ١ ، ص ٨٩ .

obeikandl.com

المصادر والمراجع

أولاً : المصادر والمراجع العربية

- لقرآن الكريم .
- **البداية والنهاية** : للإمام أبى الفداء الحافظ ابن كثير ، الرياض وبيروت ١٩٦٦ م .
- **تاريخ الرسل والملوك** : لأبى جعفر محمد بن جرير الطبرى ، دار المعارف ، القاهرة .
- **تفسير القرآن العظيم** : للإمام الحافظ عماد الدين أبى الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقى ت ٧٧٤ هـ ، دار الفكر .
- **جامع البيان عن تأويل آى القرآن** : لأبى جعفر محمد بن جرير الطبرى ت ٣١٠ هـ ، دار الفكر ، بيروت ١٩٨٤ م .
- **الجامع لأحكام القرآن** : لأبى عبد الله محمد بن أحمد الأنصارى القرطبى ، دار إحياء التراث العربى ، بيروت .
- **صحيح البخارى** .
- **صحيح مسلم بشرح النووى** .
- **صفوة التفاسير** : للشيخ محمد على الصابونى ، دار القرآن الكريم ، بيروت .
- **فتح البارى بشرح صحيح البخارى** : للإمام أحمد بن على بن حجر العسقلانى ، دار المعرفة .

* **مراجع يجب أن تخضع للجرح والتعديل قبل الاعتماد على ما ورد فيها من معلومات :**

- **اللـــه** : عباس محمود العقاد ، القاهرة .
- **تاريخ الحضارة المصرية** : محمد شفيق غربال وآخرون ، القاهرة .
- **تاريخ الشرق الأدنى القديم** : أنطون مورتكات ، ترجمة : توفيق سليمان وعلى أبو عساف وقاسم طوير ، دمشق .

- **تاريخ العالم** : أشرف على إعداده ج . هامرتن ، ترجمة : محمد بدران وآخرين ، ط٢ ، مكتبة النهضة المصرية .
- **تاريخ مصر من فجر التاريخ** : أ . شارف ، ترجمة : د. عبد المنعم أبو بكر .
- **تراث العالم القديم** : و . ج دى بورج ، ترجمة : زكى موسى ، مراجعة : د. يحيى الخشاب ، القاهرة ١٩٦٥ م .
- **تطور الفكر والدين فى مصر القديمة** : ج . هـ . برستد ، ترجمة : زكى سوس ، القاهرة .
- **الجغرافية التاريخية عصر ما قبل التاريخ وفجره** : د. محمد السيد غلاب ، ود. يسرى الجوهرى ، القاهرة .
- **حضارة مصر والشرق القديم** : د. إبراهيم رزقانة ود. محمد أنور شكرى وآخرون ، القاهرة .
- **حضارة مصر الفرعونية** : ا.د أحمد فخرى ، القاهرة ١٩٥٧ م .
- **الحضارات السامية القديمة** : س. موسكاتى ، ترجمة : د. السيد يعقوب بكر .
- **ديانة مصر القديمة نشأتها وتطورها** : أ.د إرمان ، ترجمة : د. محمد أنور شكرى ود. محمد عبد المنعم أبو بكر ، القاهرة ١٩٥٢ م .
- **شجرة الحضارة**: دالف لنتون ، ترجمة : د. أحمد فخرى ، القاهرة ١٩٥٠ م .
- **الشرق الأدنى القديم مصر والعراق** : أ.د عبد العزيز صالح ، القاهرة ١٩٧٣م .
- **الشرق الخالد** : أ.د عبد الحميد زايد .
- **فجر الضمير** : ج . هـ . برستد ، ترجمة : سليم حسن ، القاهرة .
- **قصة الحضارة** : ديورانت ، ترجمة : محمد بدران وآخرين ، القاهرة .
- **مصر** : ج . فانديه : ترجمة : عباس بيومى ، القاهرة ١٩٥٠ م .
- **مصر والحضارة المصرية فى العصور القديمة** : ترجمة : محمد عبد المنعم أبوبكر ، ومحرم كمال ، القاهرة ١٩٥٣ م .
- **مصر والشرق الأدنى القديم** : نجيب ميخائيل ، ط ٣ ، دار المعارف .
- **معالم تاريخ الإنسانية** : أشرف على إعدادها هـ . ج . ولز ، وقام على ترجمتها

د. عبد العزيز توفيق جاويد ، ط٣ ، القاهرة .

- **موجز تاريخ الإنسانية** : ج . ولز .

- **موسوعة تاريخ العالم** : أشرف على إعدادها لانجر ، وترجمها د. مصطفى زيادة .

obeikandl.com